دراســــات
فى
الأدب الجاهلى

الأستاذ الدكتور

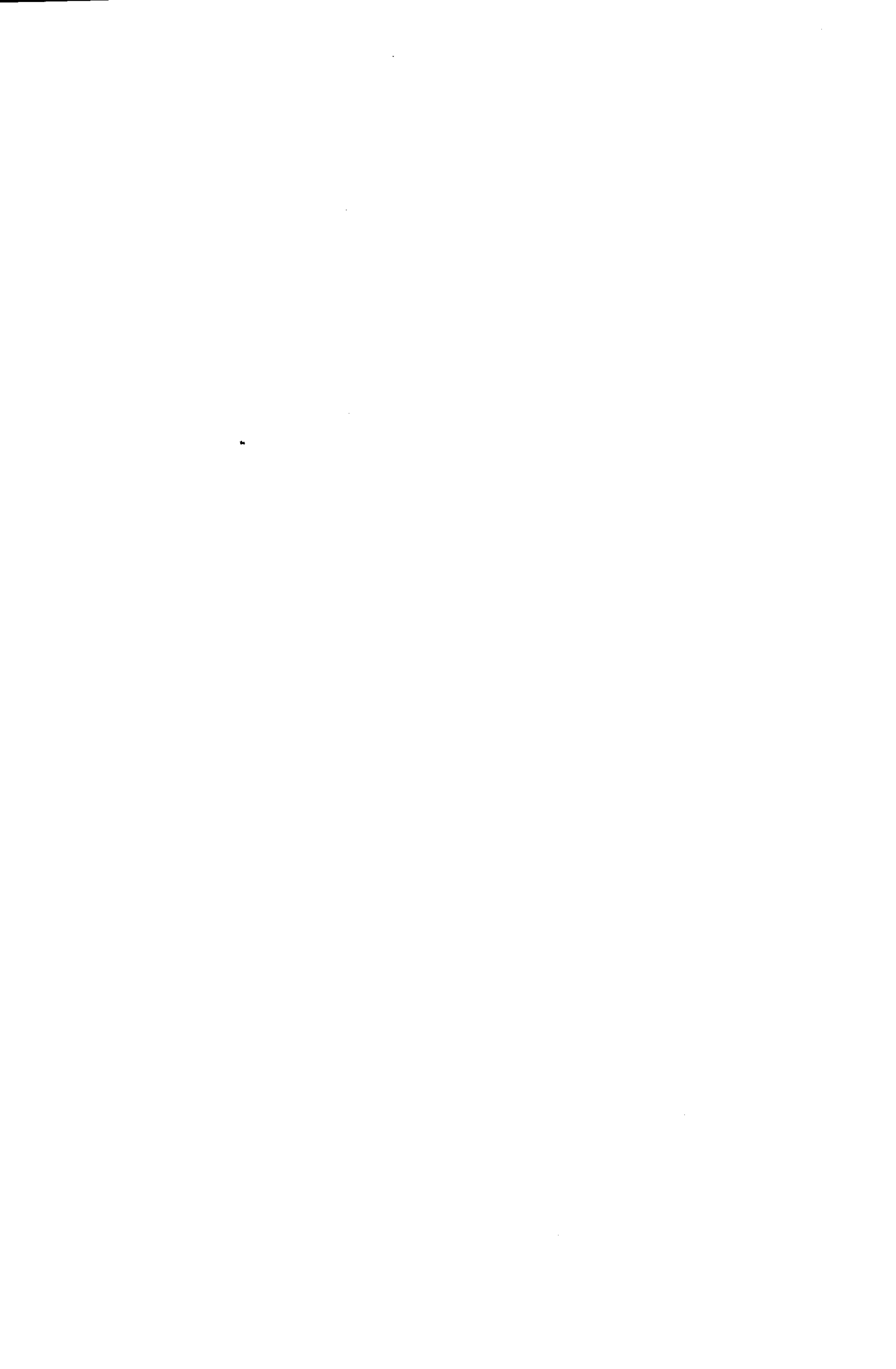
السيد محمد الديب

الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة)

١٤٣٧هـــ ٢٠١٦م

الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله تبارك وتعالى، وأصل وأسلم على رسول الله، وبعد

فهذه مقدمة الطبعة الثانية لكتابنا "دراسات فى الأدب الجاهلى"، وقد رأيت بعد طول الأمد بالكتاب، أن أُلحق به بعض الإضافات التى يحتاجها، فميدان الزمن قبل الإسلام يتسع للكثير، فاقتصر جهدنا على دراسة نصين من الشعر واثنين من النثر.

وجاءت بداية الإضافة بقصيدة "لامية العرب" للشنفرى، وأولها:

أقيموا بنى أمِّى صدورَ مطيكم ∴ فإنى إلى قوم سواكم لأميلُ

وهى أطول قصيدة لهذا الصعلوك الجاهلى، الذى أتعبنى البحث عن حقيقته، وعن دلالات شعره، ولم تكن لامية الشاعر الطغرائى بعيدة عنى، وأولها:

أصالةُ الرأى صانتنى عن الخَطَل ∴ وحلية الرأى زانتنى لدى العَطَل

وتحققت التثنية (فى هذه الطبعة) بدراسة أدبية تجديدية لشاعر جاهلى ثان، هو: بشر بن أبى خازم الأسدى، واخترت أن يكون عنوانها: الحماسة والفخر، وهى قصيدة قليلة الأبيات (اثنان وعشرون) ومثبتة فى عدة مصادر قديمة، منها: جمهرة أشعار العرب، والمفضليات، وقد نال بشر حظه من الدرس عند القدماء أكثر مما كتب عنه فى العصر الحديث.

وجاءت الوقفة الأولى مع النثر من خلال حديث أدبى (جـــاهلى) حدّدت فيه هند بنت عتبة بعض مواصفات الزوج الذى ترغبـــه مـــن خلال عرضٍ لرجلين، تقدما إلى أبيها للزواج منها، وكـــان اختيارهـــا لأبى سفيان بن حرب.

أما الوقفة الثانية مع النثر فكانت مع منافرة عامر بـــن الطفيـــل وعلقمة بن علاثة العامريين، وقد مثّل هذان الرجلان ثقلا أدبيا ومعرفيا فى البيئة العربية قُبيلَ الإسلام، وكان الأول شاعرًا بينما اعتنق الثـــانى الإسلام، وتعددت المنافرات فى الجاهلية، وتلاشت فيما بعد.

ولم أعبأ كثيرا بنثر الكهان، فمع أنه لون خاص بالعصر الجاهلى إلا أن مضمونه غر مريح، ونماذجه قليلة أو نادرة.

وتبقى فى النفس حاجة إلى ضم بعض الدراسات إلى هذا الكتاب، وآمل أن يتحقق ذلك فى طبعة جديدة.

وأحمد الله تعالى على ما أنعم به علىّ من خير وتوفيـــق، وهـــو حسبى ونعم الوكيل.

١٧ من ربيع الآخر ١٤٣٧هـ
٢٧ مـــــن ينـــــاير ٢٠١٦م

دكتور/ السيد محمد الديب

أستاذ بقسم الأدب والنقد

Sayed.Addeeb@hotmial.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعـوث رحمـة للعالمين ... وبعد

فقد جمعت فى هذا الكتاب عددا من الدراسات الأدبية التى تؤلف منها اختيارا نقديا لطلاب لغة القرآن الكريم وأدب العرب أينما كـانوا، وهو اختيار يكشف عن رغبتى الأكيدة فى تقديم صورة عـن الحيـاة الأدبية فى العصر الجاهلى.

وتبدأ هذه الدراسات بمعلقة عنترة بن شداد ، وأولها:

هل غادَرَ الشعراءُ منْ متـردَّمِ ∴ أم هل عرفْتَ الدار بعـد تـوهُّم

وتأتى بعدها قصيدة النابغة الذبيانى فى مدح النعمان بن المنـذر والاعتذار إليه، وأغلقت صفحة الحديث عن عـبس وذبيـان بدراسـة مجموعة من الأبيات لزهير بن أبى سلمى من معلقته أيضا.

وتحدثنا عن معلقة عمرو بن كلثوم، وهى التى شغل بها بنو تغلب بما لم تشغل به قبيلة بقصيدة ، وختمنا حديث الـشعر فـى المعلقـات بتسعة وعشرين بيتا فى وصف الطبيعة لامرئ القيس.

إن الحديث عن مطالع هذه القصائد يحيى جدلا واسعا أثاره الناس عن عدد من الأبيات من بينها قول زهير:

مـا أرانـا نقـولُ إلا مُعـارا ∴ أو معادًا من لفظِنـا مكـرُورا[1]

---

(١) معارًا : مقتبسًا من السابقين، ومكرورا: مكررا.

وقول مليك الشعر :

عُوجا على الطللِ المُحيل لأننا ∴ نبكى الديارَ كما بكى ابن خُذام[١]

أما أبيات جليلة بنت مرة فتصور مأساتها مع القبيلة، وتكشف عن لون من الشعر بكت فيه، وأبكت معها الكثيرات، وأتممنا حديث الشعر بنموذج من فن الهجاء للأعشى (ميمون بنَ قيس) . ثم اخترنا مجموعة متميزة من النثر الأدبى فى الجاهلية، سيلقاها القارئ مرتبة فى آخر الكتاب، وهى من الوصايا والأمثال والخطابة؛ حتى تكشف عن خصائص النثر الأدبى فى هذا العصر .

وأقر بأن هذه الروائع الأدبية ليست إلا منارة نسعى بضوئها إلى العالم الرحب الفسيح لأدبنا القديم، بأسراره وبواعثه وقضاياه .

وإذا كان الكتاب بهذه الصورة قد جمع بين ما كتبته منذ أكثر من عشر سنوات وما كتبته فى هذه الأيام فإننى آمل أن يتيسر لى بعض الوقت لأضم إليه ما رغبت فى بحثه ودراسته من الأدب العربى فى العصر الجاهلى، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور/ السيد محمد الديب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
بجامعة الأزهر ــ الزقازيق

الأربعاء: غرة رجب سنة ١٤١٩هـ
٢١ من أكتوبر سنة ١٩٩٨م

---

(١) ابن خذام: شخصية قديمة غير معروفة .

نماذج

من الشعر فى العصر الجاهلى

لامية العرب للشنفرى

نحيا فى هذا المبحث مع درس قديم متجدد، لشاعر جاهلى ضمن مجموعة من الشعراء عاشوا جميعا بين الجبال والوديان، يهيمون على وجوههم، ويفعلون ما يروق لهم، ويهتفون بالشعر المتميز الذى يمثلهم، ويمثل البيئة الصحراوية فى جزيرة العرب قبل الإسلام.

ولعل هذا الشعر لم يعد يروق للكثيرين فى زمن صار الاتجاه فيه إلى قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر، وإلى تهويمات غريبة لا تصنع ذوقا ولا تقدر تراثا.

وشاعر فى هذه الاستضافة لا يكاد المؤرخون يتفقون على شيئ له أو عليه، إلا لقبه وهو الشنفرى، إما اسمه ونسبه ونشأته ومقتله، وكذلك شعره فهى محل اختلاف، أرجو أن أخرج منه بنتائج حقيقية، أو تقترب منها قدر الجهد.

إن وجود ما يقرب من ثمانية أسماء للشنفرى يجعل القارئ فى حيرة، فإلى أى اسم يقتنع ويختار؟ ويبدو أن كثرة الأسماء أو الألقاب حقيقية ماثلة، فهى لرجل لا يكاد يوجد فى مكان حتى ينتقل لغيره، ولربما كانت هذه الكثرة راجعة إلى طبيعة الحياة التى عاشها، بدءا بالقبيلة التى نما وكبر فيها، ثم فى الصحارى التى هام بها، أى أن هذه الكثرة ــ فيما يبدو ــ عبارة عن أسماء (حركية) يلجأ إليها للتخفى أو للهروب، فكانت حياته فى بداية شبابه كثيرة الكر والفر، فهى غير مستقرة على اسم واحد يظهر به ويتعامل الآخرون معه على أساسه،

حتى قال بعض مؤرخى الأدب: إن هذا الشاعر ليس له اسم واحد معروف، وزعم آخرون أن الشنفرى ليس لقبا، وإنما هو اسم للشاعر، وكل ذلك خاضع للظن، وأن هذا القول بالاختلاف لم يقتصر على المُحْدَثين، وإنما اشتمل من كَتَب عنه من القدماء، كأبى الفرج فى كتابه الأغانى، فضلا عن الروايات التاريخية، التى تختلف منابعها وناقلوها صدقا وكذبا، مع طول العهد والقول بالنحل، وفقد الكثير من التراث العربى القديم ٠

وقيل: إن اسم الشنفرى: ثابت بن أوس الأزدى، وقيل: عمرو بن مالك، وقيل: غير ذلك، وأما الشنفرى وهو اللقب الذى لم ينازعه فيه أحد فمن بين معانيه الغليظ الشفتين، فإذا ضُم هذا الوصف إلى سواد سحنته، ونحافة جسمه، ودمامة هيئته صار الشكل مخيفا ومرعبا ومؤهلا بهذه المواصفات ــ فضلا عن الحياة خارج ديار قومه ــ إلى أن يكون واحدا من الصعاليك، إن لم يكن زعيمهم والمؤمر عليهم٠

والصعلوك هو: الفقير الذى لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، وعلى كل فاللقب واضح الدلالة على طبيعة الحياة، التى عاشها هذا الشاعر الجاهلى المرموق، وبها استحق أن يلقب بالشنفرى من أول شبابه مع قدرته على السلب والنهب والفرار٠

وأما عشيرته فهى: الأواس بن الحجر الأزدية اليمنية، فهو من جنوب الجزيرة العربية، قحطانى النسب، وليست لنا إحاطة كاملة بتاريخ أبيه، ولم تكن أمه إلا جارية حبشية سوداء، تنطلق فى القبيلة

إلى أن كان الحمل من واحد منها فأنجبت هذا الطفل الذى ربما عُرف أبوه فحمل نسبه الأزدى.

ولم تسعفنا مصادر التاريخ بالحقبة المبكرة من حياة الشنفرى فى قومه، لا من ناحية أبيه وأمه، ولا من جهة قبيلته، التى ابتدأ طفولته بها دون أن يتذكر شيئا منها.

وتبدأ المسيرة الحقيقية للشنفرى بعد أن أسره بنو سلامان بن مفرج بن عوف بن مدعان من الأزد، وعاش كأنه واحد منهم، إذ لم تحمل ذاكرته شيئا من منابت طفولته المبكرة ، وقيل إن بنى شبابة بن فهم كانوا قد أسروه، واستقر عندهم فترة، وأنه أوتى به إليهم مع أمه وأخيه، ولربما كان لذلك علاقة بمقتل أبيه، لكن الوقت لم يتسع له فى بنى فهم سواء أكان وحيدا (أسيرا) أو بصحبة أمه وأخيه (مجلوبا) إلى أن أسر بنو سلامان رجلا من بنى شبابة بن فهم، وكان أن حدثت مبادلة: إذ بعث بنو شبابة هذا الغلام الأسود إلى بنى سلامان على أن يعود إليهم الرجل المأسور منهم، وسواء أحدثت هذه المبادلة أم لم تحدث، فإن حياة الشنفرى التى وعى فيها قد بدأت فى وطنه الجديد ببنى سلامان، وحيدا بلا أب أو أم أو أخ، وانقطعت صلته بالماضى تماما، وأخذ يتنقل مع الدواب يرعاها منفردا، أو بصحبة ابنة الرجل الذى صار له بمنزلة الأب، بل إنه كان يناديه على أنه أبوه، والفتاة (قُعسوس) على أنها أخته، وسارت الحياة بالشنفرى فى هدوء واستقرار، إلى أن كان مع من يظنها أخته، فطلب منها أن تعينه على تنظيف رأسه فأبت عليه ذلك، ولطمته على وجهه، إذ كانت على علم

بأصوله، وأنه ليس أصيلا فى بنى سلامان، فانصرف إلى قبنيه، والذى يناديه على أنه أبوه، فذهب إليه هائجا غاضبا، وطلب معرفة أصـــوله فأخبره الرجل بأنه من الأواس بن الحُجر من الأزد، وكان ذلك نقطـــة تحول فى مسيرته، إذ شرع فى تبصر طريقه، والبحث عن متطلباتـــه، ويروى أنه قال شعرا وهو بصدد هذه الأحداث، ولئن صحّت روايتهـــا فتعد من البدايات المبكرة لشعره قال:

ألا أمَّ عمروٍ أزمعتْ فاســـتقلتِ ∴ وما ودعتْ جيرانَهـــا إذ تولّـــت

فوا ندمًا بانتْ أمامـــة بعـــدها ∴ طمِعتُ فهبها نعمةً قـــد تولـــت

وقد أعجبتنى لا سقوطا خمارُها ∴ إذا ما مشت ولا بذات تلفُّـــتِ[1]

وتذكر إحدى الروايات أن مشاعر الشنفرى وأحاسيسه قد بـــدأت تتشكل دون أن يحكم السيطرة عليها، فحاول تقبيـــل قعـــسوس لكنهـــا واجهته بلطمة يستحقها، وتسرب الأمر إلى والدها، ويبدو أن ذلك كان مرتهنا بمعرفة الشاعر لحقيقة أصله، لكن سلوكه قد أخذ قالبـــا جديـــدا تجلى فيه متقلبا ومنفلتا، وغير قادر على ضبط أموره، التى بدأت تنزع إلى الشر والغضب، والرد على أى اعتداء يوجه إليه، وأظهر آنـــذاك قدراته فى الشهامة والبطولة، وقول الشعر فاستحق بذلك أن يعلو على ماضيه وحاضره، ويبحث عن تشكيل لمستقبله، فى ظل حياة ينـــشدها، فدار بينه وبين الرجل ــ الذى لا زال يكن له محبة وتقديرا ــ حـــوار بخصوص الزواج من ابنته، لكن الرجل تخوف من إقرار ذلك فينقضُّ

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـــ٢١ صـــ١٧٨ طبع مؤسسة جمال للطبع والنشر بيروت ·

عليه قومه، بسبب خروجه عن أنظمة القبيلـــة وأعرافهـــا فأقـــسم لـــه الشنفرى ما لو لحق به شر وأذى أن يقتل منهم مائة رجـــل، وتـــذكر الروايات أيضا أنه قد بنى بالفتاة وأن الرجـــل قـــد قُتـــل فاستنهـــضته قعسوس بعد الزواج منها على أن يفى بقسمه وعهده فى الثأر لأبيهـــا، ولم يخيب الشنفرى ظنها فيه فشرع فى التحول إلى العنف والانتقام من بنى سلامان، الذين قتلوا من كان له أبا، ثم صار له صـــهرا، وســـواء أكان قسم الشنفرى على قتل مائة رجل من بنى سلامان انتقاما لقـــتلهم من زوّجه ابنته، أو كان لما لقى منهم من ازدراء وإهانـــات لا حـــدود لها، أو كان التحول للانتقام والصعلكة للسببين معا، ولأشـــياء أخـــرى ليست لنا معرفة بدقائقها، فإنه قد خرج من إطار القبيلـــة، وهـــام فـــى الصحراء استعدادا لتنفيذ ما وعد به، وقد أورد أبوالفرج فى الأغـــانى ثلاث روايات لبدء تصعلكه والشروع فى الإبرار بقـــسمه، وأن كثـــرة النقول فى هذه الأحوال ربما تبعدها عن أصل الحقيقة، وتقترب بها فى غرف الكثيرين من الأباطيل والأساطير، لكن الشنفرى قد تميز بالعديد من الصفات لعل من أهمها أنه كان متميزا فى العدو، ولربما كان مـــن أبرز العدائين العرب.

وكان تحول الشنفرى إلى الثأر والانتقام علامة فارقة فى حياتـــه، إذ انفرط عقد ولائه للقبيلة، وصار الانتماء إلى جماعة ليست لها حدود فاصلة، تقف عندها، وهم الشعراء الـــصعاليك، ومـــنهم إلـــى جانـــب الشنفرى تأبط شرا والسليك بن السلكة وعروة بن الـــورد وأبـــوخراش الهذلى وغيرهم.

وهؤلاء كانوا شعراء ، ولشعرهم طبائع ومواصفات خاصة، وإن كنا لا ندرى كيف حُفظ هذا الشعر وروى عنهم، وتناقلته الأجيال من بعدهم، مع أن الصعلكة لم تقتصر على بيئة ضيقة محدودة فى المناطق القريبة من مكة أو البعيدة عنها، لكن الثابت أنهم أكثر من جيل، ومنهم من امتدت صعلكته إلى زمن بعثة الرسول ﷺ، وربما خلال القرن الهجرى الأول، وترجع أصولهم إلى عدة قبائل فأبوخراش الهذلى من قبيلة هذيل، وهى معروفة المواقع وأماكن النفوذ وتأبط شرا من قبيلة فهم، وعروة بن الورد من قبيلة عبس فللشعراء الصعاليك أصول ومنابت بدأوا حيواتهم بها، ثم انفصلوا عنها، واختلطوا لأنفسهم طرائق جديدة خاصة بهم ، وقد وصل انتشار الصعاليك إلى مناطق كثيرة ومتسعة.

وكان تنفيذ الشنفرى للقتل من بنى سلامان أمرا خاصا به لم يساعده فيه أحد أى ليس أمرا عاما للصعاليك، وكان قد تحمل تبعات ذلك بنفسه فقتل من قتل إلى أن بلغ العدد تسعة وتسعين، وتلك الإخبارية متداولة فى كتب التراث، غير أننا لا نخفى شكنا فيها، وارتيابنا لكل من اتصل بها، فمن الذى أحصى هذا العدد الكبير من القتلى، ثم تكتمل الحبكة لهذه الروايات التاريخية بأن الشنفرى بعد أن قتل فى حيازات بنى سلامان أو على مقربة منها، تناثرت عظامه، وبقيت جمجمته تعلن عنه، فجاء من ركلها بقدمه، أو أزاحها عن طريقه فاخترقت شظية منها بدن ذلك الرجل، وتسممت قدمه فمات من

جراء ذلك فصار المتمم للمائة، وكانت وفاة الشنفرى سنة سبعين قبل الهجرة (٥١٠م) وقيل غير ذلك.

وقد أعفينا القارئ من كثرة الروايات التاريخية حول نهاية الشنفرى والتربص له بعد أن قتل التسعة والتسعين، وعن العظام المتناثرة من بدنه بعد قتله وصلبه، ولا أعتقد أن الشيم العربية العريقة كانت ترضى بأن تتناثر العظام الآدمية فى الطرق دون أن توارى تحت الثرى، أو تخبأ بأية طريقة أو تحرق، حتى لو كانت لعتاة الصعاليك، لأنهم بكل تأكيد يرتقون عن الدواب وسائر الوحوش.

وانطوت بمقتل الشنفرى صفحة حياته وبقيت أخباره وأشعاره بين أيدينا، لكننا لا نستطيع أن نفصل القول فى أمور كثيرة حوله، وحول بقية الصعاليك، فقد كانت لديهم أسلحة ونبال يقاتلون بها، فأين صُنعت وكيف تُحفظ وتصان،كما أن أخبار معائشهم الاجتماعية كانت ولا زالت غائمة، وكيف كان مآل الشعر الذى صور كل تنقلاتهم فى الصحراء فلابد أن الكثير منه قد ضاع من بين ما ضاع من التراث العربى فى العصر الجاهلى وما تلاه إلى وقت قريب من العصر الحديث.

يحمل الشعراء الصعاليك بعض القيم والخلال التى تخصهم، ويتحمسون لها ويدافعون عنها، لكن هذه السلوكيات بما فيها من حمق وسوء أيضا قد بدأت فى التلاشى شيئا فشيئا فى السنوات التالية، وكان انتشار الإسلام فى سائر ربوع الجزيرة العربية قد أخمد النشاطات المنحرفة للصعاليك لما كانت تختزنه من عداء لسائر القبائل.

وقد حزن الصعاليك لمقتل الشنفرى إذ كان عونا ونصرا لهم ورثوه وبكوا عليه بشعر صادق حزين ومنهم تأبط شرا الذى قال في ذلك:

على الشنفرى سارِى الغمام ورائحٌ ∴ غزيرُ الكُلّى وصيب الماءِ باكرُ

عليك جزاءٌ مثلُ يومك بالجَبَا ∴ وقد أرعِفت منك السيوف البواتر

ثم ختم هذه القصيدة بقوله:

وأن سوام الموت تجرى خلالنا ∴ روائحُ من أحداثه وبواكر

فلا يبعدنّ "الشنفرى" وسلاحُه ∴ الحديدُ، وشدٌّ خطوه متواترُ

إذا راعَ رَوْعُ الموتِ: راعَ وإن حمى ∴ حَمى معه حُرٌّ كريمٌ مصابرُ(١)

إطلالة على شعر الشنفرى :

حمل التاريخ لنا قدرا لا يستهان به من شعر الصعاليك، ونعتقد أن كثيرا منه لم يصل إلينا، إذ أن أنظمة المعيشة وأساليب الحياة، التى كان يحياها هؤلاء الشعراء لم تكن معينة لهم على الاستقرار، وتلقى الرواة لمجموع نتاجهم من الشعر، فانتقل لنا منه ما لا يتناسب مع مواهبهم وقدراتهم، لكنه يمثل أهمية بالغة فى تصوير البيئة العربية فى الجاهلية حسب رؤيتهم وتصورهم، كما أن لهم بعض الصفات المقبولة لتمثيلها لجوانب من الشيم العربية القديمة.

---

(١) ديوان الشنفرى ـ جمع وتحقيق وشرح صـ١٥ الدكتور/ إميل بديع يعقوب طبع دار الكتاب العربى ـ بيروت عام ١٩٩١م.

ويتميز شعرهم غالبا بالصدق والتوهج والاقتصار على الذات عند الفخر، ولم يكونوا مبالين بمن يرونه مؤهلا للمدح، وليسوا فى احتياج أيضا لأن ينالوا عطاءً من عظيم أو ذى شأن، فبقيت أشعارهم صورا معبرة عن أنظمة معيشتهم فى الصحراء، وكراهتهم لأصحاب النفوذ، ومالكى الأرض والأموال وأشياء أخرى قد تستحق المدح والثناء.

أما شعر الشنفرى فلم يكن كثيرا، ويعود الفضل فى جمعه فى العصر الحديث إلى العلامة عبدالعزيز الميمنى أستاذ الأدب العربى فى جامعة عليكرة بالهند، فقد نشر ديوان الشنفرى فى كتابه الطرائف الأدبية استنادا إلى نسخة الديوان المختصرة فى مكتبة بأستنبول إلى جانب أشعار أخرى من غير هذا الطريق، وجاء محقق الديوان وناشره فاقتطع جزءا من طرائف الميمنى تخص الشنفرى، وجعلها أصلا للديوان الذى بين أيدينا[١] ، علما بأن نتاجه من الشعر مفرق فى كثير من كتب التراث مثل الأمالى لأبى على القالى، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وغيرها، واعتبرت قصيدة اللامية أشهر هذا الشعر وهى أصدق ما عبر عن الشنفرى، وسائر الصعاليك ولهذه القصيدة اهتمام بالغ من القدماء والمحدثين على اختلاف توجهاتهم فى الأدب والبيان، وإن كانت الشكوك كثيرة بشأنها، فلم يروها أبوالفرج فى أغانيه مع أنه قد تحدث بإفاضة عن الشنفرى وشعره، كما قيل إنها للرواية خلف الأمر أو لأحد تلاميذه، وأنها منحولة ومضافة للشنفرى وليست له.

---

(١) سبق طبع ديوان الشنفرى قبل ذلك فى مصر.

أما قصيدته التائية فهى أقصر من اللامية، وتتميز بعدم تسرب الشك إليها، وأوردها المفضل الضبى فى مفضلياته، وأبو الفرج فى أغانيه وغيرهما، وقدم محقق الديوان وشارحه لها فقال: (روى أن الشنفرى قدم مِنى، وبها حزام بن جابر، فقيل له: هذا قاتل أبيك فشد عليه، فقتله ثم سبق الناس على رجليه، ثم قال هذه القصيدة أو بعضا منها) وأولها:

ألا أمُّ عمرو أجمعتْ فاستقلتِ ∴ وما ودعتْ جيرانَها إذ تولتِ[١]

وقد سبقتنا أمّ عمرو بأمرِها ∴ وكانت بأعناق المطىِّ أظلت[٢]

بعينىَّ ما أمستْ فباتت فأصبحت ∴ فقضَّتْ أمورًا فاستقلت فولَّت[٣]

وأبياتها ستة وثلاثون وعرض فيها للعديد من الجوانب التى تصور كثيرا من طبائع المرأة العربية، فهذه التائية مع اللامية التى سنعرض لها هما أطول ما فى الديوان، وما عداهما عبارة عن عدد بسيط من القصائد القصيرة والمقطوعات فى حدود العشرة وأبياتها مجتمعة تقل عن المائة، إضافة إلى اللامية وأبياتها تسعة وستون والتائية السابق بيانها،ولذلك استبعد أن يكون ما فى هذا الديوان الصغير هو كل ما هتف به الشنفرى طوال حياته إذ أن قدراته فى اللامية وبعض شعره تؤكد أنه شاعر فحل كثر منه الصيال فى عالم القريض.

---

(١) أجمعت: عزمت على، استقلت: سارت، تولت: ابتعدت.

(٢) أظلت: أى أظلتنا.

(٣) ديوان الشنفرى جمع وتحقيق وشرح الدكتور/ إميل بديع يعقوب صـ ٣١ طبع دار الكتاب العربى ــ بيروت ١٩٩١م.

وتعد اللامية التى سنتحدث عنها أفضل ما فى شعر الشنفرى، فهى تمثل حياته بما فيها من تصعلك وارتماء فى أحضان الصحراء، والابتعاد عن قومه، فلم يجد فيهم ما يشجعه على البقاء معهم، مفضلا عليهم الحياة مع إخوانه من الصعاليك أو الوحوش، وقد هتف بشعره فى الحماسة والفخر، وامتدح كثيرا من الصفات الأخلاقية العامة، وصور بعضا من طبائع الحيوانات وصراعاتها، ويعد أبو على القالى أقدم من أثبت هذه القصيدة فى كتابه النوادر[١] .

وقد سلك الشنفرى فى بداية اللامية طريقا غير مألوف إذ تحدث عن خصام الأقارب، مع أن الحديث عنهم يعد فى الأساس باعثا على التعالى والفخر، وإذا كان ابن دريد قد نسبها إلى خلف الأحمر فإن ما نسب إلى عمر بن الخطاب فى شأنها يؤكد نسبتها إلى الشنفرى فذكر الرواة أن عمر ﷺ كان يأمر الناس أن يحفظوا لامية العرب[٢] لما فيها من صدق فى التعبير والتصوير، وإحياء للكثير من الألفاظ والتراكيب، وغير ذلك من الخصائص المتميزة التى سنعرض لها فى الصفحات التالية .

---

(١) ضمن كتابه الأمالى والذيل والتنبيه جـ٢ صـ٢٢٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٦م.

(٢) شرح كتاب الرقاق من صحيح البخارى للمغامسى، وقد شرحها المبرد والزمخشرى وابن عطاء الله المصرى وابن زاكور المغربى، كما أجاد شرحها وفصل القول فيها وفى صاحبها أستاذنا العلامة الدكتور/ عبدالسلام سرحان ــ طيب الله ثراه ــ فى كتابه مختارات من روائع الأدب فى الجاهلية وصدر الإسلام ، كما ترجمت فى العصر الحديث أيضا إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية وغيرها.

القصيدة(*)

١- أقيموا بنـي أمـي صـدوَر مطـيكم .·. فـإنى إلى قـوم سـواكم لأميـلُ[١]

٢- فقد حمت الحاجـات والليـل مقمـر .·. وشُـدت لطيـاتى مطايـا وأرحُـل[٢]

٣- وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى .·. وفيهـا لمـن خـاف القِلـى متعـزَّل[٣]

٤- لعمرك ما بالأرض ضيقٌ على امـرئ .·. سـرى راغبـا أو راهبـا وهـو يعقِـل[٤]

٥- ولى دونَكـم أهلُـون سـيد عملَّـس .·. وأرقـطُ زهُلـولٌ وعرفـاءُ جيـأل[٥]

٦- هـم الأهـل لا مستودعُ السـر ذائـعٌ .·. لـديهم ولا الجـانى بمـاجَرَّ يخـذل[٦]

٧- وكـلٌّ أبـى باسـلٌ غـيرَ أننـى .·. إذا عَرَضَـتْ أولى الطرائـد أبـسلُ[٧]

(*) اعتمدنا فى إثبات هذا النص على ديوان الشنفرى، الـذى جمعـه وحققـه وشرحه الدكتور إميل بديع يعقوب المطبوع بدار الكتاب العربى ـ بيروت ـ الطبعة الأولى عام ١٤١١هـ (١٩٩١م) صـ٥٨ وعدد الأبيات فـى هـذه اللامية تسعة وستون، كما اعتمدنا فى المراجعة على رواية أبى على القـالى فى النوادر صـ٢٢٦ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وعدد الأبيات بها ثمانية وستون، وراجعنا القصيدة فى مصادر أخرى.

(١) بنو أمى يقصد: الأشقاء أو غيرهم ما دامت تجمعهم الأم.

(٢) حمت: قدرت ودبرت، الطيات: جمع الطية وهى الحاجة، أرحل: جمع رحل وهو ما يوضع على ظهر البعير.

(٣) القلى: البعد والكراهية، ومتعزل: مكان لمن يتعزل الناس.

(٤) لعمرك: قسم بالعمر، سرى: سار ليلا .

(٥) سيد: ذئب، عملس: قوى سريع، أرقط: النمر فيه سواد وبيـاض، زهلـول: خفيف، عرفاء: ضبع طويلة العرف، جيأل: من أسماء الضبع.

(٦) الأهل: يقصد الوحوش، الجانى: المقترف للجناية أى الذنب، جـرَّ: جنـى، يخذل: يتخلى عن نصرته.

(٧) وكل: أى كل وحش من الوحوش المذكورة، أبىٌّ: يأبى الذل والظلم . باسل: شجاع بطل . الطرائد: جمع الطريدة وهى كل ما يطرد فيصاد من الوحـوش والطيور. أبسل: أشد بسالة .

٨- وإن مُدت الأيدى إلى الزاد لم أكن ∴ بأعجلهم إذ أجشعُ القومِ أعجلُ[١]

٩- وما ذاك إلا بسطةٌ عن تفضلٍ ∴ عليهم وكان الأفضلَ المتفضلُ[٢]

١٠- وإنى كفانى فقدَ من ليس جازيا ∴ بحُسنى ولا فى قربه متعلَّل[٣]

١١- ثلاثة أصحاب فؤاد مشيَّعٌ ∴ وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عَيْطل[٤]

١٢- هتوف من المُلْس المتون تزينها ∴ رصائعُ قد نيطت إليها ومِحْمَل[٥]

١٣- إذ زلَّ عنها السهم حنَّتَ كأنها ∴ مرزَّأة عجلى ترِن وتُعول[٦]

١٤- وأغدو خميص البطن لا يستفزنى ∴ إلى الزاد حرصٌ أو فؤاد موكَّل[٧]

١٥- ولست بمهيافٍ يُعشىٍّ سوامَه ∴ مجدعةً سُقبانها وهى بُهَّل[٨]

---

(١) الجشع: النهم وشدة الحرص.

(٢) ذاك: إشارة إلى الأخلاق التى ذكرها. البسطة: السعة ، المتفضل: المدعى الفضل على غيره.

(٣) المتعلل: المتلهى.

(٤) المشيع: الشجاع. والإصليت: السيف المجرد من غمده، والصفراء : القوس من شجر النبع، العيطل: الطويلة.

(٥) هتوف: مصوتة، المُلس: جمع ملساء وهى التى لا عقد فيها، المتون: جمع المتن وهو الصلب ، الرصائع: جمع الرصيعة وهى ما يرصع أى يحلى به. نيطت: علقت، محمل: ما يعلق به السيف أو القوس على الكتف.

(٦) زل: خرج ، حنت: حنين القوس: صوت وترها، مرزأة: مصابة، عجلى: سريعة، ترن: تصوت برنين وتصرخ، تعول: ترفع صوتها بالبكاء والعويل.

(٧) هذا البيت ليس فى رواية أبى على القالى والقصيدة لديه ثمانية وستون بيتا، ومعنى: خميص البطن: جائع، يستفزنى: يثيرنى، الحرص: الجشع، وحَرص على الشئ اشتدت رغبته فيه.

(٨) المهياف : الذى يبعد بإبله طالبا المرعى على غير علم فيعطش، السوام: الماشية التى ترعى، المجدعة: سيئة الغذاء. السقبان: جمع سقب وهو ولد الناقة الذكر. البهل: جمع باهل وباهلة، وهى الناقة التى ليست بحالة يحتجر اللبن فيها.

١٦- ولا جُبأ أكهى مُربٍّ بعرسه ∴ يطالعها فى شأنه كيف يفعل[١]

١٧- ولا خرقٍ هيْقٍ كأن فؤاده ∴ يظل به المُكَّاءُ يعلو ويسفل[٢]

١٨- ولا خالفٍ داريةٍ متغزلٍ ∴ يروح ويغدو داهنا يتكحل[٣]

١٩- ولست بعَلٍّ شرُه دون خيره ∴ ألفٌّ إذا ما رُعتَه اهتاج أعزل[٤]

٢٠- ولست بمحيار الظلام إذا انتحت ∴ هدى الهوجلِ العسِّيف يهماء هوجل[٥]

٢١- إذا الأمعُز الصوانُ لاقى مناسمى ∴ تطاير منه قادح ومفلَّل[٦]

٢٢- أديم مطالَ الجوعِ حتى أميتَهُ ∴ وأضرب عنه الذكر صفحا فأُذهل[٧]

٢٣- واستف ترب الأرض كى لا يُرى له ∴ علىَّ من الطَّوْل امرؤ متطول[٨]

٢٤- ولولا اجتناب الزأم لم يلف مشرب ∴ يعاش به إلا لدىَّ ومأكل[٩]

---

(١) الجبأ: الجبان، الأكهى: المكدر الأخلاق، الذى لا خير فيه، مُربٌّ: مقيم ملازم، يعرسه: بامرأته.

(٢) الخرق: ذو الوحشة من الخوف أو الحياء والمراد الخائف. الهيق: ذكر النعام، ويعرف بشدة نفوره وخوفه، المكاء: نوع من الطيور.

(٣) الخالف: الذى لا خير فيه. الدارى: المقيم فى داره لا يبرحها، المتغزل: المتفرغ لمغازلة النساء، داهنا ــ يتزين بدهن نفسه.

(٤) العل: الذى لا خير عنده ، ألفُّ: عاجز ضعيف، اهتاج: خاف.

(٥) المحيار: المتحير، انتحت: قصدت واعترضت، هدى: هداية، الهوجل: الرجل الطويل الذى فيه حمق، العسيف: الماشى على غير هدى، الهيماء: الصحراء، الهوجل: الشديد المسلك المهول.

(٦) الأمعز : المكان الصلب الكثير الحصى . الصوان : الحجارة الملساء المناسم: جمع المنسم وهو خف البعير، القادح: الذى تخرج النار من قدمه، مفلل: متكسر.

(٧) أديم: استمر، المِطال: المماطلة، اضرب عنه الذكر صفحا: أتناساه . أذهل: أنساه.

(٨) الطول: المن، متطول: منان.

(٩) الزأم والزام: العيب الذى يذم به، يلف: يوجد .

٢٥- ولكن نفسا مرةً لا تقيم بى ∴ على الزام إلا ريثما أتحول[١]

٢٦- وأطوى على الخَمْص الحوايا كما انطوت ∴ خيوطةُ مارىٍّ تُغار وتُفتل[٢]

٢٧- وأغدو على القوتِ الزهيد كما غدا ∴ أزلُّ تهاداه التنائفَ أطحل[٣]

٢٨- غدا طاويا يعارض الريح هافِيا ∴ يخوتُ بأذناب الشعاب ويَعْسِل[٤]

٢٩- فلما لواه القوتُ من حيث أمَّه ∴ دعا فأجابته نظائر نحَّل[٥]

٣٠- مهللةٌ شِيبُ الوجوه كأنها ∴ قِداحٌ بأيدى ياسر تتقلقل[٦]

٣١- أو الخَشْرم المبعوث حثحث دَبْره ∴ محابيض أرداهن سامٍ معسِّل[٧]

---

(١) مرة: صعبة أبيه .

(٢) الخمص: الجوع، الحوايا: جمع الحوية وهى الأمعاء، الخيوطة: الخيوط مارى: فاتل، وقيل: اسم رجل اشتهر بصناعة الحبال وفتلها، تغار: يحكم فتلها .

(٣) القوت: الطعام، الزهيد: القليل، الأزل: صفة للذئب قليل اللحم. تهاداه: تناقله وتداوله، التنائف: مفردها تنوفة، وهى المفازة فى الصحراء، الأطحل: الذى فى لونه كدرة .

(٤) يعارض الريح: يستقبلها، أى يكون على عكس اتجاهها، هافيا: يذهب يمينا ويسارا من شدة الجوع، وقيل: السريع، يخوت: يختطف وينقض. الشعاب: مفرده الشّعب وهو الطريق فى الجبل، يعسل: يمر مرا سهلا .

(٥) لواه: دفعه، أمه: قصده، النظائر: الأشباه. نحل: جمع ناحل وهو الهزيل الضامر .

(٦) مهللة: رقيقة اللحم، وهى صفة لكلمة نظائر فى البيت السابق. شيب: جمع أشيب وشيباء، قِداح: جمع قدح بكسر القاف وهو السهم قبل بريه وتركيب نصله، الياسر: المقامر، تتقلقل: تتحرك وتضطرب .

(٧) الخشرم، عطف هذه الكلمة على الذئب الأزل فى بيت متقدم وإما على قداح فى البيت السابق. والخشرم: رئيس النحل. حثحث: حرك وأزعج. الدبر: جماعة النحل، المحابيض: جمع المحبض وهو العود مع مشتار العسل، أرداهن: أهلكهن، السامى: الذى يسمو لطلب العسل. المعسل: طالب العسل وجامعه .

٣٢- مهرَّتــة فــوه كــأن شــدوقَها ∴ شــقوقُ العــصى كالحــاتٌ وبــسل(١)

٣٣- فــضج وضــجَّت بــالبراح كأنهــا ∴ وإيــاه نــوحٌ فــوق عليــاءَ ثُكَّــل(٢)

٣٤- وأغضى وأغضت واتسى واتست به ∴ مراميــل عزَّاهــا وعزتــه مُرْمــل(٣)

٣٥- شكا وشكتُ ثم ارعوى بعد وارعوت ∴ وللــصبرُ إن لم ينفِــع الــشكوُ أجمــل(٤)

٣٦- وفــاء وفــاءت بــادرات وكلُّهــا ∴ علــى نكــظ ممــا يكــاتم مجمــل(٥)

٣٧- وتشرب أسآرى القطا الكُدرُ بعدما ∴ ســرت قربــا أحناؤهــا تتصلــصل(٦)

٣٨- هممت وهمت وابتدرنا وأسدلت ∴ وشمــر منــى فــارطٌ متمهــل(٧)

٣٩- فوليت عنهـا وهـى تكبـو لعُقْره ∴ يباشــره منهــا ذقــون وحوصــل(٨)

---

(١) المهرتة: الواسعة الأشداق، الفوه: مفردها الأفوه للمذكر والفوهاء للمؤنث، والمعنى المفتوحة الفم، الشدوق: جمع شدق وهو جانب الفم ، كالحات: مكشرة في عبوس، البسل: الكريهة المنظر.

(٢) ضج: صاح، البراح: الأرض الواسعة، النوح: النساء النوائح،العلياء: المكان المرتفع،الثكل:جمع الثكلى وهى المرأة التى فقدت زوجها أو ولدها أو حبيبها.

(٣) أغضى: كف عن العواء، اتسى: افتعل من الأسوة وهى الاقتداء ، مراميل: مفردها مُرمل وهو الذى لا قوت له.

(٤) شكا : أظهر حاله من الجوع، ارعوى: كف ورجع، الشكو: الشكوى.

(٥) فاء: رجع، بادرات: مسرعات، النكظ: شدة الجوع، يكاتم: يكتم ما فى نفسه، مجمل: صانع للجميل.

(٦) الأسآر: جمع سؤر وهو البقية فى الإناء من الشراب، القطا: نوع من الطيور مشهور بالسرعة. الكُدر: جمع أكدر للمذكر وكدراء للمؤنث. والكدرة اللون ينحو إلى السواد، القَرب: السير إلى الماء وبينك وبينه ليلة . الأحناء: جمع الحنو وهو الجانب ، تتصلصل: تصوت.

(٧) هممت بالأمر: عزمت على القيام به ولم أفعله، همت: أى القطا. ابتدرنا: سابق كل منا الآخر. أسدلت: أرخت أجنحتها كناية عن التعب، الفارط: المتقدم، متمهل: متأن.

(٨) وليت: انصرفت، تكبو: تسقط، العقر: مقام الساقى من الحوض يكون فيه ماء يتساقط من الماء عند أخذه من الحوض، الذقون: جمع الذقن، وهو منها=

٤٠- كـأن وغاهـا حجرتيـه وحولـه ∴ أضـاميم مـن سَـفْر القبائـل نـزَّل[١]

٤١- تـوافيْن مَـن شـتى إليـه فـضمها ∴ كمـا ضـم أذوادَ الأصـاريم منهـل[٢]

٤٢- فغبـتْ غِـشاشا ثـم مـرت كأنهـا ∴ مـع الـصبح ركـبٌ مـن إحاظـةَ مجفـل[٣]

٤٣- وآلف وجه الأرض عند افتراشـها ∴ بأهـدأ تنبيـه سناسـنُ قُحَّـلُ[٤]

٤٤- وأعـدل منحوضـا كـأن فـصوصَه ∴ كعـابٌ دحَاهـا لاعـبٌ فهـى مُثَّـل[٥]

٤٥- فـإن تبتـئس بالـشنفرى أم قـسْطلِ ∴ لمـا اغتبطـت بالـشنفرى قبـلُ أطـول[٦]

٤٦- طريـدُ جنايـاتٍ تياسـرنَ لحمَـه ∴ عقيرتُـه لأيهـا حُـمَّ أولُ[٧]

=ما تحت حلقومها. الحوصل: جمع الحوصلة ، والحوصل للطير: انتفاخ فى المرئ يختزن فيه الغذاء قبل وصوله إلى المعدة .

(١) الوغى: الصوت، حجرتاه: ناحيتاه، والضمير راجع إلى الماء، الأضاميم: جمع إضمامة، وهى القوم ينضم بعضهم إلى بعض فى السفر . السَّفْر: المسافرون، نزل: جمع نازل وهو المسافر الذى حط رحله، ونـزل بمكـان معين وحوله جماعات من المسافرين، الذين أحدثوا صخبا عند النزول .

(٢) توافين: توافدنا وتجمعنا، والضمير للقطا، شتى: متفرقة. الأذواد: جمع زَوْد وهو بين الثلاثة إلى العشرة من الإبل ، الأصاريم: جمع الصِّرمة وهى العدد من الإبل نحو الثلاثين . المَنْهل: مكان الشرب .

(٣) فغبت: الغبّ: شرب الماء من غير مص، الغِشاش: العجلة، ركْب: خـاص بركبان الإبل، أحاظه: قبيلة من اليمن، المجفل: المنزعج أو المسرع .

(٤) آلف: أتعود، أهدأ: شديد الثبات، تنبيه: تجفيه وترفعه، السناسن: فقار العمود الفقرى، قُحَّلُ: جافة يابسة .

(٥) أعدل: أتوسد ذراعا أى أسوى تحت رأسى ذراعا، المنحوض، الذى قد ذهب لحمه، الفصوص: مفاصل العظام، الكعاب: ما بين الأنبوبين مـن القـصب، والمقصود: شيئ يلعب به، دحاها: بسطها، مُثَّل: جمع ماثل وهو المنتصب .

(٦) تبتئس: تلقى بؤسا من فراقه، القسطل: الغبار، أم قسطل: الحرب، اغتبطت: سُرَّتْ .

(٧) جنايات: المقصود غاراته فى الصعلكة، تياسرن لحمه: اقتسمنه، عقيرتـه: نفسه، وصوته، حُم: نزل .

٤٧- تنـام إذا مـا نـام يقظـى عيونهـا ∴ حِثاثـــا إلى مكروهِــهِ تتغلغـــل[١]

٤٨- وإلـفُ همـوم مـا تـزال تعـودُه ∴ عِيـادا كحُمَّـى الرِّبـعِ أو هـى أثقـل[٢]

٤٩- إذا وردتْ أصـدرتُها ثـم إنهــا ∴ تثـوب فتـأتى مـن تحيـت ومـن علُ[٣]

٥٠- فإما تريـنى كابنـة الرمـل ضَاحيا ∴ علـــى رِقَّـــةٍ أحفَـــى ولا أتنعَّـــل[٤]

٥١- فـإنى لمـولى الـصبر اجتـابُ بـزّه ∴ على مثل قلـب السِمع والحـزم أفعلُ[٥]

٥٢- وأُعـدِمُ أحيانــا وأغنــى، وإنمــا ∴ ينـــال الغنـــى ذو البُعْـــدة المبتـــذل[٦]

٥٣- فـلا جَـزِعٌ مـن خَلَّـة متكـشف ∴ ولا مَـــرِحٌ تحـــت الغنـــى أتخيـــل[٧]

٥٤- ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أُرى ∴ ســؤولا بأعقــاب الأقاويــل أُنمــل[٨]

٥٥- وليلةِ نحس يصطلى القوسَ ربُّهـا ∴ وأقطُعـــهُ اللاتـــى بهـــا يتنبـــل[٩]

---

(١) تنام ــ الضمير للجنايات، والمقصود: مستحقوها، حثاثا: سراعا، تتغلغل: تتوغل وتتعمق.

(٢) الإلف: الاعتياد، الربع: الربع فى الحمى أن تأخذ يوما، وتدع يومين، ثم تجيئ فى اليوم الرابع، هى: ضمير يعود على الهموم.

(٣) وردت: جاءت والضمير للهموم، أصدرتها: رددتها، تثوب: تعود، تحيت: تصغير تحت، عل: مكان عال.

(٤) ابنة الرمل: الحية، أو البقرة الوحشية، ضاحيا: بارزا للحر والقر، رقة: أى رقة الحال وهى الفقر، أحفى من الحَفاء وهو عدم لبس النعل.

(٥) مولى الصبر: وليه، اجتاب: اقطع، البز: الثياب السِّمع: ولد الذئب من الضبع، أنعل: اتخذه نعلا.

(٦) أعدم: افتقر. البعدة: اسم للبعد، المتبذل: المسف الذى يقترف ما يعاب عليه.

(٧) جزع: يائس، الخلة: الفقر والحاجة، المتكشف: الذى يكشف فقره للناس، المرح: شديد الفرح. المتخيل: المختال بغناه.

(٨) تزدهى: تستخف. الأجهال: جمع الجهل، والمقصود الحمق والسفاهة. سؤول: كثير السؤال أو ملحّ فيه، الأعقاب: جمع العقب وهو الآخر. أنمل: أنم، والنَّملة: النميمة.

(٩) النحس: البرد، يصطلى: يستدفئ، ربها: صاحبها، الأقطع: جمع قطع، وهو نصل السهم، يتنبل: يتخذ منها النبل للرمى.

٥٦- دعست على غطْش وبَغْش وصحبتى ∴ سُـعار وإرزيـر ووجـر وأفِكَـل[١]

٥٧- فأيمـتُ نِسوانا وأيتمـت إلـدة ∴ وعـدتُ كمـا أبـدأت والليـل أليـل[٢]

٥٨- وأصبحّ عنـى بالغُمَيصاء جالسا ∴ فريقـان: مسؤول وآخـر يـسأل[٣]

٥٩- فقـالوا: لقـد هـرَّت بليـل كلابُنـا ∴ فقلنـا: أذئـب عـس أم عـس فُرعـل؟[٤]

٦٠- فلـم يـك إلا نبـأة ثـم هومـت ∴ فقلنـا: قطـاةٌ ريـع أم ريـع أجـدل[٥]

٦١- فـإن يـك مـن جـن لأَبـرح طارقـا ∴ وإن يـك إنـسا مـا كهـا الإنـسُ تفعـل[٦]

٦٢- ويـوم مـن الـشِّعرى يـذوب لعابُـه ∴ أفاعيـه فـى رمـضائه تتملمـل[٧]

٦٣- نـصبتُ لـه وجهـى ولا كِنٌّ دونـه ∴ ولا سـترَ إلا الأتحِمـىُّ المرعبـل[٨]

---

(١) دعست : دفعت بشدة وإسراع ، وقيل: مشيت. الغطش: الظلمـة. البغش: المطر الخفيف، السُعار: شدة الجوع، الإرزيز: البـرد، الـوَجْر: الخـوف، الأفكل: الرعدة والارتعاش.

(٢) أيمت نسوانا: جعلهن بلا أزواج، أتيمت إلدة، جعلت الإلدة أى الأولاد بـلا آباء . أبدأت: بدأت ، أليل: شديد الظلمة.

(٣) أصبح: فعل اسمه فريقان، وخبره جالسا ، ويجوز أن يكون فعلا تاما، فاعله فريقان وجالسا: حال. والغميصاء: موضع قرب مكة .

(٤) هرَّت: نبحت نباحا خفيفا، عس: طاف بالليل، الفُرعل: ولد الضبع.

(٥) نبأة: صوت ، والمراد صوت صدر مرة واحدة ضعيفا ، هومت: نامت، أى الطلاب، القطاة: نوع من طيور الصحراء، ريع: من راع أى خاف، وفاعلـه قطاة، الأجدل: الصقر.

(٦) أبرح: أتى البرح وهو الشدة ، الطارق: القادم بالليل، ما كهـا: مـا نافيـة والكاف للتشبيه.

(٧) الشِّعرى: كوكب يطلع فى فترة الحر الشديد ــ يوم من الشعرى: أى يوم من الحر الشديد، الأفاعى: الحيات. الرمضاء: شـدة الحـر، تتململ: تتحـرك وتضطرب.

(٨) نصبت له وجهى: أقمته بمواجهته، الكِن: الستر، الأتحمى: نوع من الثيـاب كالعباءة، المرعبل: الممزق.

٦٤- وضافٍ إذا طارتْ له الريح طيرت ∴ لبائدَ عن أعطافه ما تُرجل[١]

٦٥- بعيد بمس الدهن والفلى عهده ∴ له عبس عاف من الغِسل مُحْول[٢]

٦٦- وخرقٍ كظهر التُرس قفرٍ قطعته ∴ بعاملتن ظهره ليس يُعمل[٣]

٦٧- فألحقتُ أولاه بأخراه موفيا ∴ على قُنَّةٍ أُقعي مرارا وأمثل[٤]

٦٨- ترود الأراوِيُّ الصحمُ حولى كأنها ∴ عذارى عليهن المُلاء المذيَّل[٥]

٦٩- ويركدن بالآصال حولى كأننى ∴ من العُصْم أدْفِى ينتحى الكِيَح أعقل[٦]

---

(١) الضافى: السابغ المسترسل، ويعني شعره . اللبائد: جمع اللبيدة وهى الشعر المتراكب بين كتفيه، المتلبد لا يغسل ولا يمشط. أعطافه: جوانبه، ترجل: تسرح وتمشط.

(٢) الدهن : طيب مرطب للشعر، الفلى: البحث عن حشرة بشعر الرأس لإخراجها. العَبَس: ما يتعلق بأذناب الإبل من الروث والبول فيجف عليها ويصبح وسخا . عافٍ: كثير، محول: أتى عليه حول أى عام . الغِسل: بكسر الغين: الغسول، وهو ما يوضع فى الشعر من طيب ونحوه، وهو قريب فى المعنى من الغسل بفتح الغين .

(٣) الخرق: الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح، ظهر الترس: أى مستوية . قفر: مقفرة خالية، العاملتان: رجلان، والضمير فى (ظهره) يعود على الخرق، ليس يعمل أى لا تعمل فيه الرجلان.

(٤) ألحقت أولاه بأخراه، والضمير عائد على الخرق، أى قطعت، موفيا: مشرفا. القنة: أعلى الجبل، الإقعاء: نوع من الجلوس يلصق الإنسان فيه إليته بالأرض، وينصب ساقيه، ويتساند ظهره، أمثل: انتصب قائما.

(٥) ترود: تذهب وتجيئ، الأراوى، مفردها الأروية، وهى أنثى التيس البرى، الصُحم: جمع أصحم للمذكر ، وللمؤنثة صحماء ، وهى السوداء الضارب لونها إلى الصفرة، الملاء: نوع من الثياب، المذيل: الطويل الذيل

(٦) يركدن: يثبتن، الأصال: جمع الأصيل وهو الوقت من العصر إلى المغرب، العصم: جمع الأعصم وهو الذى فى ذراعيه بياض، أو فى إحدى يديه ، الأدفى من الوعول: ما طال قرنه جدا، ينتحى : يقصد، الكِيح : عرض الجبل وجانبه، الأعقل: الممتنع فى الجبل العالى لا يتوصل إليه.

إيضاح المضمون:

١ - بدأ الشنفرى لاميته فى البيت الأول على غير ما درج عليه الشعراء قبل الإسلام، فقد طلب من قومه أن يستعدوا لرحيله بعد أن ساءت العلاقة معهم، ولن يكون لهم مقام واستقرار بعد غيابه، فعليهم أن يرحلوا هم كذلك.

٢ - إن شروعه فى الرحيل ليس سرا، وإنما هو واضح معلن، وعليهم أن يقبلوا به، وليس فى ذلك نكوص وتراجع، مع أن كلا منهم يحتاج للآخر.

٣ - يبدو الشاعر حكيما فى هذا البيت، فيذكر أن الإنسان الكريم هو من يأبى الأذى والذل، ويختار البعد عن الناس واعتزالهم على أن يبقى معهم حقيرا مهانا.

٤ - يتصل معنى هذا البيت بما قبله، ففى الأرض رحابات فسيحة تتسع لمن أبى الإقامة على المذلة والهوان.

٥ - واختار الإقامة بعيدا عن أهله، فى مجتمع من الوحوش والحيوانات القوية، ولعله يقصد زملاءه من الصعاليك، الذين يشبهون هذه الوحوش.

٦ - يشيد الشاعر بمجتمعه الجديد الذى ارتحل إليه، مفضلا له على مجتمع قومه، فهذه الوحوش تحفظ الأسرار، ويتضامن بعضهم مع بعض ويتحدون ضد أعدائهم، فاستحقوا أن يكونوا له أهلا وأحبابا.

٧ - ويمتدح الشاعر الوحوش المفترسة بالشجاعة والبطولة، ولكنـــه المقدم فيهم، والقائد لهم فى القتال دفاعا وهجوما٠

٨ - يكثر تداول هذا البيت (الثامن) بين النحاة ومتذوقى الأدب لما فيه من صفات الكرم والعفة وضبط النفس، ودخول الباء الزائدة على خبر كان، وذلك قوله (بأعجلهم) يفتخر الشاعر بقناعته، فهو وإن كان يزاحم فى صيد الحيوانات، ويتقدم غيـــره لـــذلك إلا أنـــه لا يزاحمهم عند الأكل منها٠

٩ - يقول: إنه يلتزم هذا الخلق ، طلبا للرفعة والعزة ، وإنَّ تـــأخره وعدم تسابقه إلى الطعام ليس عجزا منه، وليس هوانـــا وضـــعة، لمكانته عند رفاقه٠

١٠ - ذكر أنه استغنى عن أهله ، فهم لا يقـــدرون المعـــروف، ولا يجازونه بالخير، وليس فيهم خير يتعلل به، واختار ثلاثة أصدقاء بدلا منهم، سيأتى ذكرهم فى البيت التالى٠

١١ - والأصدقاء الثلاثة: قلب شجاع وسيف صارم وقوس طويلـــة، أى أنه غنى ببطولته وقوته وشجاعته عن أهله وأعوانه٠

١٢ - ووصف القوس بأنها تُخرج أصواتا عند انطلاقها، وهى ملساء لا تؤذى اليد، ومرصعة بالجواهر، ومزينة بالحلى، ويبدو أنهـــم كانوا يهتمون بها ويفخرون بتميزها٠

١٣ - وذكر أن صوت القوس عند انطلاقها تشبه صوت امرأة شديدة الحزن فتصرخ وتولول على ما لحق بها٠

١٤ - يقول إنه يتحرك فى أول نهاره جائعا، دون أن يذل نفسه؛ ليشبع بطنه ويروى ظمأه.

١٥ - يفتخر الشاعر بسلوكه وفطنته، ومقدرته على إشباع دوابه، وتمكينها من الغذاء فى المراعى الجيدة، فيعود بها عشاء ذات سمنة وحلاب.

١٦ - يفتخر الشاعر بنفسه فيذكر أنه ليس جبانا ولا كسولا، ولا ضعيف الشخصية فيحتاج إلى من يطلعه على أمره ، كما أنه ليس منعدم الرأى فيلجأ إلى مشورة زوجته.

١٧ - وهو شجاع ذو جرأة، وليس مضطرب القلب فيعلو فؤاده ويسفل.

١٨ - ينفى الشاعر عن نفسه بعض الصفات التى لا تتفق مع أخلاق الرجال كالكسل ومغازلة النساء، والتشبه بهن فى التزين والتكحل فهذه الصفات تهوى بصاحبها إلى الحضيض.

١٩ - وينفى عن نفسه الضعف والعجز والخوف، فهذه ليست صفاته، لأنه ذو حيوية ومروءة ونجدة.

٢٠ - ويواصل الفخر بكيانه وقدرته على الوصول إلى ما يريد، فلديه من الدربة والمران ما يستطيع بها أن يعرف هدفه، فلا يتحير فى الوصول إليه.

٢١ - يصف الشاعر عَدْوه وانطلاقه، حيث تحتك أقدامه بالحجارة، فيتطاير الشرر منها.

٢٢ - يقول إنه يحكم السيطرة على نفسه إذ يشتد به الجوع فيصبر عليه وينساه، وتلك بعض خصائص الصعاليك.

٢٣ - يفضل الشاعر أن يستف تراب الأرض على أن يمد أحد يده إليه بقوت يمن به عليه.

٢٤ - يذكر أن لديه العفة والترفع عن الدنايا ، وعلو النفس بالهمة، ولولا ذلك لكان فى إمكانه أن يحصل على ما يريد من ألذ الطعوم والمشارب فى سهولة ويسر.

٢٥ - ولكن نفسه الحرة الأبية لا تقيم على الذل، إلا احتيالا على الأيام، وتحولا إلى العزة والكرامة.

٢٦ - ويحيا الشاعر طاويا أمعاءه على الجوع، وتبدو وهى خالية من الطعام كأنها مشدودة بحبال متقنة الفتل.

٢٧ - ويغدو الشاعر جائعا قانعا، مشبها نفسه بذئب نحيل الجسم ضخم الصدر خفيف العجز، يتنقل فى الصحراء بحثا عن الطعام.

٢٨ - ويستكمل فى هذا البيت الذى ذكره فى البيت السابق، وهو وصف الذئب فقد خرج طالبا الطعام ، وأسرع فى البحث عنه إلى أن وجده، فانقض عليه ؛ ليرد غائلة الجوع لديه، والتى كادت أن تميته.

٢٩ - وقال: إنه سعى إلى الطعام ، ويئس من العثور عليه، فلجأ إلى إخوانه (من الذئاب)، فوجدها ضامرة جائعة، لا قوت عندها.

٣٠ - وقد وجد الذئاب الأخرى هزيلة نحيلة، تترنح من شدة الجوع وتضطرب كاضطراب الأقداح فى يد لاعب الميسر (تشبيه).

٣١ - ويصف الشاعر الذئاب فى اضطرابها وتحركها جائعة برئيس النحل، الذى يتحرك بسرعة لإنقاذ النحل، والابتعاد بها عن الخلايا؛ خوفا من القتل.

٣٢ - يصف الشاعر الذئاب التى تعانى من الجوع بأنها واسعة الأشداق مفتحة الأفواه، من قسوة ما لحق بها من معاناة، ولعله يرمز إلى مقدار المعاناة التى تلحق بالصعاليك.

٣٣ - أبان الشاعر عن معاناة الذئب وسائر الذئاب، التى أحدثت صياحا فى الأرض الواسعة، وكأنها جميعا فى مأتم تنوح فيه الثكالى بأرض عالية.

٣٤ - بعد الصياح الذى ذكره الشاعر فى البيت السابق أوضح هنا أن البؤس والجوع قد جمعا بين سائر الذئاب، فتسابقت إلى الهدوء، وأخذ كل واحد منها يعزى الآخر.

٣٥ - ما زال حديث الشاعر عن الذئاب التى وجدت أن العواء لم يصل بها إلى شيئ فاستلمت للقضاء، وصبرت على آلام الجوع، إذ أن الصراخ والشكوى لم يصلا بها إلى شيئ.

٣٦ - وذكر أن الذئاب بعد أن يئست من الحصول على الطعام عادت إلى مأواهن ، واستعانت بالصبر إذ أن الصراخ والعواء لا يولد إلا الحسرة والمرارة.

٣٧ - يفتخر الشاعر بشدة سرعته، إذ أنه يسبق القطا عند الإسراع إلى الماء فيشرب ما شاء، وتأتى بعده، لتشرب ما بقى منه، دون أن يبذل كل جهده.

٣٨ - وقد سبق القطا وبقى فى قمة نشاطه، ثم تعبت القطا فتقدم عليها، بعد أن شمر عن ساعد الجد.

٣٩ - وقد سبق القطا بزمن طويل، ثم شرب وانصرف عن الماء، وجاءت بعده تتساقط حول الماء، ثم تنزل لتشرب البقايا، ملامسة الماء بذقونها وحواصلها .

٤٠ - تجمعت القطا على جانبى الماء، وأحدثت أصواتا كأصوات القبائل السائرة فى مؤخرة الركب، فأحدثت جلبة وضوضاء.

٤١ - وتجمعت القطا حول الماء بأعداد كثيرة، والتفت كالإبل تتزاحم حول الماء.

٤٢ - شربت القطا مسرعة، ثم عادت فى عجلة؛ لترجع قبل طلوع النهار.

٤٣ - يعود الشاعر إلى نفسه فيذكر أنه ينام على الأرض القاحلة ذات الحصا، فتؤثر فى عظامه، فيتألم منها، ويصبر عليها، وذلك من هزال جسمه وطول التصاقه بالأرض .

٤٤ - وذكر أنه ينام على ذراعه الخالية من اللحم، وتظهر فى صورة مفاصل صلبة كأنها شيئ ممتد يلهى به.

٤٥ - تبتئس الحرب من ضعف فعاليات الشنفرى، على غير ما كان عليه الحال من سرور لها فيما سبق.

٤٦ - ويقول إنه مستهدف ممن أغار عليهم، وأنهم يتنافسون في الانتقام منه فمن يكون له السبق للقضاء عليه؟

٤٧ - وقال إن أصحاب هذه الجنايات مترصدون للانتقام منه، وإذا نامت أبدانهم فتظل عيونهم يقظى، لاستهدافه والقضاء عليه.

٤٨ - يقرر الشاعر أن الهموم ثقيلة عليه وصارت أثقل عنده من حُمى الربِّع.

٤٩ - ويذكر أن الهموم تأتى إليه من كل جانب، ثم لا تلبث أن تعود إليه، وتستمر ملازمة له وكأنه فى صراع مع الهموم.

٥٠ - يتخيل الشاعر أنه يخاطب امرأة، فيذكر لها أنه فقير عار لا يملك ما يستر به جسده، وهو حاف ليس لديه نعل يحمى رجليه.

٥١ - ومع كل ما سبق ذكره من ضعف حالته فإنه صبور وشجاع إذ أن قلبه كقلب ولد الذئب، وهو حازم دائما.

٥٢ - ومتقلب بين الفقر والغنى، ولكنه لا يحرص على الغنى فى ظل الإسفاف والتبذل.

٥٣ - يواصل الشاعر الافتخار بنفسه فهو عنيد لا ييأس، ولا يعرى ذاته، ولا يختال بغناه.

٥٤ – ولا يستخف الجهال به، ولا يتعقب الآخرين بأسئلته وقوله المنم.

٥٥ – ويتحدث عن ليلة شديدة البرد، حيث يشعل فيها صاحب القوس قوسه ونصال سهامه، فيفقد أهم ما يحتاج به للتدفئة، فانقلب الزمن إلى نحس شديد.

٥٦ – يواصل الشاعر افتخاره بشجاعته، وهو يعانى سَعار الجوع وآثار الظلمة والمطر، وهو غير حافل بغاراته بهذا الجو الكئيب.

٥٧ – وقد حقق خروجه فى تلك الليلة الباردة فأيم النساء، أى تركهن بلا أزواج، ويتم الأبناء، وعاد محملا بما سلبه وانتهبه تحت أستار الظلام.

٥٨ – وذكر أنه عندما أصبح فى موضع قريب من مكة احتار الناس فى أمره، وانقسموا إلى من يُسأل عنه، وعن سائل عن أخباره، وذلك من هول ما أحدثه فى غارته.

٥٩ – وإنه عندما عاد إلى ذلك الموضع (الغميصاء) ونبحت الكلاب فتحير الناس عما إذا كان قد ألم بهم ذئب أو ولد الضبع.

٦٠ – ولم يكن ذلك إلا صوتا لم يلبث أن هدأ، فقال الناس إنّ خوفا قد لحق بالقطاة أو الصقر.

٦١ – إن إغارته منفردا تفوق قوة جماعة، وإن من أغار عليهم ظنوه جنا لدوام طرقه، وأفادوا أن ما قام به يفوق صَنيع الإنس.

٦٢ - ويتحدث عن يوم شديد الحرارة تضطرب فيه الأفاعى، وتتلوى من سخونة الأرض، وشدة الحر.

٦٣ - وتحمل فى ذلك اليوم شدة الحرارة دون أى ستر على وجهه، وأن ما عليه من ثوب ممزق لا يقيه الحر.

٦٤ - وأثارت الريح ما على أعطافه من لبائد، وهو لا يمشط شعره، ويبقى على حالته المعبرة عن طبائع البيئة وملابسات حياته.

٦٥ - وواصل وصف حالته، فذكر أن شَعره لم يدهن بطيب، ولم ينظف بفلى، وتعبأ بالأوساخ كأنه قد مضى عليه حول بلا غسل، وذلك بسبب حياته فى الصحراء بين الوحوش.

٦٦ - يحيا الشاعر على أرض مستوية بطبيعة أو هيئة يصعب التحرك فيها على رجلين، وهو يقاوم الإعاقة بما يؤكد قوته وصلابته وقدرته على الحراك السريع.

٦٧ - وقال: إنه يسرع فى الحركة بين أول الموضع (الخرق) وآخره، وصولا إلى ربوة وكان يجلس أحيانا، ويقف منتصبا فى أحيان أخرى.

٦٨ - وشرع فى الانتهاء من القصيدة، فذكر أن التيوس تذهب وتجيئ من حوله، وهى فى حالة تشبه العذارى، وعليهن الملاءات المزينة.

٦٩ - وذكر فى البيت الأخير أن الوعول قد هدأت حوله، وصار بينها كأنه واحد منها يتحصن بالجبل فلا يصل إليه أحد.

ملامح التعبير والتصوير:

درج أكثر الشعراء فى العصر الجاهلى وما بعده على بدء قصائدهم بالوقوف على الأطلال والبكاء عليها، احتكاما إلى المنهج السائد آنذاك وهو الابتداء بالغزل، سواء صحبه وقوف على الطلل أم بكاء عليه، أو هما معا ، وفى الموضوع كلام كثير لا أحب أن أشغل القارئ به على حساب ما نحن فيه، وعلى كل فقد ضج بعض الشعراء من هذا المنهج، فقال أبوالطيب المتنبى:

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ المقدَّم ∴ أكلُّ فصيح قال شعرا متيم؟[١]

وفضل آخرون البدء بالخمر، فقال أبونواس:

صفة الطلولُ بلاغة الفِدْم ∴ فاجعل صفاتِك لابنة الكرْم[٢]

وانتقل من هذه المطالبة إلى نطاق التفعيل فقال:

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ∴ وداونى بالتى كانت هى الداء[٣]

وجاءت لامية الشنفرى باتجاه مخالف، لم يألفه الشعراء، حيث ابتدأ النص بحديث إلى قومه، لعله يعتب عليهم من سوء علاقتهم ، فاضطر إلى هجرهم والابتعاد عنهم؛ حتى يعيد صياغة نفسه، ويشرع فى التجهيز للانقضاض عليهم ، والبر بقسمه فى الثأر والانتقام.

---

(١) ديوان المتنبى جـ٤ صـ٦٩ طبع دار الكتاب العربى – بيروت ١٩٨٠م.
(٢) ديوان أبى نواس صـ٥٧ طبع دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٢م تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالى .
(٣) ديوان الطغرائى صـ٣٠١ تحقيق د. على جواد الطاهر وآخر – طبع وزارة الإعلام بالعراق.

وهذه اللامية ذات شهرة كبيرة، ولم توصف قصيدة بهذا الوصف وهو "لامية العرب" كما لم تذكر عنوانات أخرى لشعراء آخرين، فلم يرد إلينا قول عن قصيدة بأنها بائية العرب، أو ميمية العرب، وما شابه ذلك، وإن كان الطرح على المستوى الشمولي قد نقل لنا لامية أخرى لا تمثل العرب وهي "لامية العجم" للشاعر العباسي (الطغرائي) والتي بدأها بقوله:

أصالة الرأى صانتني عن الخطل ∴ وحلية الرأى زانتني لدى العطل[1]

ونعود فنؤكد أن ذاتية الشنفرى وبعض خلاله وتوجهاته تتجلى تماما فى بدء قصيدته وأولها:

أقيموا بنى أمى صدورَ مطيكم ∴ فإنى إلى قوم سواكم لأميل

وهذا المطلع غير تقليدى، وجاء الحديث فيه بصياغات وتصويرات شنفرية خاصة كما يلى:

١ – قال الشاعر: "أقيموا" وهو فعل أمر، يعبر عن ضيق الشاعر ويأسه من استمرار الإقامة مع أهله، وجعل الوحوش والحيوانات فى الشطر الثانى أهلا وقوما له، وقوله "لأميل" أفعل تفضيل لغيرهم عليهم، وأفاد بأنه لم يتخل تماما عن قومه، وإن كان قد مال عنهم إلى غيرهم.

وتكشف بداية البيت عن العبء الذى ينوء بحمله، ويود التخفف منه، وقوله "بنى أمى" إشارة إلى مقدار الصلة التى تربطه بهم، ولعل ذلك عتب لهم على سوء تقديرهم للرابطة التى توثقه بهم.

---

(١) السابق صـ٦ .

٢ – يكشف هذا البيت عن وقت خروج الشاعر من ديار قومه، حيث كان الليل مقمرا، فهو لا يتخفى عنهم، ولا يخرج خِلسة من بينهم، وهو مستعد للوداع، وللدفاع عن نفسه إذا تحتم ذلك.

ويبدو أنه خرج بكل متعلقاته ولوازم معيشته، وإلا فما هو السر فى ألفاظ الجموع فى هذا البيت وهى "الحاجات، الطيات، المطايا، الأرحل" وليست مستلزمات الرحيل مجالا للفخر، وهل كان معه بقايا من الأهل أو الأصحاب يرحلون معه، أو أن ذلك تقليد لوصف الرحيل، تسرب إليه من بقايا الواقع المعاش، مع أننا لم نتعرف (غالبا) على مكونات فنه الشعرى، ومن أين استقاه، ومن الذى حمله ورواه.

٣، ٤ – يتجلى الشنفرى فى هذين البيتين حكيما مجربا، فإذا كان قد هجر ديار قومه، ففى غيرها مقامات متسعة له ولغيره من الصعاليك، كما أن "للكريم" الذى يرغب أن يتجنب الذل متسعا له إذا ما رغب اعتزال الناس، ويؤكد هذا المعنى بأسلوب القسم، وذلك فى قوله: "لعمرك" وهو توجيه إنسانى يفتح مجالات رحبة للراغب فى الحرية وكسر حواجز الألم الذى يحيق بالمكروبين، وقوله: "على امرئ" يفيد أن اتساع الأرض يشمل سائر الخلق، وإن البعد عن الوطن عند لحوق الظلم بالإنسان حق تعززه الرغبة والإرادة، أو أنه كان تحت سيطرة رهبة، وهو على دراية وتفكير يستطيع أن يعقل به الأمور، وإن كانت كلمة (سرى) توحى بأن الليل مقدم على النهار عند الشروع فى الرحيل.

٥ - ذكر الشاعر أفراد مجتمعه الجديد الذى رحل إليه، ويتكون من السيد العملس وهو الذئب، والأرقط الذهلول وهو النمر، والعرفاء الجيأل وهو الضبع، وجَمَع بين هذه الوحوش الثلاثة فى بيت شعرى واحد، ولعله يقصد بها بعض النماذج البشرية من الصعاليك وهم رفقاؤه الجدد، وذلك من طريق الاستعارة التصريحية، ومارس الشنفرى قدراته اللغوية النابعة من البيئة فى هذا البيت الذى احتوى هذه الألفاظ الحوشية التى أخضعها للوزن الشعرى.

٦ - ذكر الشاعر أن هذه الوحوش سواء أكانت من الحيوانات أم من البشر هم الأهل الحقيقيون دون غيرهم، وذلك بطريق القصر الحاصل بتعريف المسند، وأن هؤلاء الأهل ذوو مواصفات خاصة بهم، فالسر لديهم محفوظ ، وهم متضامنون، لا يستطيع المذنب أن يتهرب من جنايته.

٧ - وذكر ـ استكمالا لما سبق ـ فى تعداد صفات أهله الجدد، وهو أنهم شجعان بواسل، ثم يبدأ افتخاره بشجاعته، إذ أنه يلاحق الوحوش والطيور المستهدفة دون سواه.

٨ - يعد هذا البيت فى قمة الافتخار بالعفة والمروءة، فهو يتوانى عند الإقبال إلى الطعام، فالمتعجل إلى الطعام (الجماعى) يعبر عن جشع لاصق به وهو بيت مشهور عند النحاة.

٩ - يعد هذا البيت بمثابة تبرير واستكمال لما تقدم عليه، فالتأخير عن الإقبال على الطعام ليس عجزا عن المزاحمة، وإنما ذلك عفة وتكرم.

١٠ - يعود الشاعر ـ فى هذا البيت ـ لإيضاح معنى متقدم فى بداية القصيدة، فقد استغنى عنهم بثلاثة أصدقاء جدد، سيأتى ذكرهم فى البيت التالى.

١١ - ذكر هنا تفصيلا لما سبق إجماله فى ثلاثة أصدقاء رامزة للقوة وهى القلب الشجاع، والسيف المجرد من غمده، والقوس المتميز وهى معبرة عن قوته وأدواته فى القتال.

١٢ - هتوف صفة للقوس، وهى إخبار عنه، وقدم الشاعر وصفا مفصلا لها حسب ملامح الجودة فيها إبان العصر الجاهلى.

١٣ - يواصل الشاعر وصف القوس، فذكر أنها تحدث صوتا عند انطلاقها يشبه صوت امرأة شديدةِ الحزن، حيث لازمتها المصائب فتصرخ وتولول.

١٤ - يبدأ الشاعر مع هذا البيت الافتخار بذاته، فهو يصبر على الجوع، ولا ينهزم أمام شهوته، ويتجلى الفخر بالقدرة على التحمل.

وتوحى جملة "لا يستفزنى" بثباته وقدرته على الاحتمال، إذ أنه لا يتأثر بأية نواقص أو احتياجات قد تفعل فعلها فى غيره.

١٥ - يعود الشاعر إلى تشخيص حالته مع الدواب التى ينهض برعيها أو يعيش معها، فهى متعددة المواصفات بمعنى أنه إذا كان على دراية بما فى الصحراء من وحوش، فإنه على علم أيضا بما فيها من حيوانات مستأنسة.

١٦ - تقدم وصف حالة الشاعر مع الحيوان، ثم يصف هنا بعض حالته، فهو لا يطيع أمر امرأته، إذ تتجلى الرجولة فيه بكل ظواهرها، كما أنه ليس غرا للدرجة التى تدير المرأة مسيرة يومه فيطلعها على ما يفعل، ويتجلى فى ذلك البيان ارتباط المعنى لدى الشاعر بالبيئة العربية القديمة.

١٧ - ويواصل الشاعر افتخاره فيذكر أنه ليس جبانا، كما أنه ليس مثل ذكر النعام المعروف بشدة نفوره وخوفه (تشبيه).

١٨ - يذكر الشاعر فى هذا البيت أنه ليس كسولا، وليس معنيا بترك مطالب الرجولة، والانصراف إلى مغازلة النساء والتشبه بهن بالتجمل والتكحل، وتبدو فى البيت والأبيات السابقة قدرة الشاعر على إبراز مظاهر الرجولة، والتعبير عنها بمقدرة وبراعة.

١٩، ٢٠، ٢١ - يفتخر الشاعر فى هذه الأبيات بعدة صفات تعبر عن قوته وشجاعته، وأنه لا يتحير فى طريقه، وهو سريع العدو فى الصحراء، وأن قدميه تشبه أخفاف الإبل، إذ عندما يسرع فى عدوه تتطاير الحجارة برجليه، فيتناثر الشرر منها.

٢٢ إلى ٢٦ - يصور الشاعر فى هذه الأبيات حالته مع الطعام، وقدرته على تحمل الجوع، وقوله: **أديم مطال الجوع حتى أميته** "استعارة تشخيصية" انتصرت فيها إرادته على احتياجه مع الجوع.

ويبالغ فى فخره فهو يفضل أن يستف تراب الأرض دون أن يكون لأحد فضل عليه، فهو يكره أن يمن عليه أحد ، وإلا فقد كان بإمكانه أن ينال كل ما يريد فى سهولة ويسر .

ويستدرك فيذكر أن نفسه لا تقبل الذلة، ولذا فهو يفر من مواقف الخضوع والخنوع، متحولا إلى الحرية والكرامة.

وفى البيت السادس والعشرين صورة بيانية تشبيهية صور فيها أمعاءه الخالية من الطعام فبدت يابسة مكروبة كأنها مشدودة بحبال متقنة الفتل.

٢٧، ٢٨، ٢٩ - يشبه الشاعر نفسه بذئب نحيل، قليل اللحم، ضخم الصدر، خفيف العجز، يبحث عن الطعام فى الصحراء، ويفخر الشاعر بهذه الحالة، التى تعينه على التنقل فى الفلوات، وأن الذئب مع حالته أسرعَ فى عدوه بحثا عن الطعام، ليرد غائلة الجوع، وجرى منقضا، ولكن ليس على شيئ، ثم استغاث بجماعة من الذئاب لإسعافه من قسوة الجوع فوجدها مثله ضامرة جائعة.

٣٠ - شبه الشاعر الذئاب النحيلة، ذات الشعر الأبيض (تشخيص) التى تضطرب مترنحة كاضطراب السهام فى يد القمَّار (لاعب الميسر)، ويبدو هذا التشبيه غريبا، ولا أظنه متداولا.

٣١ - الصورة التشبيهية فى هذا البيت منتزعة من البيئة، حيث شبه الشاعر جماعة الذئاب المذكورة، وذلك فى اضطرابها برئيس النحل (الخشرم) الذى يتحرك فى كل اتجاه، للحفاظ على جماعة النحل من طالب العسل (السامى المعسل).

٣٢ - قدم الشنفرى فى هذا البيت صورة للذئاب، التى سبق ذكرها والسعى إليها لإنقاذ الذئب (الوحيد) بالطعام بأنها واسعة الأشداق، مفتوحة الأفواه، وأن أشداقها من شدة الجوع تبدو مستطيلة تشبه العصىّ، وهى بذلك كئيبة المنظر.

٣٣ - شبه الشاعر عُواء الذئب، وعواء الذئاب حوله بصياح الثكالى فوق أرض عالية، وقد استحوذ هذا الحيوان على قدر كبير من أبيات اللامية، التى صورت ذئبا ومجموعة الذئب، ولسنا ببعيد جدا عن الشنفرى ومجموعة الصعاليك.

٣٤ - يرتبط هذا البيت بما قبله من حيث اشتمال الحزن والأسى لسائر الذئاب، فقد كفُّوا عن الصياح، وتسابقوا إلى الهدوء، وصاروا فى حالة مأتم يعزى بعضهم بعضا، فقد نقل الشاعر صورة إنسانية تحدث فى الواقع إلى عالم الحيوانات غير الأليفة.

٣٥ - رسم الشاعر فى الشطر الأول من البيت صورة تشخيصية للذئاب، فجعلها تشتكى ثم تتوقف عن الشكوى ، وجاء الشطر الثانى فأفاد أن الصبر على الجوع أفضل من الشكوى، التى لم تعد نافعة، وتلك حكمة بالغة٠

٣٦ - يواصل الشاعر تصوير حالة الذئاب فبعد أن توقفت عن الشكوى، واحتمت بالصبر عادت إلى المخابئ وقد عُبِّئت بالحسرة والمرارة، وذلك استمرار فى عرض جزئيات الصورة التشخيصية لهذه الحيوانات٠

٣٧ - يعود الشاعر إلى الفخر فيعرض فى هذا البيت لسرعته الشديدة فى العدو، فقد ساير القطا فى الجرى، وسبقها إلى طلب الماء فشرب قبلها، وبقيت لها بقايا فائضة منه فشربتها، ويلاحظ أن تعبيرات الشاعر عن الحيوانات والطيور تكون فى صورة تشخيصية لها، فقد جعل القطا فى هذا البيت كأنها من الإنس الذى تسابق مع الشاعر وكان السبق له، ولعل هذا المعنى فى ورود الماء يذكرنا بالشاعر التغلبى عمرو بن كلثوم الذى قال مفتخرا:

وأنا الشاربون الماءَ صفوا ∴ ويشربُ غيرنا كدَرا وطينا[1]

٣٨ - يصف الشاعر نفسه بالقوة فى النشاط والسرعة فى العدو فرسم صورة تشخيصية لهيئة السباق بينه وبين القطا، فقد كان متقدما

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى صـ٢٨٤ ٠

عليها ببعض جهده، إذ تعبت وأجهدت، بينما كان عدوه متمهلا لثقته فى السبق والتقدم.

٣٩ - يواصل الشاعر التعبير عن بعض جزئيات الصورة الكلية فى السباق الحادث بينه وبين القطا فقد سبقها، وشرب وانصرف، ثم وصلت مجهدة إلى الماء، إذ كانت تتساقط عليه وتشرب من البقايا وهى منغمسة بذقونها وحواصلها، وربما كان ذلك من شدة الجهد والعطش وقلة الماء.

٤٠ - تتجلى قدرة الشنفرى على التعامل مع الحيوانات كأنها من عالم الإنس، فقد تجمعت القطا حول الماء، وأحدثت أصواتا مثل أصوات القبائل المسافرة، وكونت التفافا على جانبى الماء، وهى صورة صحراوية تتشكل حول منابع المياه.

٤١ - تتقدم عناية الشاعر بالتشبيه على غيره من صور البيان، وعلى كل فالاستعارة مبنية عليه ومنبثقة منه، وهو هنا يشبه أسراب القطا (الطيور) وهى ملتفة بالماء ومتجمعة حوله فى اصطفاف مثل تجمع الإبل حول مورد الماء مصطفة مجتمعة.

٤٢ - يبدو أن أحوال القطا قد جاءت تالية فى اهتمام الشاعر بالوصف بعد أن شَغلت الذئاب عنده قدرا كبيرا من التصوير البيانى، وذكر هنا أن جماعات القطا قد شربت قليلا لكثرتها، مع شدة عطشها وقلة الماء، وأسرعت فى الشرب وعادت إلى مرابضها وقت الفجر، وقبل طلوع النهار، وإحاطة قبيلة يمنية،

ولعل الشاعر يقصد موضع المخلاف الذى تعيش فيه ، واستعمال الشاعر لموضع (إحاظة) يوحى بدلالات مفادها أن لم ينقطع عن جذوره فى اليمن، وأن هذه المواضع كانت من الميادين التى مورست الصعلكة فوقها.

٤٣ - فى هذا البيت كناية عن شدة الهزال، الذى يعانى الشاعر منه، فهو لا يحيا حياة سوية يعتاد فيها الرغد والنعيم، ولكنه يفترش الأرض وينام على الحصا، فتلامس عظامه الأرض فيرتفع الجسم عنها، هادفا إلى تصوير شدة هزاله.

٤٤ - وظف الشاعر التشبيه، لاستكمال صورة النحافة والضعف الذى يعانى منه فهو ينام على ذراعه، التى يتجلى عظامها، وهى تشبه لعبة صلبة بسطها لاعب.

٤٥ - كنّى الشاعر عن الحرب بأم قسطل، وأساس معنى القسطل (الغبار)، ونظرا لارتباط الغبار كثيرا بالحرب فكانت الكناية وشخص الحرب فجعلها تحزن لفراق الشاعر، وهى التى سُرّت كثيرا بإثارته لها، وتحريكه لأحداثها، إذ أن ذلك بعض فعاليات الصعلكة الجاهلية.

٤٦، ٤٧ - تسهم التعبيرات ذات الإيحاءات الدالة فى التعبير عن مسيرة الشاعر فهو مطارد ممن أغار عليهم، ولذا فهو بعيد عن الحرب، وأن قوله: "تياسرن لحمه" إفادة بأنه مستهدف منهم،

وبدنه حلال لهم، وأن نفسه معرضة للفناء فأصحاب الجنايات مترصدون له، وأنهم يسرعون الخطا للبحث عنه والانتقام منه.

٤٨ - ذكر الشاعر أن همومه ثقيلة، وصارت جزءا من حياته، وأصبحت معيشته كنوع محدد من الحمى كانت معروفة آنذاك (بحمى الربع).

٤٩ - يؤكد الشاعر تصوير حالته وأنها ملازمة دوما للهموم، فإذا أبعدها عن نفسه عادت إليه من كل جانب، ويدل بذلك على شدة معاناته، وقسوة حاله وعدم استقراره.

٥٠، ٥١ - عبر الشاعر بابنة الرمل عن الحية، ويخاطب بذلك المرأة، التى تراه بارزا رقيق الحال، حافيا غير متنعل، وهو مع حالته تلك رجل الصبر وصاحبه، وأنه ذو قلب قوى، كولد الذئب من الضبع (تشبيه) وهو مع ذلك لا يتوانى عن الحزم.

٥٢ - وذكر أن حياته متقلبة بين الفقر والغنى (طباق) فيسهم فى إبراز المتغيرات فى حياة الشاعر، الذى ينتقل فى ذات البيت لتقديم الحكمة، التى تأتى فى ثنايا الشعر وهى مؤكدة بأسلوب يشتم منه القصر، وذكر بأن الغنى يمكن أن يتحقق للمسف الذى لا يبالى بالقيم والمبادئ.

٥٣، ٥٤، ٥٥ - تكثر ألفاظ البؤس والفقر واليأس عند الشاعر، كما تكثر لديه ألفاظ الفخر والعزة والصمود، وسائر الكلمات التى تعبر عن حياة شاعر جاهلى بين رفاقه من الصعاليك، فلا الفقر

يحوله إلى بائس يظهر ضعفه، ولا يسيطر عليه الغنى فيفرح ويختال، وهو حليم لا يحركه ولا يؤثر فيه سخف الجهلاء، ولا يمارس النميمة الذميمة، ولا يثير الفتن ولا يفسد بين الناس (وهذه أخلاق عربية نبيلة) ويقوى على تحمل البرد الشديد، الذى يصل بصاحب القوس أن يشعل قوسه، وكذلك صاحب النصال مع سهامه، أى أن الشاعر لا يفعل ذلك، وأنه متأثر به أى أنه صلد ويقوى على مواجهة النحس الشديد٠

٥٦ - يتجلى غموض الألفاظ ووعورتها فى هذا البيت، وكأنها منحوتة من صخر، وهى نابتة فى أرض الواقع، فالشاعر يتحدث عن شدة جوعه، واستعار لذلك السعار الذى يحدث التهابا فى أعماقه وهو شجاع مقدام، ثم يأتى البيت التالى ليستكمل الصورة٠

٥٧ - ذكر أن خروجه فى تلك الليلة الشديدة البرد والمطر، قد حققت المستهدف حيث روع الآمنين، وأيم النساء، ويتم الأبناء، وعاد بما استلبه دون أذى لحق به، والظلام باق لم يكسره ضياء الفجر وذلك كناية عن سرعته فى إنفاذ الغارة٠

٥٨، ٥٩ - يبدأ الشاعر فى رصد نواتج غاراته، التى سبق بيانها، لعرض ما لحق بمن أغار عليهم واصفا أحوالهم، فذكر مفتخرا أن من بالغميصاء قد اختلفوا فيه بين مسئول وسائل عن أحوالهم بعد الإغارة التى أربكتهم، وشلت مساءات تفكيرهم، ودار

الحديث بصورة تخيلية، بعد أن نبحت كلابهم بالليل متسائلين، فلربما كان ذلك إحساسا بسطوة ذئب أو ولد ضبع، والغرض من ذلك بيان ما ألحقه الصعلوك بهم من رعب وإخافة وسرعة في الإنفاذ.

٦٠، ٦١ - التساؤل قائم، استتباعا لما سبق طرحه بخصوص هرير الكلاب الذى كان ضعيفا ثم هدأ، ولعل الذى أحست به الكلاب كان من أثر قطاة أو صقر، وبقى التعجب متواصلا، خاصة أن الإغارة بالليل تكون جماعة من الرجال، وليست من فرد واحد، لكنها كانت فى الحالة المذكورة بصورة خاطفة غير مألوفة، فكأن الذين قاموا بها كانوا من الجن فهؤلاء لا يفعلون مثل ذلك.

٦٢، ٦٣ - يفتخر الشنفرى بقوة تحمله، وقدرته على مواجهة الشدائد ففى اليوم الذى تضطرب فيه الأفاعى مع اعتيادها على الحر يبقى الشاعر متحملا لَفْحَ الحر دون ستار يحمى وجهه، وكذلك كان جسده كله معرضا لذلك دون أن يستره الثوب الممزق، الذى لا يمنع عنه شيئا (خيال صاخب وتقابل بديع).

٦٤، ٦٥ - يعرض فى هذه البيتين لتصوير حالته فى ظل قسوة الطبيعة، وتحمله لنواتج حالته السيئة، إذ لا يستر بدنه إلا ثوب ممزق وشعر طويل سابغ، ومتسخ، ولا يمشط بدهن وبلا تنظيف فضلا عما لحق به من قازورات الدواب، أى أن شعره الطويل

القذر لا يحقق شيئا يقى الشاعر به نفسه، وذلك من نواتج معيشته المتنقلة فى الصحراء ومرور الحول على شعره بلا اغتسال.

٦٦، ٦٧ - ويعرض للأرض التى يقطعها عدوا بأنها مستوية استواء غير مريح كظهر الترس، وذلك تشبيه حسى بحسى فـــى ضـــوء المشاهدات التى يلقاها ، وأنه سريع العـــدو فـــى الأرض القفـــر الواسعة، والأماكن غير المسكونة، وذلك برجليه مستعينا بقوتـــه فى العدو، وبعض هذا المعنى سبق بيانه، أى أنه سريع العدو فى أرض مستوية تصعب فيها الحركة على رجليه، ومع ذلك فهـــو يقاوم ويعدو ويستمر فى وصف سرعته فى العدو ، وأنه استطاع أن يقطع رحلة سيره فى زمن وجيز ، لكنه كان فى طريقه إلـــى أعلى الجبل يجلس أحيانا ويسير فى أحيان أخـــرى، (ويلاحـــظ تدقيق الشاعر فى تصوير الحركة بكل دقة كأنه حامـــل فرشـــاة يرسم بها المشاهدات).

٦٨، ٦٩ - يختم الشاعر لاميته بالحديث عن الحيوانات الأليفة، وهى التيوس البرية، تلك التى أنست به، فصارت تـــدور حولـــه بـــلا خوف وهى تشبه العذارى ذات الملاءات المزينة، وتبدو ســـذاجة هذا التشبيه فى بعد وجه الشبه بين وعول الصحراء، حتـــى لـــو كانت أليفة، والعذارى وهن بالملاءات المزينة، وأن هذه الوعول لا تنفر منه فتثبت فى مكانها، حيث يتخذ مـــن عـــرض الجبـــل

وجانبه مكانا له فيعيش بين هذه الحيوانات الأليفة التى تأنس لـــه مع أنه من البشر وليس واحدا منها.

التعليق العام على القصيدة :

١ - لقد طالت وقفتنا مع لامية الشنفرى وهى لامية العرب، تلك التى نالت من الشهرة والعناية ما لم تحظ به قصيدة أخرى ــ فى مدى علمنا ــ حتى القصائد المشهورة بتعليقها على الكعبة المشرفة لم تلق من الشروح والترجمات الحديثة ما لقيته هذه اللامية، مع أن بعض الشك قد تسرب إليهـــا عنـــد القـــدماء والمحـــدثين لكـــن خصائصها وتعبيرها عن حياة الصعاليك فى الجاهليـــة جعلـــت علاقتها بالشنفرى أقوى من نـــسبتها إلـــى غيـــره، وأن تائيتـــه المختارة فى المفضليات بريئة من الشك والارتياب فـــى نـــسبتها إليه.

٢ - اختلطت الحقائق والأساطير فى حياة الـــشنفرى، ولـــم يـــستطع الفصل التام بينهما ، فبقيت أطراف من سيرته غامـــضة وغيـــر مؤكدة، خاصة فيما يتصل بمكونات حياته الاجتماعية والشعرية، وذلك شأن الكثيرين من شعراء الجاهلية.

وجاءت القصيدة معبرة عن صعاليك ما قبل الإسلام، خاصة فـــى مناطق شمال الجنوب أو جنوب الشمال من جزيرة العرب، ولم يهج أو يسب أو يعرض بالقدح فى أفراد أو جماعات ممن يبدو أنهم مـــن ألـــد أعدائه، وصارت بهذه المواصفات وبغيرها صالحة للتداول وللعـــرض

على الكبار والصغار والرجال والنساء ودارسى الشعر القديم والحديث فى مجالس الأدب ودور العلم، وهى على الإجمال وبلا تحفظات نموذج كلاسيكى رائع لجوانب العظمة والنبوغ فى مسيرة الشعر الجاهلى وتقلباته.

٣ - مقدمة اللامية غير تقليدية، فلم تبدأ بغزل أو صف طلل، أو بكاء على ربع دَرَس، وجاء الخطاب فى أولها إلى أهله، الذين نوى مفارقتهم والابتعاد عنهم، فالمعيشة معهم لا تسره، وفضّل عليهم مع الوحوش وطيور الأرض، ولعله قصد رفاقه من الصعاليك المشردين فى الصحراء والسهول والوديان، لكن ختام النص لم يكن مألوفا، إذ عرض لمعيشته مع الوعول حيث بقى قريبا منهم وبدت الأبيات الأخيرة وكأنها فى احتياج إلى ما تستكمل به مكونات الصورة الحادثة فى الطبيعة المتقلبة، ولابد أن نرضى بذلك، فلم تكن الحياة مستقرة لصاحب لامية العرب، إذ بدا ختام النص قلقا ومحزنا على كائن بشرى عاش حياته، ونفسه سجينة داخل بدنه ولم يسرف فى خياله، ولم ينهزم أمام عاطفته فجاء البوح صادقا ومحزنا ومحيرا.

٤ - يصعب تجزئة هذه اللامية وتقسيمها إلى مجموعات من الأبيات يحمل كل مجموعة منها فكرة معينة بحدود فاصلة، يتحدث الشاعر عنها ثم ينصرف منها إلى غيرها، فبدت القصيدة بلا موضوع أو أن لها العديد من العنوانات، ولو أطلنا الوقوف

لصارت الأفكار الجزئية متناثرة، وربما تأتى الفكرة ثم ينقطع الحديث عنها، ثم يرجع الشاعر إليها، خاصة مع الحديث عن جماعات الذئاب والقطا، وكان ذلك شأن أكثر الشعر الجاهلى، إذ يعد البيت أو البيتان أو الثلاثة وحدة مستقلة، بمعنى أن هذا العدد أو غيره بمثابة قصيدة قائمة بذاتها، وهنا يعود الشاعر إلى مواصلة الحديث عما فرغ منه، وبهذا الاعتبار يمكن تعقب الأبيات بهذا الإطار فالقصيدة الجاهلية غالبا ليست فى موضوع واحد، وهى تجربة محددة يمكن أن تكون ذاتية، ولكنها فى الحقيقة عدة تجارب وأوصاف وتشكيلات، ويمكن أن تحمل التجارب المتعددة فى القصيدة الواحدة مواصفات وخصائص لغة الشاعر ومضامينه وخيالاته وعواطفه، ولا نجزم بأن تلك المواصفات عامة شاملة لكل الشعراء، خاصة شعراء المعلقات، وإنما هى تجارب متنوعة ، وغير متوافقة، ولكل شاعر نصيبه منها وفق قدراته وعطاءاته للفن الشعرى، ولم يكن الشنفرى بعيدا أو غريبا عن هذا التوصيف، وقد جاءت أبيات هذا النص الذى عرضنا له شديدة الارتباط به، فالكثير فيها تجارب ذاتية وبها مقاطع متعددة من سيرة حياته، وهى بعض المنابت القديمة للقصة فى الشعر العربى، والتى ازدهرت فى عصور توال، بدءا من عمر بن أبى ربيعة والحطيئة فى العصر الإسلامى، ويتجلى الفخر الذاتى وليس القبلى فى الكثير من الأبيات، فضلا عن علاقة الشاعر بالوحوش والطيور وباقى دواب الأرض، خاصة

الذئاب والقطا والوعول، وتجلت الحكمة فى عدد من الأبيات وهى تنبئ عن تجربة ومقدرة على الصوغ والبيان.

وتعد هذه اللامية كثيرة الأبيات بالنسبة لشعر الصعاليك فثمانية وستون أو تسعة وستون كثيرة أيضا بالنسبة للشنفرى، فهى أطول ما فى ديوانه، كما أن المعانى المتناثرة فيها مرتبطة بالشاعر ومعبرة عنه، وعن حياته مع الصعاليك فى الصحراء.

٥ - لم تستقر ألفاظ النص على حالة واحدة ، ففى بعض الأبيات تأتى سهلة مقبولة وناعمة رقيقة، ثم تتغير وتتبدل فتأتى فى غاية الغموض والغرابة ، خاصة ما كان موجها لرصد مظاهر الطبيعة، ووصف الوحوش وتصوير حالة الشاعر مع الجوع والعدو والحر الشديد، والإسراع إلى مناهل المياه.

وأكثر الألفاظ والتراكيب تشع إيحاءات رامزة لبعض مكونات حالته الشعورية، ومعاناته مع الإحساس بالاغتراب، داخل منظومة العلاقة بين الصعاليك، أو بينه وبين الوحوش والطيور، وكان هذا البائس يقدر معانى الإيثار والإكبار والإعزاز لرفاقه تأبط شرا، والسليك بن السلكة، وعروة بن الورد وغيرهم من معاصريه.

٦ - يعد الخيال وليدا للعاطفة، وهى لدى الشاعر صادقة وعميقة فليس لديه ما يحزن عليه، أو يدعوه إلى مخالفة الواقع، وجاءت الصور الخيالية فى النص منتزعة من البيئة الصحراوية بكل مكوناتها وهى صور حسية مبنية على التشبيه، ولكنها قليلة

فحديث الشاعر عن نفسه وتصويره لحالته لا يمكنه من الإغراق في الخيال، أو الادعاء بغير الواقع، وكان حريصا على الفخر الشخصي، وعلى تأكيد اعتزازه بنفسه، وعدم خداعه لغيره، وليست له عناية بالمحسنات البديعية، إلا ما جاء منها عفوا بلا تعمد خضوعا لاحتياجات المعنى، وطرائق الصياغة والتعبير.

٧ - لم يدَّع الشنفرى فى قصيدته هدفا غير ذاته، فلم يبدأ النص بغزل أو طلل، أو حتى وصف لابنة الكَرْم، كما لم يمدح عظيما أو صعلوكا، حتى الحيوانات التى أطال الوصف فيها ليست إلا رموزا لوحوش أو طيور غير محددة، وإن ما جاء به كان إسقاطا على هذا الجنس من الكائنات، ولما كان الرجل صعلوكا غير مرتبط بصقع أو جبل أو مخلاف جاءت اللامية غير مرتبطة بمكان محدد، فليس له أرض أو وطن أو عنوان يحيا به ويأوى إليه، ولذا فالقصيدة بمواصفاتها المذكورة ـ عدة تجارب ذاتية صادقة ـ كما جاءت حكاية عن لسانه وتعبيرا عن كيانه، وتصويرا لصراعه مع الإنسان والحيوان والصحراء.

٨ - تعد اللامية إحدى نواتج العصر الجاهلى بكل مواصفاته، ولذا فهى شديدة الالتصاق بالأرض والحيوان على عمومه، فليس للشنفرى فرس يتحدث عنه، أو يستعين به فى صيد أو لهو أو قتال، وليست له ناقة يرحل عليها ويتغذى من لبنها، إذ أن القلق الكاسى لأحداث حياته لم يمكنه من التعلق بشيئ من ذلك.

وتتجلى أهم مظاهر البيئة فى الوحـــوش والوعـــول والطيـــور، ومناهل المياه، وسرعة العدو، وتحمل الجوع، والشجاعة فـــى الإقـــدام على القتال والمخاطر، والعزة والكرامة والقناعة وأذكّر القارئ بقوله:

وإن مُـدت الأيـدى إلى الـزادِ لم أكـنْ ∴ بأعجِلِــهم إذ أجــشعُ القــومِ أعجــل

وقوله:

وأستفُّ تـرب الأرضِ كـيلا يُـرى لـه ∴ علـــى مـــن الطّـــول امـــرؤ متطـــول

٩ - أسهمت موسيقى القصيدة فى إطالة نفس الشاعر، فقد جاء النص من البحر الطويل، الذى نظم الكثيرون عليه، واستطاع أن يطوع له الكلمات الجزلة، والألفاظ الخـــشنة، والتعبيـــرات الغامـــضة والصور المركبة، التى اكتملت بها المعانى والأفكار الجزئية فى سائر الأبيات بهذه اللامية الفريدة.

يمكن للقارئ أن يرجع فى هذا الموضوع إلى المصادر والمراجع التالية:

١ - الأعلام ـــ خير الدين الزركلى ـــ طبع دار العلـــم للملايـــين ـــ بيروت ـــ عام ١٩٨٤م ـــ المجلد الخامس ـــ الطبعة السادسة.

٢ - الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ـــ طبع مؤسسة جمـــال للطبـــع والنشر ـــ بيروت ـــ الجزء ٢١ .

٣ - الأمالى والذيل والتنبيه لأبى على القالى جـــ٢ طبـــع الهيئـــة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٥م.

٤ - تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجى زيدان ـ طبع دار الهلال بمصر.

٥ - تاريخ الأدب العربى ـ العصر الجاهلى ـ د. شوقى ضيف ـ طبع دار المعارف عام ١٩٨١م.

٦ - تاريخ الأدب العربى ـ د. عمر فروخ ـ طبع دار العلم للملايين ـ بيروت ـ عام ١٩٨٤م جـ١ .

٧ - تاريخ الأدب العربى ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة د.عبدالحليم النجار ـ طبع دار المعارف ـ الطبعة الخامسة عام ١٩٨٣م.

٨ - ديوان الشنفرى ـ جمع وتحقيق وشرح الدكتور/ إيميل بديع يعقوب ـ ط دار الكتاب العربى بيروت ١٩٩١م.

٩ - ديوان أبى الطيب المتنبى جـ٤ ـ طبع دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ ١٩٨٠م.

١٠ - ديوان أبى نواس ـ طبع دار الكتاب العربى ـ بيروت ١٩٨٢م ـ تحقيق/ أحمد عبدالمجيد الغزالى.

١١ - ديوان الطغرائى ـ تحقيق د. على جواد الطاهر ود. يحيى الجبورى ـ طبع وزارة الإعلام بالعراق.

١٢ - شرح القصائد العشر للتبريزى تحقيق عبدالسلام الحوفى ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٣ - شرح المفضليات للتبريزى ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ ط دار نهضة مصر .

١٤ - شعراء من الماضى ـ كامل العبد الله ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٢م.

١٥ - لامية العرب للعلماء الأجلاء الزمخشرى وابن عطاء الله المصرى، وابن زاكور المغربى ـ شرح وتحقيق د.عبدالحميد هنداوى ـ ط دار الآفاق العربية بالقاهرة عام ٢٠٠٦م.

١٦ - مختارات من روائع الأدب فى الجاهلية وصدر الإسلام ـ د/عبدالسلام سرحان ـ ط مطبعة الفجالة الجديدة عام ١٩٦٩م.

فى الحماسة والفخر
لبشر بن أبى خازم الأسدى

التعريف بالشاعر:

كان بنو أسد يقطنون نَجْدا فى الجاهلية، ويشكلون قوة لا يستهان بها، خاصة فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وقد أهانوا قبيلة كِندة التى تعود أصولها إلى اليمين، وقتلوا مليكهم منها حُجر بن الحارث الكندى، والد امرئ القيس، وكانت لهم حروب كثيرة مع بنى تميم وبنى عامر وآخرين.

ويعد عبيد بن الأبرص أشهر من برز من شعرائهم فى الساحة العربية آنذاك ، وقبل أن يغيب عن الوجود سعدت القبيلة بظهور شاعر جديد، وإن لم يصل إلى مرتبة عبيد.

إنه بشر بن أبى خازم الأسدى، واسم أبيه عمرو بن عوف من بنى أسد، ويُكنى بأبى نوفل، ولم تورد المصادر القديمة شيئا ذا بال عن أسرته ونشأته فى نجد ، ومكونات معارفه، وبدايات شعره، كما لم تذكر شيئا عن زواجه واسم امرأته، فصارت حصيلته من الشعر مصدرا من مصادر التعريف بتركيبته الاجتماعية، مع أن الشعر لا يصح أن يكون مصدرا وحيدا للتاريخ؛ لما يحتويه من مبالغات، ولما يتسرب إليه من أشعار دخيلة أو منحولة، ولذلك نضطر هنا إلى الاعتماد كثيرا على ديوانه فى رصد بعض مظاهر الحياة لهذا الشاعر الذى لا يستحق أن يكون مغمورا، مع أن محصوله من الشعر قد

ارتقى به إلى الطبقة الثانية من الشعراء، كما سنكشف ذلك بعد قليل، ولا نُغفل من حساباتنا بعض المصادر القديمة، التى أرخت للشعر والشعراء، ففيها من نتف الأخبار ما يسهم فى إيضاح بعض الجوانب من مسيرة شاعر بنى أسد فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، إذ يُعد من الترف البحثى أن نبحث عن تاريخ محدد لمولده فى ديار قومه.

وتورد هذه المصادر بيان أخ له اسمه سَوادة، ولعله كان على دراية بفن الشعر،إذ نبه بشرا إلى عيب فى قوافى قصائده،وإن لم ترض بعض المصادر عن صلة الشاعر به إذ قالت إنه ابن أخيه وليس أخاه.

وكشف الشعر عن أخ لبشر أصغر منه اسمه سُمَير مات فى حياته، فرثاه بثلاث قصائد، تجلى فيها الحزن والأسى والصدق والتقدير لسُمَيْر، الذى كان جوادا وشجاعا ومتميزا فقال فيه:

أمسى سُمَير قد بانَ فانقطعا ∴ يا لَهْفَ نفسى لبينِه جَزَعا

قُوما فنُوحا فى مأتمٍ صَحِلِ ∴ على سُمَير الندى ولا تَدَعا

ثم اندُباه لكلِّ مكرُمةٍ ∴ لا مُسنْدا عاجزا ولا وَرَعا(1)

ولبشر ابنٌ يُكنى به واسمه نوفَل، وقد حضر معه الحلف بين أسد وطيئ(2) وللشاعر ابنة تسمى عُمَيرة وكانت صغيرة لم تتزوج حين

---

(١) الديوان بشرح مجيد طراد ــ طبع دار الكتاب العربى صـ٩٣ ــ بيروت ١٩٩٤ والصُّحل: من الصحيل وهو حدة الصوت مع بحة ترافقه نتيجة الصياح.

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ١ صـ٢٧٦ تحقيق أحمد محمد شاكر طبع عام ١٩٧٧م.

مات بشر مقتولا فقال فى قصيدة يَرثى بها نفسه بعد أن طُعن وقبل أن يلتقط أنفاسه الأخيرة:

أسائلةٌ عُميرةُ عن أبيها .·. خِلال الجيش تعترِف الرِّكابا

تؤمّل أن أؤوب لها بنهْبِ .·. ولم تعلمْ بأن السهم صابا

فإن أباكِ قد لاقى غُلاما .·. من الأبناء يلتهِبُ التهابا[١]

أما بالنسبة للزوجة فلم يرد شيئ عنها، وإن كان قد تحدث عن امرأة عشقها اسمها هند، كما ذكر أسماء نساء كثيرات منهن ليلى، سلمى، سليمه، مية، هند، هنيده، وربما كانت هذه الأسماء رموزا لامرأة واحدة أو امرأتين، وكان ذلك دَيْدَن كثير من الشعراء فى الجاهلية والإسلام.

التحم بشر بهموم قومه، وشارك فى قتالهما بيومين مشهورين فى تاريخ بنى أسد بالقرن السادس الميلادى.

أولهما يوم النِّسار[٢] وكان: "بين بنى أسد قوم الشاعر، وأحلافهم من ضبة وطيئ وغطفان من جهة، وبين بنى عامر وأحلافهم من بنى سعد من تميم من جهة ثانية ، وفيه كانت الغلبة لبنى أسد، وكان يوم الجفار[٣] بعد يوم النسار بعام، وجرت وقائعه بين بنى أسد وأحلافهم[٤]

---

(١) الديوان صـ٣٥ .

(٢) النسار مجموعة جبال صغار، وقيل هو ماء لبنى عامر ـ يراجع كتاب أيام العرب فى الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين صـ٣٧٨ .

(٣) مقدمة الديوان شرح نجيب طراد صـ١٢ .

(٤) الجفار: موضع ماء لبنى تميم.

من جهة، وبنى تميم من جهة ثانية ، ذلك أن هؤلاء قد غضبوا لما كان فى يوم النسار، فتجمعوا واحتشدوا يريدون الثأر، فما كان من بنى أسد وحلفائهم إلا أن صبحوهم فى الجِفار وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانهزم بنوتميم، وأخرجتهم بنو أسد من ديارهم[١].

وكان الشاعر معاصرا لهذه الأحداث، إذ كان فارسا شجاعا يركب الخيل، ويحمل السلاح، ويشارك فى القتال مع فرسان قومه، وذاق مرارة الأسر فى إحدى المعارك، وأُطلق سراحه، وقد شغل بشر بذكر هذين اليومين فى شعره، وجعل انتصار بنى أسد فى القتال مجالا للفخر والهجاء؛ إذ بالغ فى هجاء بنى تميم بما كان فى يوم الجفار فقيل له: مالك ولتميم وهم أقرب الناس منك أرحاما؟ فقال: إذا فرغت منهم فرغت من الناس جميعا، ولم يبقَ أحد .

وقد عاش ابن أبى خازم خلال عهد أبى قابوس النعمان بن المنذر من ملوك الحيرة من آل نصر بن ربيعة اللخمى، كما عاش قريبا من بدء ظهور الإسلام، فقد عاصر الحطيئة وهو شاعر مخضرم معروف.

وذكر أبوالفرج فى الأغانى خبرا موجزا بشأن تلاقى بشر بعبيد بن الأبرص، وتسرب الشك إلى فى ذلك، إذ لم يكن الشاعران متعاصرين تماما.

---

(١) تراجع مقدمة الديوان صـ١٢ .

ونعرض لأمر استحوذ على شطر كبير من حياة بشر وهو علاقته بأوس بن حارثة بن لأم الطائى، حيث انعكست هذه العلاقة على شعر ابن أبى خازم.

وكان النعمان بن المنذر قد أكرم أوس بن حارثة، وألبسه حُلة تكريما له، فحسده قوم من أهله وربما معهم غيرهم، فعرض على الحطيئة أن يهجو أوسا مقابل ثلاثمائة ناقة، فقال الحطيئة: كيف أهجو رجلا لا أرى فى بيتى أثاثا ولا مالا إلا من عنده؟ ثم أنشد يقول:

كيف الهجاءُ وما تنفك صالحةٌ ∴ من آل لأمٍ بظهر الغيب تأتينى(١)

وأفاد بشر بقبول هذا العرض فأخذ الإبل وهجا أوس بن حارثة الذى كان له شأن فى قومه وينافس حاتم بن عبدالله الطائى فى الشرف والكرم والمكانة، وقد تحرى الملك عمرو بن هند عنهما، ففضل كل واحد منهما صاحبه على نفسه، خاصة أن كليهما من طيئ، وإن كان أوس ليس شاعرا.

ومهما تكن الأسباب فى تسلط بشر بشعره على أوس، فإن هذا الهجاء قد أشعل نيران الغضب والكراهية فى أعماق أوس، فعقد العزم على الانتقام لنفسه من بنى أسد وشاعرهم، حيث سعى إلى الظَفَر به من خلال قومه، الذين رأوا أن تسليمهم لأوس سيكون عارا عليهم، ومما قاله بشر فى هجائه:

فيا عجبا! أيُوعِدنى ابنُ سعدَى ∴ وقد أبدى مساوئَه الهجاءُ

---

(١) مقدمة الديوان صـ١٣ .

وحولى من بَنَى أسـدٍ حُلـولٌ ∴ كمثلِ الليل ضاقَ بها الفضاء(١)

وأغار أوس ومعه قومه على بنى أسد، وقتلوا منهم كثيرا فانهزم الأسديون، وهرب بشر .

ووقع بشر فى الأسر حيث أسره بنو نبهان من طيئ، وبذل لهم أوس مائتى بعير، واستوهبه منهم فسلموه إياه، وعزم على قتله عقابا له ولقومه، وتدخلت فى الأمر سُعْدى بنت حِصة أم أوس بن حارثة الطائى راغبة فى أن يعفو ابنها عن بشر الذى كالهجاء المقذع له فى خمس قصائد أججت الكراهية فى أعماقه.

وكان أوس قد أغار على الإبل التى أخذها بشر فى مقابل هجائه، فاكتسجها لنفسه، وأوشك أن يحرقه ما دام قد قدر عليه، إلا أن أمه سُعْدى أوقفته عن الثأر، واستعفته عنه فقد كانت ذا رأى وبصر، وذكر الكامل فى المبرد أن أوسًا دخل على أمه فقال: "قد أتينا بشرا الهاجى لك ولى ما تَرَين فيه؟ فقالت: أو تطيعنى فيه؟ قال: نعم. قالت: أرى أن ترد عليه ماله وتعفو عنه وتحبوه .....

فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحُه فخرج عليه فقال: إن أمى سُعدى التى كنت تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا فقال: لا جرم والله لا مدحت أحدا حتى أموت غيْرَك، ففيه يقول:

إلى أوسِ بن حارثَة بْن لأمٍ ∴ لِيقضىَ حاجتى فيمنْ قضاها

وما وَطِئ الثرى مثلُ ابنِ سُعدى ∴ ولا لَبِس النِّعالَ ولا احتذاها(٢)

---

(١) الديوان صـ٢١ .

(٢) الكامل للمبرد جـ١ صـ٢٣٢ طبعة دار نهضة مصر .

وقد انفك عقال بشر، وعاد إلى حياته مع الشعر والقبيلة والإغارة للقتال، بما يكشف أن مسيرته قد بقيت على حالها، فشارك فى الإغارة على بنى وائلة بن عامر بنى صعصعة، وكانت نهايته فى هذه الغـــزوة حيث قتل فى حدود عام اثنين وثلاثين قبل الهجرة (٥٩٠م) وقيل غيـــر ذلك .

شعره:

يعود الفضل فى البعث والإحياء لشعر بشر بن أبى خـــازم فـــى العصر الحديث إلى الدكتور/ عزة حسن من ســـورية الـــشقيقة، فقـــد تحصل على نسخ الديوان وجمع منها شعر بشر، وحققه وشرحه لأول مرة فى العصر الحديث بصورة مميزة[١] .

وألحق بالديوان عددا من المقطوعات، التى نسبت لبشر وهى فى حوالى عشرين بيتا، وذكر فى المقدمة ما يفيد عناية القدماء بديوان هذا الشاعر المرموق، الذى حظى شعره بالتقدير عند القدماء أكثر مما ناله عند المحدثين، ويعد البغدادى صاحب السبق فى التعرض لشعر بـــشر بخزانة الأدب، وتلاه ابن سلام الجمحى، الذى جعل بشرا فى الطبقـــة الثانية من طبقات فحول الشعراء مع أوس بن حجر وكعب بن زهيـــر والحطيئة، ولم يُسبق إلا ببعض شعراء المعلقات.

وذكر الدكتور/ عِزّة أن ترجمة ابن سلام لبـــشر قـــد ضـــاعت، وأعتقد أن الضياع لم يقتصر عليها، إذ اشتمل أيضا ما قام به البغدادى فى هذا الشأن.

---

(١) طبع الديوان أولا عام ١٩٦٠م، ثم أعيد طبعه عام ١٩٧٢م.

وتوالت جهود النقاد والمؤرخين القدامى فى العناية ببشر وشعره كابن حبيب فى أسماء المغتالين، وابن قتيبة فى الشعر والشعراء والمبرد فى الكامل والأصفهانى فى الأغانى، هذا الذى لم يكن بحثه عن بشر شافيا ولا كافيا، إذ أورد نتفا لشاعرنا خلال حديث أبى الفرج عن حاتم بن عبدالله الطائى، الذى كان معاصرا لبشر والحطيئة، وكان بشر يأتى حاتما وينال عند الحظوة والإكرام.

وقد أشاد القدماء بشعر بشر فذكر ابن رشيق أن الفرزدق وجريرا جعلاه أشعر الناس، حيث شارك فى حروب قومه، وأجاد الوصف فيها، كما انعكست على شعره آثار العصبية القبلية، مع أن نتاجه من الشعر، ليس كثيرا، فلم ست وأربعون قصيدة ومقطوعة تبلغ حوالى ثمانمائة بيت، وتجلت فيه معظم أغراض الشعر، مثل الوصف والحماسة والفخر والهجاء والمدح، وله خمس أو ست قصائد فى هجاء أوس بن حارثة الطائى، ومثلها فى المدح، وله عدد من القصائد فى رثاء أخيه سُمَير، الذى كان جوادا كريما، ولبشر قصيدة من عيون الشعر العربى رثا بها نفسه عندما استُهدف بالقتل وجرح وأيقن أنه ميت، وسبق بيانها.

ولا نكاد نرى أحدا من النقاد القدامى لم يعرض لشعر بشر بالاختيار والشرح والنقد والموازنة، بما لا يتسع له هذا الموضع من البحث والدرس لبيانه واستقصائه.

ويقول جامع الديوان ومحققه الدكتور/ عِزّة حسن : "ونحن نرى في شعر بشر انسجاما تامًا بين أجزائه المختلفة، وهو يضطرد على وتيرة واحدة من أول الديوان إلى آخره.

ونرى ألفاظه ومعانيه متجانسة في جميع شعره، أما أسلوبه فواحد لا يتغير في قصائده جميعا، إلا بقدر ما تفرضه الأغراض المختلفة من تبديلات يسيرة في الأسلوب"[١].

القصيدة:

سنعرض في الصفحات التالية للقصيدة الميمية المشهورة، وهي في الحماسة والفخر، وبدأها بشر بالحديث عن ديار الحبيبة، وعن وسيلته في الوصول إليها والارتحال منها، ثم وصف حروب بني أسد مع القبائل الأخرى، وما كان في يومي النِّسار والجفار مفتخرا بما كان لهم من انتصارات سحقوا فيها الأعداء، متحليا بالمبالغة التي لا تستبعد في مقام الحماسة والفخر، وأبياتها اثنان وعشرون وأولها:

لِمن الديارُ غشيتُها بالأنعُم ∴ تبدو معارفُها كلونِ الأرقُم

واختارها أبوزيد القرشي في جمهرة أشعار العرب، ضمن القصائد السبع المجمهرات، ولم يتقدم عليها في الترتيب إلا القصائد السبع المسماة "السموت" والمشهورة بالمعلقات.

وهي واحدة من أربع، اختارها المفضل الضبي في المفضليات كما اختيرت في مصادر أخرى قديمة

---

(١) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي صـ٣٤ طبع وزارة الثقافة السورية عام ١٩٦٠م.

وقال أبوزيد القرشى: إن هذه القصيدة أجود شعر بشر بن أبى خازم، ويبدو أن الأمر ليس كذلك، بل الأجود القصيدة التى ذكرها أبوعمرو بن العلاء ومطلعها:

أحقٌّ ما رأيتُ أم احتلامُ ∴ أم الأهوالُ إذ صَحْبى نِيَامُ

إذ قال أبوعمرو: "ليس للعرب قصيدة على هذا الروى أجود منها"[١].

ولسنا بصدد المناقشة لهذا التوصيف النقدى، ولا الموازنة بين القصيدتين شكلا ومضمونا •

(١) الديوان بتحقيق مجيد طراد صـ ١٢٤ •

النص(*)

١- لِمن الـديارُ ، غـشيتُها بـالأنعُم ∴ تبـدو معارفُهـا ، كلـونِ الأرقـم؟(١)

٢- لَعبتْ بهـا ريحُ الصَّبا فتنكَّرتْ ∴ إلا بقيـــةَ نُؤيهـــا المتهــــدِّم(٢)

٣- دار لبيـــضاء العـــوارضِ طفلـــةٍ ∴ مهــضومةِ الكـشحين ريَّـا المِعْـصم(٣)

٤- سمعت بنا قِيل الوُشاةِ، فأصبحت ∴ صَـرَمتْ حبالَـك فـى الخلـيط المُـشئم(٤)

(*) اعتمدنا فى إثبات هذه القصيدة على المصادر التالية :

١ - ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى بتقديم وشرح نجيب طراد، طبع دار الكتاب العربى بيروت ١٩٩٤ صــ١٤٠ .

٢ - الديوان بتحقيق الدكتور/ عِزَّة حسن، طبـع وزارة الثقافـة والإرشـاد القومى فى الإقليم السورى عام ١٩٦٠م والذى أعيـد طبعـه عـام ١٩٧٢ صـ١٧٧ .

٣ - جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام لأبى زيد القرشى طبعة دار نهضة مصر صـ٣٩٩ تحقيق على محمد البجاوى.

٤ - شرح المفصليات للتبريزى طبعة دار نهضة مصر جـ٣ صـ١١٩٤ تحقيق على محمد البجاوى.

(١) غشيتها: أى أتيتها. الأنعُم: موضع بالعالية ذكره جرير فى شـعره، وجَبَـل بالمدينة عليه بعض بيوتها والأنعَم بفتح العين: جبل ببطن عاقل بين اليمامـة والمدينة . معجم البلدان لياقوت جـ١ صـ٢٧١، معارفهـا: أى آثارهـا وعلاماتها. الأرقم: النقط على ظهر الحية . .

(٢) لعبت: أى تلاعبت . ريح الصبا: ريح الجنوب. فتنكرت: درست وتغيرت. النؤى: الحاجز يمنع الماء من دخول البيت. بقية نؤيها: استثناء خـارج ممـا تقدم.

(٣) العوارض: أى عوارض الأسنان وهى ما يعرض من الشفتين جميعا، وقيل مقدم الفم، وقيل جانبا الفم من الأسنان ويقصد أنهـا نقيـة الثغـر. الطفلـة: الرخصة اللينة ــ أى الناعمة. المهضومة: أى الخميصة الـبطن الـضامرة. الكشح: الخاصرة. الريَّا: الممتلئة. المِعصم: موضع السوار من اليد .

(٤) بنا : أى فينا. قيل: أى قول. الوشاة: جمع واش وهو النمام. صرمت حبالك: قطعت علاقتك بها. الخليط: الصديق المخالط وأهل الـدار، والقـوم أمـرهم واحد. المشئم: ويروى الأشأم، وهو من الشؤم، ومعنى المـشئم الـذى أخـذ طريقه نحو الشام.

٥- فظَلِلْتَ من فَرْط الصبابة والهوى ∴ طَرِفًا فؤادك مثلَ فعلِ الأهيم[١]

٦ - لولا تُسَلِّى الهمَّ عنك بجَسْرةٍ ∴ عَيرَانةٍ مثلِ الفنيق المُكْدَم[٢]

٧- زيَّافةٍ بالرَّحل صادقِهِ السُّرى ∴ خَطارةٍ تَهِصُ الَحصا بمُلَثمٌ[٣]

٨- سائلْ تميمًا فى الحروب وعامرا ∴ وهلِ المجرِّبُ مثلُ من لا يعلمُ؟[٤]

٩- غضِبتْ تميمٌ أن تُقتَّل عامرٌ ∴ يومَ النِّسار فأُعِقبوا بالصَّيْلم[٥]

---

(١) فرط : تجاوز الحد أى زيادة. والصبابة: رقة الشوق وفرط الصبابة أى ما سبق إلى نفس الإنسان منها. الهوى: الميل والعشق. الطرف: البعير الذى يستطرف المرعى فضربه مثلا لفؤاده وقيل إنه توله فصار يأخذ فى كل ناحية وقيل إنه فسد كأنه أصابته طرفة كما تصيب العين. الأهيم: أى الحائر الهائم على وجهه من عشق أو غيره أو معناه الهائم أى العاشق، أو الذى ولدته أمه أعمى، وهو بمعنى البعير الذى أصابه الهيام وهو داء يكسب الإبل العطش فلا تروى من الماء، وروى الأيهم وهو الذاهب العقل .

(٢) لولا: بمعنى هلا وهى أداة الحث والتحضيض، وجاءت فى رواية لوما. الجسرة: الناقة الضخمة تجسر على السير والهول فلا تقف. وهى المتجاسرة فى سيرها الماضية. عيرانة: العيرانة من الإبل الناجية فى نشاط شبهت بالعير فى سرعتها ونشاطها. الفنيق: الفحل الشديد. المكدم: الغليظ وقيل الصلب وقيل المكدم من الكدم وهو العض .

(٣) زيافة: تزيف فى مشيتها وعليها الرحل، والزيافة من النوق أى المختالة. السرى: السير ليلا، وصادقة السرى أى تتم سراها بنشاط وصدق سير، فهى ليست مثل التى تسير ثم تكذب أى تقصر وتصبر على السير بنشاط وصدق. الخطارة: التى تخطر بذنبها وتضرب به يمنة ويسرة لنشاطها ومرحها. تهص الحصا: تكسر الحصا وتدق فيتفرق فى وجه الأرض. المِلثم: الخف الذى لثمته الحجارة وأثرت فيه وأراد: منسم الناقة الذى لثمته الحجارة واشتد .

(٤) تميم وعامر قبيلتان متحالفتان، وعلى عداء مع بنى أسد قوم الشاعر وأحلافهم من طيئ وغطفان . وهل المجرب استفهام تقريرى بمعنى النفى، وتتجلى الحكمة فى الشطر الثانى .

(٥) أن تقتل: لأن تقتل أى بأن تقتل. يوم النِّسار: النسار: جبل لبنى أسد، ويوم النسار هو يوم أوقعت فيه بنو أسد وأحلافها من طيئ وغطفان ببنى عامر وبنى تميم، وهم حلفاء، ففرت بنو تميم، وثبتت بنو عامر، فأصابهم قتل شديد فغضبت بنوتميم لبنى عامر، فتجمعوا ولقوا أسدا وخلفاءها يوم الجفار (فى

١٠- كنا إذا نعروا، لحربٍ نعْرةً ∴ نشفى صداعَهُمُ برأسٍ صِلْدَم(١)

١١- نعلو القوانسَ، بالسيوف ونَعْتزِى ∴ والخيلُ مُشعَلَةُ النحور من الدَّم(٢)

١٢- يخرجُنْ من خلل الغبار عَوابِسا ∴ خَبَبَ السِّباعِ بكل أكْلَفَ ضَيغَمِ(٣)

١٣- من كلِّ مسترخِي النجادِ، منازلٍ ∴ يسمُو إلى الأقران غيرَ مقلَّم(٤)

١٤- فَفَضَضْنَ جمعَهُمُ وافلتَ حاجبٌ ∴ تحت العجاجةِ فى الغبار الأقْتَم(٥)

عام تالٍ) فلقيت منهم بنو تميم أشد مما لقيت بنو عامر، ولذا قال الشاعر فأعقبوا بالصيلم، وهو الداهية، وهو فيعل من الصلم، ومعناه: القطع أى المصطلم لجماعتهم، أى كانت الصيلم عاقبة أمرهم.

(١) نعروا: هاجوا واجتمعوا، وصاحوا بشعارهم، ومنهم قولهم فى رأس فلان نُعَرة، وهى أبهة تأخذ فى الرءوس والأنوف، ألا ترى قولهم: فلان نَعَّارٌ فى الفتن نَعَرانا أى ركَّابٌ رأسه فيها، والنُّعار: شدة الصوت. نَشفِى صداعهم: كناية عن مداواة دائهم، الرأس: الرئيس، الصِلدم: الشديد، ويروى: مصدم: وهو الشديد الذى من عادته أن يصدم ويكسر، وقيل: رأس: جمع كثير لا يحتاجون إلى من يعينهم.

(٢) القوانس: جمع قونس، وهو وسط البيضة، التى تلبس على الرأس فى الحرب، نعتزى: ننتسب إلى آبائنا، فتقول: يا آل فلان، وأنا ابن فلان، أو ينتسب الشخص لأبيه عند لقاء الخصم. ومشعلة النحور من الدم: امتلأت= =صدورها من الدم والمشعلة: الملتهبة. ويروى مشعرة النحور من أشعرت البدن.

(٣) خلل: وسط، العوابس: الكريهات المنظر لما هن فيه من الحرب والجهد، والعابس: الكالح، الخبب: ضرب من العدو، الأكلف: الأسد الذى فيه لون يخالف لونه، والذى يخالط بياضه سواد، ويريد: الفرسان الذين عليهم غبرة، والكلفة: الغبرة إلى سواد، والضغم: العض، وضيغم: عضاض.

(٤) مسترخى: طويل، والنجاد: حمائل السيف، وجعله مسترخى النجاد، لامتداد قامته وكمال خلقه، منازل: ينازل أقرانه، ولا يتبذل نفسه بملاقاة من لا يأبه له، يسمو: يرتفع، الأقران: جمع قرن وهو الكفء والنظير فى الشجاعة والقتال من الأعداء. والمقلم: الذى ليس بتام السلاح، وغير مقلم: أى أنه كامل السلاح.

(٥) فضضن: كسرن، وفرقن جمعهم. أفلت حاجب: هو حاجب بن زرارة من بنى تميم فى يوم النسار، وجاء فى جمهرة أشعار العرب أنه كان رئيسهم=

١٥- ورأوا عُقابَهم المُدِلَّةَ أصبحتْ ∴ نُبذت بأفضَح ذِى مخالِبَ جَهْضَم[١]

١٦- أقْصَدْن حُجرا قبل ذلك والقَنا ∴ شُرع ٌإليه، وقد أكبَّ على الفَم[٢]

١٧- ينوى مُحاولةَ القيام وقد مضتْ ∴ فيه مخارصُ كلِّ لَدْنٍ لَهذم[٣]

١٨- وبنو نُمير قد لقينا منهمُ ∴ خَيلا تَضِبُّ لثاتُها لِلمَغْنم[٤]

١٩- فدهمتُهم دهْما بكل طِمِرَّةٍ ∴ ومقطِّعٍ خلَقَ الرحالةِ مِرْجم[٥]

=فى يوم الجفار. العجاجة: العجاج: الغبار والدخان، ورعاع الناس وغوغاؤهم وواحدة عجاجة . ولف عجاجتهم عليه: أغار، والأقتم: الأسود، والقَتَمَة: حمرة فى سواد •

(١) العُقاب: الراية وكانت راية بنو تميم على صورة العقاب وراية بنى أسد على صورة الأسد . المدلة: أى التى تدل على الأقران بكثرتهم. نبذت: رميت. بأفضح: الأفضح: الأبيض ولكن لبس شديد البياض وقيل الأفضح: الأسد للونه وقيل الفضحة شهبة تعلوها حمرة وقيل إن الفضح: لون اللحم المطبوخ. جهضم: الجهضم المنتفخ الجنبين والعظيم الرأس، والجهضم الذى إذا قبض على شئ مات وكان من شدة قبضه •

(٢) أقصدن: قتلن. حُجر: هو حجر بن الحارث ــ وهو والد امرئ القيس وكان ملكا على بنى أسد فقتلوه. القنا: والقنا: الرماح والقناة: الرمح الأجوف،= =وكل عصا مستوية أو معوجة. شُرعٌ: محدودة مسددة إليه، وقد تهيأت للطعن. أكب: أى سقط •

(٣) المحاولة: الإرادة. الخُرص: طرف السنان والمخارص الأسنة. اللدن: اللين. لهزم: حديد •

(٤) نمير: هو ابن عامر بن صعصعة. تضب: أى تسيل وتضرب مثلا للحريص على الأمر. لثاتها: اللثات جمع لثة وهى اللحمة المركبة فيها الأسنان يقال فلان تضب لثاته على كذا إذا كان حريصا عليه، ويراد بها الأفواه وذلك شهوة للمغنم ولديهم طمع فى الغنيمة•

(٥) دهمنهم: أى غشينهم فى سكون، وحملن عليهم. الطمرة: الفرس المستفزة للوثب والسريعة. الرحالة: السرج من الجلود، ذلك أن شدة وثبة، يقطع حلق الرحالة. المرجم: الفرس الشديد وقع الحافر الذى يرجم الأرض بقوائمه لصلابة حوافره•

٢٠- ولقد خبطْن بنى كلابٍ خُبطة ∴ ألصقنهم بدعائم المتخيَّم(١)

٢١- وصَلقْن كعبا قبل ذلك صَلْقةً ∴ بقَنا تعَاورُه الأكفُّ مُقَوَّمِ(٢)

٢٢- حتى سقينا الناسَ كأسًا مُرَّة ∴ مكروهةً حُسُواتُها كالعَلْقم(٣)

هذه هى الأبيات الاثنان والعشرون، كما جاءت فى الديوان، الذى اعتمدنا عليه بشرح نجيب طراد، وفى النسخة الأخرى بشرح د/عزة حسن، جاءت القصيدة بهذا العدد فى شرح المفضليات للتبريزى بينما أضاف آخرون إليها بعض الأبيات المشكوك فى نسبتها إلى بشر بن أبى خازم.

إيضاح المضمون:

نقدم فى هذا الإيضاح بيانا شموليا لهذه القصيدة بأبياتها الاثنين والعشرين كما سبق العرض، وهى مشمولة من الشاعر بفن الوصف، وهو غرض قديم فى الشعر العربى، وأكثر ما يوجه إلى وصف الطبيعة سواء أكانت صامتة أم متحركة، لكن الوصف فى هذا النص القليل الأبيات بالنظر إلى ديوان الشعر الجاهلى يتجه إلى أمرين.

---

(١) الخبط: الضرب ولذا قيل هو يخبط خبط عشواء. ألصقنهم: أى ألجأنهم إلى الالتصاق بدعائم البيوت أو ألحقنهم أو ألصقهم بأصل مولدهم، وبنو كلاب: حى من أحياء بنى عامر بن صعصعة ، يريد رددناهم أسوأ الرد فى متخيمهم أى الموضع الذى خيموا به، أى أقاموا به وبنو الخيمة .

(٢) الصلق: رفع الصوت والضرب على الشيئ اليابس، ومثله السّلق بمعنى صحن عليهم، وسلقه إذا طعنه فألقاه على رأسه. تعاوره الأكف: تتداوله. مقوم: وهى صفة للقنا وقنا مقومة أى مستوية .

(٣) الحسوات : جمع حسوة وهى القليل مما يشرب قدر ملء الفم أى الجرعة. العلقم: شجر مر .

أولا - المقدمة : والتى اشتملت الأبيات السبعة الأولى، وعرض فيها الشاعر لوصف ديار الحبيبة، والتغزل بها والحزن لرحيلها، والتسلى عن الهم بوصف الناقة، وجاء هذا تقليدا لمعظم ما سار عليه الشعراء فى الزمن القديم، ونقصد مقدمة القصيدة بسائر مشتملاتها.

ثانيا - وصف الحرب، وتجلى ذلك فى بقية الأبيات، حيث عرض الشاعر لمعارك بنى أسد مع خصومهم، مشيرا إلى بعض الأيام، التى حققوا النصر فيها، مفتخرا بشجاعة قومه فى قهر الأعداء، واستقصاء المعنى على النحو التالى:

١ - ذكر الشاعر أنه ألم بديار الحبيبة، التى بدت معالمها له مثل الآثار التى على الظهور السوداء للحيات البيض.

٢ - لقد غيرت الرياح معالمها، ولم يبق منها إلا القليل من الحاجز المهتدم الذى يمنع الماء من دخولها.

٣ - وأن هذه المحبوبة نقية الثغر وبيضاء، وذات ليونة، وليست ضخمة مع امتلائها.

٤ - قال إن محبوبته قد سمعت قول الوشاة، فقطعت ما بينه وبينها من ود ، وسارت مع قومها نحو الشام، أو ارتحلت معهم فى ضيق وتشاؤم.

٥ - بقى المحب من تأثير العشق والهوى، مضطربا تائها، كأنه هائم بلا عقل.

٦ - لقد استعان بتسلية نفسه عن الهم بركـــوب ناقـــة ضـــخمة، ذات جسارة وسرعة فى المسير ٠

٧ - يستكمل الشاعر أوصاف الناقة، فهى تسرع فى تمايـــل، عنـــدما تسير بالليل، وتضع ذَنَبها بين وركيها، وهى ذات صلابة ، فـــإذا وطئت الأرض تكسر الحصا وتدقه فيتناثر على وجه الأرض ٠

٨ - ينتقل الشاعر من المقدمة إلى الغرض الأساسى من القـــصيدة إذ يخاطب من يتلقى شعره أن يسأل بنى تميم وبنى عامر، عما لحق لهما مدللا على ذلك بأسلوب الحكيم؛ إذ أن المجرب الذى لاقـــى مرارة القتال ليس كمن لا يعلم عنه شيئا ٠

٩ - لقد غضبت بنو تميم مما لحق ببنى عامر فى يوم النـــسار، ثـــم دارت الدائرة على بنى تميم فى يوم ذاقوا فيه آلام القتل، إذ كـــان داهية لهم وعقابا مريرا ٠

١٠ - ذكر أن أعداء بنى أسد إذا صاحوا بشعاراتهم للحرب، فيكـــون الرد عليهم بضرب رءوسهم الأليمة وإراحتهم منهـــا بأصـــابتها وتكسيرها ٠

١١ - وبقيت رؤوسهم كأنها أشعلت النيران فيهـــا؛ لتـــأثير طعنهـــا وسيولة الدم منها ٠

١٢ - إن الرجل من قومه يخرج من غبار القتال كأنه أســـد ضـــيغم قوى العض، كريه المنظر حيث يخالط بياضه سوادا ٠

١٣ - وأن الواحد منهم طويل القامة فى قوة وتمام خلقه، وهو ينازل أقرانه، ولا يتبذل نفسه بملاقاة من لا يؤبه له، وهو في كمال سلاحه.

١٤ - وذكر أنهم فرقوا جموع أعدائهم، وأفلت رئيسهم، وهو حاجب بن زرارة، الذى كان المدبر لهم يوم النسار، وذلك تحت ستار الغبار الأحمر الذى به سواد.

١٥ - وتغلظ الألفاظ فى هذا البيت، الذى وصف الشاعر فيه راية بنى تميم، وكانت على صورة العُقاب التى تدل على ذويها، وقوبلت بجيش بنى أسد، الذين يشبهون الأسد فى الجرأة والإقدام على الأعداء، حيث ألقيت راية بنى تميم على الأرض.

١٦ - وذكر أن قومه قد قتلوا حُجْر بن الحارث قبل ذلك، وكانت الرماح مشرعة إليه، حيث سقط مكبا على وجهه.

١٧ - وكان حُجر يحاول النهوض فلا يقدر، وقد اخترقته الأسنة الحديدية.

١٨ - وتلاقت بنو أسد مع بنى نمير بن عامر بن صعصعة على خيولهم، وكانت لِثاتهم تصطلك طمعا فى الغنيمة.

١٩ - وقال: لقد دهمناهم وغشيناهم فى سكون بأفراس وثابة لنشاطها وسرعة عدوها وعظم جوفها، الذى يقطع الأحزمة الجلدية لصلابة حوافرها.

٢٠ - وقال: رددنا بنى كلاب بن ربيعة إلى بيوتهم منهزمين، وألصقناهم بدعائم متخيمهم أى بخشب بيوتهم.

٢١ - وقال: لقد أوقعناهم وقعة لها فى الناس صوت وذكر، وفعلنا ذلك برماح تتناولها الأيدى براحة ولذة لاستوائها واعتدالها.

٢٢ - وينتهى الشاعر إلى أن عقاب قومه لسائر الناس وليس إلى فصيل واحد أو فصيلين، وأنهم أذاقوا الجميع كأس المرارة، والتى كان احتساؤها شديد المرارة كالعلقم.

ملامح التعبير والتصوير:

لقد شُغل بشر بن أبى حازم بهموم قبيلته بنى أسد، وصراعاتها مع القبائل الأخرى، وسعد بانتصاراتها خاصة على قبيلة كِنْده، وبنى تميم، وبنى عامر، وشارك فى حروب يومى النسار والجفار، وانتهت حياته مقتولا فى غارة حربية.

ولم يكن شعره كثيرا، فله ست وأربعون قصيدة ومقطوعة، تبلغ حدود الثمانمائة بيت، ويسير فيها على نسق واحدة فى ألفاظه ومعانيه، إلا فى أبيات قليلة، ربما تغلظ فيها الألفاظ، أو تتشابك أجزاء الصورة الخيالية فى مواضع قليلة.

واعتقد أن عاطفة الشاعر تختلف من حيث العمق والصدق من غرض شعرى إلى آخر، فهى موسومة بذلك خلال شعره فى الحماسة والفخر، ولكنها متقلبة وغير مستقرة فى المدح والهجاء، وإلا فبماذا نفسر شعره فى هجاء أوس بن الحارث، ثم تحوله إليه بالمدح والثناء،

فمتى كان صادقا، ومتى كان كاذبا؟ ولعله يذكرنا بالمتنبى، وهو أعظم الشعراء فى العصر العباسى، حيث مدح كافور الأخشيدى ثم هجاه، بما أثار شهية النقاد للخوض فى صدق العاطفة وكذبها، إلى غير ذلك من التجارب الشعرية المتعددة فى العصر الجاهلى والأعصر التالية.

ولسوف نعرض لبعض ما فى الأبيات من دلالات تعبيرية وخيالية.

١ - جاءت بداية البيت الأول معبرة عن الحيرة والدهشة، التى تنتاب القادم؛ لمشاهدة الحبيبة فلا يرى إلا آثارا بالية، والتى شبهها بالنقط على الظهر الأسود للحية البيضاء، وكيف أن هذه النؤى والمعالم قد فارقتها محبوبته، فجسدت له صورة الحية، التى تبعث على الخوف والدهشة والأسى.

٢ - وشخّص ريح الصَّبا فجعلها تتلاعب بآثار الديار، التى تنكرت وتحولت عما كانت عليه، ولم تعد معروفة، ولم يبق إلا حاجز متهدم كان يحول دون اقتحام المياه لها.

٣ - كثف الشاعر لغته، وحشدها فى مجموعة من الأوصاف لصاحبة الدار التى طاف بها ، وكانت تلك هى مدار الوصف الحسى للمرأة فى الزمن القديم.

٤ - يعد الاستماع إلى الوشاة، والتأثر بكلامهم من الموروثات القديمة التى لازمت الشعر والشعراء فى العصور التليدة، وقوله: "صَرَمَتَ حبالَك" كناية عن القطيعة والفراق.

٥ - صار المحب العاشق من فرط حبه وهُيامه مثل الهائم الذى يأخذ فى كل ناحية، أو مثل الذاهب العقل الذى لا يسيطر على تصرفاته فيهيم بلا إدراك.

٦ - ذهب الشاعر إلى تسلية نفسه من الهم بركوب ناقة تجسر على السير والهول، وتشبه البعير الصلب الغليظ، وهو من التشبيهات المستوحاة من البيئة، وإن تجلى التقليد والاحتذاء فى هذا التصوير.

٧ - تبدو المبالغة فى وصف الناقة، فهى تطأ الأرض، فتكسر الحصا فينتثر فى وجه الأرض.

٨ - تنبئ الحكمة عن خبرة وتجربة، وساقها الشاعر فى البيت من خلال الاستفهام المجازى، وهو تقريرى بمعنى النفى، ويلزم لهذا التشكيل البيانى سهولة الألفاظ، وقرب المعانى، وارتباط الحكمة بالفعل المتحدث عنه.

٩ - عبر الشاعر عن المعنى بتهكم وسخرية من أعداء قبيلته، فإذا كانت بنو تميم قد غضبت مما لحق ببنى عامر، فإن جزاءهم قد أسفر عن داهية لحقت بهم، فاستأصلتهم، وقطعت جذورهم وأصول جماعاتهم.

١٠ - ويواصل سخريته من بنى تميم، وقوله: نشفى صداعهم كناية عن مداراة دائهم، وإزالة بعض سبل الحماية والأبهة من أغطية رؤوسهم.

١١ - وذكر أنهم يفتخرون بتاريخهم وشجاعتهم، وأن الخيول ملطخة الدماء الحمراء كأنما أشعلت النار فيها بتأثير الطعن .

١٢ - ويواصل الحديث عن الحرب، مفتخرا بما كان من قومه بحق الأعداء، إذ أن البطل منهم كان يخرج على خيله من تحت الغبار كأنه أسد أكْلفٍ ذى لون غير لونه.

١٣ - وقوله: "مسترخى النجاد" كناية عن طول الرجل، وأن الواحد منهم كان يعتز بنفسه، فلا ينازل قليل الشأن الذى لا يؤبه له.

١٤ - ويورد أسماء بعض الرجال من خصوم بنى أسد؛ للاستهزاء بهم، والسخرية منهم، وتغير لون الغبار كناية عن شدة القتال وقسوته، والفخر من الشاعر بقبيلته، وليس بشخصيته، تأكيدا لروح الانتماء، والاعتزاز بالجماعة.

١٥ - تتميز ألفاظ البيت بالخشونة والجزالة، وتُؤخذ الصفات المذكورة على الحقيقة، ويمكن أن تتحول إلى كنايات وأمثال، فالأسد حقيقة واستعماله فى الكناية عن القوة جائز، أو يكون تشبيها أو استعارة مبنية عليه.

١٦ - صور الشاعر قتال قومه للمليك عليهم من كِندة وهو حُجر بن الحارث، حيث قتل وهو منكفئ على وجهه.

١٧ - ويواصل تصويره لمصير مليكهم حُجر بن الحارث الذى يحاول النهوض فيعجزه إذ تستهدفه الأسنة الحديدية.

١٨ - ويعرض (هنا) لفصيل آخر من الأعداء، وهم قوم بنى نُمير بن عامر بن صعصعة، حيث يصطك أسنة رحالهم، (مجاز) طمعا فى الكسب، ويأتى هذا مثلا لبيان الطمع فى الغنيمة.

١٩ - بالغ الشاعر فى وصف الفرس بالنشاط والسرعة، حيث تُقطع الأحزمة الجلدية عليها، لالتهاب جوفها، وتلك هى أفراس القتال.

٢٠ - عبر بقوله: "لقد" لتأكيد المعنى فى ضرب بنى كلاب بن ربيعة، وردهم وإلصاقهم بدعائم البيوت الخشبية.

٢١ - أوقع الشاعر وقبيلته ببنى كعب بن ربيعة وقعة لها فى الناس صوت وذكر.

٢٢ - ختم الشاعر القصيدة، ذاكرا أنه وقومه قد سقوا الناس كأسا مرة كالعلقم، وهو شجر مر، لتأكيد أثر الهزيمة على الأعداء.

التعليق العام على القصيدة :

عشنا فى صحبة بشر بن أبى خازم ومجمهرته المشهورة، وأسهمت أبياتها القليلة (الاثنان والعشرون) فى وضوح أفكارها العامة، فهى تبدأ بمقدمة تقليدية فى سبعة أبيات، ثم تليها الباقية وهى خمسة عشر، وعرضت لحروب بنى أسد مع خصومها وأعدائها، فأسهم هذا العدد على إجماله فى اتجاه النص إلى المساقين المذكورين.

١ - تمثل الأبيات السبعة الأولى المقدمة التقليدية المتوارثة من عمق الماضى ففى أولها بيتان لوصف الديار، ومثلها لوصف الحبيبة، والثلاثة التالية الباقية لوصف الناقة، مع التشابك الصياغى بين هذه

المعانى، حتى يكون التنقل من فكرة إلى أخرى سهلا وهادئا ومقبولا للمتلقى قارئا أو مستمعا.

وتتعدد أطر مقدمات القصائد، وقد يتوغل ذهن الشاعر فى أعماق المعانى، فيبكى الديار، لكنه فى الحقيقة لا يبكى حَجرا، وإنما يعبر عن حزنه وأساه لفقد محبوبته ، وللغياب الجماعى للقوم، فالطلل رمز للموت والفناء والغياب فى مجاهل الصحراء.

ولامرئ القيس أمير الشعر فى العصر القديم بيت شعرى شهير، يثبت فيه مرجعية البكاء على الأطلال إلى شخص مجهول الهوية، إذ اختلف مؤرخو النقد فى أصوله وجذوره وهو ابن خذام، وهذا قول امرئ القيس بحقه:

عُوجا على الطللِ المحيل لأننا ∴ نبكى الديارَ كما بكى ابن خذام[1]

وأقرّ عنترة العبسى وهو من أصحاب المعلقات بمنهج القدماء فى الوقوف على الديار، والبكاء عليها، بعد فراق الأحبة لها، قال:

هل غادرَ الشعراء من متردَّم ∴ أم هل عرفتَ الدار بعد توهّم[2]

وأقلقت هذه المقدمة بعض الشعراء من جراء ما يقال فيها من كلام مكرر معاد لا يخرج عن الاحتذاء والتقليد للسابقين.

---

(١) ديوان امرئ القيس ــ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ــ طبع دار المعارف عام ١٩٨٤م صـ١١٤ .

(٢) شرح ديوان عنترة ــ طبع دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٨٥م ، صـ١١٧ .

فالمقدمة المتوارثة ذات مكونات متعددة، وتكثر الأبيات فيها وتتضاءل، وتختلف من شاعر إلى آخر، وكل واحد يُخضعها لرؤيته، وتمرير مكوناتها على ذائقته، التى يترجمها إلى أطلال مع الوقوف عليها والبكاء على ما بقى منها، ويصحبها غزل حسى أو عفيف يطول أو يقصر، وربما ينتقل من الحديث عن الحبيبة إلى وصف الذهاب إليها على فرس أو ناقة أو يكون تحركه على قدميه، أو يصاحبه رفيق أو أكثر.

وفى قصيدة بشر جاء العرض بصورة مقتضبة لوصف الديار، أعقبه وصف الحبيبة ، وهجرانها بسبب الوشاة، وصولا إلى وصف الناقة. ولم يطل هذا الاستهلال فبيان الأبيات لا يسمح بالإطالة.

٢ – تجلت حماسة الشاعر فى أبيات القتال، وعبر عن الأحداث بصدق، فقد كان مشاركا فيها، فليس مَنْ رأى كمن سمع، وحدد بعض أيام القتال بأسمائها ومن كانوا يلاقونه، ودبَّج ذلك بالفخر الجماعى، متحدثا بصوت القبيلة، قال:

كنا إذا نعرُوا لحرب نعْرةً ∴ نشفى صداعَهم برأسٍ صِلْدم

نعلو القوانس بالسيوف ونعْتزى ∴ والخيلُ مشعلةُ النحور من الدم

وقد حفل شعر بشر بذكر الوقائع والمواجهات، ليس فى هذه القصيدة فحسب، وإنما فى معظم شعره، ولم يكن يجد حرجًا فى الغلو الجامح، متخليا عن الحس الواقعى كثيرًا.

٣ - إن شعر الوصف ــ كما فى المجمهرة التى معنا ــ يستلزم أن يعرض الشاعر للأحداث دون إسراف فى الخيال، ولذلك لم تتكاثر الصور الخيالية كالاستعارة والكناية، وانحصر تصويره الحسى للأحداث من خلال التشبيه المنتزع من البيئة، دون ارتكاز على المحسنات البديعية، فالاحتكام إلى الطبع ساقه إلى رصد الحدث، ونقل مشاهده، وذكر رجاله.

٤ - تتميز ألفاظ هذه الميمية بما يتسم به شعر الحرب من حيث الجزالة والغرابة أحيانا، واشتملت قائمة الألفاظ أسماء الأشخاص، وأدوات القتال، وأيام الحروب، ونتائج القتال، وتلك هى دلالات البداوة فى المعجم اللفظى لبشر.

٥ - جاءت هذه القصيدة على وزن البحر الكامل، وهى ليست من البحر الوافر، كما صنفها محقق الديوان الذى اعتمدنا عليه، ولا أدرى هل غابت عنه الحقيقة أم أنه وقع فى سهو لا يليق؟

ويتكون الكامل من (متفاعلن) ست مرات فى البيت الشعرى، ولكن هذا الوزن قد لا يثبت على ذلك، فقد يسكن الحرف الثانى، ويتحقق بعض التنوع النغمى، فتصير هذه الوحدة الوزنية على (مستفعلن) والذى يتشكل منها (الرجز) وهو بحر هين ويسهل للشعراء امتطاؤه، للقول فى الغزل والحماسة والفخر، وتحقق ذلك فى معظم الأبيات.

وقد انزلقت القافية عند بشر إلى الإقواء، وهو من عيوب القافية، وبيانه: "اختلاف حركة حرف الروى المطلق بحركتين متقاربتين في الثقل مثل الضم والكسر، فالقافية في القصيدة التي عرضنا لها مبنية على كسر حرف الروى وإذ ببيت يأتي مخالفا لما قبله ولما بعده، قال:

زيافةٍ بالرّحل صادقةِ السُّرى ∴ خطارةٍ تهصُ الحصا بملثمِ

سائلْ تميما فى الحروب وعامرا ∴ وهل المجرب مثل من لا يعلمُ

وكان هذا التجاوز بالوقوع في الإقواء عند بشر كما كان عند غيره مثل النابغة الذبياني الذي نُبِّه إليه فتحرر منه، كما نبه إليه بشر، ولكن يبدو أنه بقي ملازما له، ولم يبرأ منه طوال مسيرته مع الشعر.

أهم المصادر والمراجع :

١- الأعلام – خير الدين الزركلي – طبع دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨٤م جـ٢ .

٢- الأغاني – لأبي الفرج الأصفهاني – طبع مؤسسة جمال للطباعة والنشر – بيروت.

٣- أيام العرب في الجاهلية – محمد أحمد جاد المولى وآخرين – طبع دار الفكر.

٤- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد القرشي – تحقيق على محمد البجاوي – طبع دار نهضة مصر.

٥- تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان – طبع دار المعارف بمصر جـ١ .

٦- تاريخ الأدب العربى للدكتور/ عمر فروخ ـ طبع دار العلم للملايين ـ بيروت عام ١٩٨٤م.

٧- ديوان امرئ القيس ـ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ـ طبع دار المعارف عام ١٩٨٤م، طبعة رابعة .

٨- ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى ـ تحقيق الدكتور/ عِزة حسن ـ طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى الإقليم السورى عام ١٩٦٠م.

٩- ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى ـ تحقيق مجيد طراد ـ طبع دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ عام ١٩٩٤م.

١٠- شرح ديوان عنترة ـ طبع دار الكتب العلمية عام ١٩٨٥م.

١١- شرح المفضليات للتبريزى ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ طبع دار نهضة مصر ـ جـ٣ .

١٢- الشعر والشعراء لابن قتيبة ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ الطبعة الثالثة عام ١٩٧٧م، جـ١ .

١٣- العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ تحقيق محمد سعيد العريان ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ المجلد الثالث.

١٤- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ ابن رشيق ـ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، طبع دار الجيل ـ بيروت عام ١٩٧٢م.

١٥- الكامل للمبرد ـ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ـ طبع دار نهضة مصر.

معلقة عنترة

التعريف بالشاعر:

ينتسب عنترة من جهة أبيه إلى (عَبْس بن بَغيض) وهو شخص ينتسب إليه بطن عظيم من غطفان بن قيس بن غيلان بن مضر (العدنانية)، وكانت منازل (عَبْس) بمنطقة القصيم ونواحيها المترامية.

أما جيران بنى عبس فبنو أسد من ناحية الشمال والغرب، وبنوتميم من الشرق، وبنوعامر من الجنوب، كما تقترب منهم قبيلة طيئ بن أدد وبنو فزارة.

وكانت (عبس) مهيبة الجانب، عالية المكانة بين قبائل العرب بشجاعة فرسانها، وحُسن بلائهم وكثرة عددهم.

ودارت حروب طويلة بين عبس وذبيان ـ استمرت قرابة الأربعين عاما ـ منها حرب داحس والغبراء، والتى أعقبت سباقا للخيل للمفاخرة بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر، ثارت فيه الفتنة فقُتل قيس (ندبة بن حذيفة) وانتقم الثانى فقتل مالك بن زهير.

وأظهرت هذه الحرب شخصية عنترة فعرفه الناس فارسا بطلا، وشاعرا مُبَّرزًا، وعاشقًا متيما.

وهو عنترة بن شداد العبسى، وفى نسبه اختلاف كبير بين المؤرخين، فقيل: إن والده عمرو بن شداد، وقيل معاوية بن شداد،

وذكر صاحب الأغانى نسبه، فقال: "عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قَرَاد بن مخزوم بن ربيعة"[١].

وقيل إن شدادا عمه، وقد نشأ فى داره فنسب إليه وقيل غير ذلك، والراجح أن شدادا أبوه.

قال عنترة:

وأنا المجرَّبُ فى المواقف كلِّها ∴ من آل عبس مَنْصِبِى وفِعالى
مِنْهم أبى شدادُ أكرمُ والدٍ ∴ والأمُّ من حامٍ فهم أخوالى[٢]

والعنتر: الذباب الأزرق والواحد عنترة، والعنترة: الشجاعة فى الحرب، ورُوى اسمه بغير التاء للترخيم أو للضرورة الشعرية، والاسم فى مدلوله وثيق الصلة بأصله ونشأته وطبيعة حياته، فقد لقب بعنترة الفلحاء، كما يكنى أبا المغلَّس للدلالة على شجاعته وسواد لونه، وسَيْرِه فى الغَلَس وهى ظلمة آخر الليل.

أما أمه فهى جارية حبشية تسمى زبيبة وهو بذلك من هُجَناء العرب، وقد ولد فى حوالى سنة خمس وعشرين وخمسمائة من الميلاد، ونشأ فى ديار قومه يرعى الإبل، دون أن يعترف به أبوه، فبقى عبدا ذليلا، يرسف فى أغلال الرق والعبودية، وكان سواده الذى انتقل إليه من أمه إقرارا لبنى عبس باختلاط نسبه، فهو لا يشرفهم ولا

---

(١) الأغانى جـ٨ ص٢٣٧، (دار الكتب المصرية)، وانظر: (شرح القصائد العشر للتبريزى).

(٢) من قصيدة يتحدث فيها عن إغارته على بنى ضبة، الديوان ص١٠٦، طبعة دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٩٨٥م.

يصلح إلا لرعى الحيوان، والنهوض بأى عمل تافه بسيط، وأحب عبلة ابنة عمه مالك بن قراد التى لم تصدّه ولم تُقبل عليه، فتفاقم أمره مع أبيه وعمه اللذين رأيا أنه قد تجاوز قدره، وتجرأ بالحديث عن عبلة لتكون زوجة له.

وأظهر شجاعته وفروسيته، وحدث أن أغار حى من العرب على قوم من بنى عبس، فأصابوا منهم، واستاقوا إبلا، وتبعهم العبسيون، وقاتلوهم عما فى أيديهم، فلما رأى (شداد) رجحان كفة الأعداء طُلب إليه أن يحارب للدفاع عن قومه فقال له أبوه: كُرّيا عنترة، فقال عنترة: العبد لا يُحْسن الكر إنما يحسن الحِلاَب والصرّ . فقال: كر وأنت حر[1] . فكرّ وقاتل قتالا شديدا، واسترد الإبل، فاستلحقه أبوه. عندما أبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن قومه، الذين تجاوبوا معه وقدّروه فارسا مقداما أكثر من كونه شاعرا إذ كانوا يرون عروة بن الورد أشعر الشعراء.

ولم يظفر عنترة بمحبوبته ولم يتغير موقف عمه منه الذى زوج ابنته لشخص آخر، ومات شاعرنا أو قتل عزَبا، ولم تتأكد الرواية التى ذكرت أنه تزوج امرأة من بجيلة. وروى أنه سقط قتيلا سنة ٨ق.هـ (٦١٤م) فى معركة بين عبس وبين طيئ إذ قتله الأسد الرهيص حبار ابن عمرو الطائى أو أنه سقط وخرً عن فرسه، وقتله شخص آخر. وقيل إنه مات بعيدًا عن ساحات القتال قريبا من السنة المذكورة.

---

(١) انظر الأغانى ، جـ٨ ص٢٣٩ .

تميز عنترة بالعفة والمروءة والسماحة والنجدة ، فلم يكن يتعرض لمن دونه إلا دفعا للظلم والقسوة، فقد كان قادرا على الظفر بحبيبته عنوة لكنه لم يفعل، أليس هو القائل:

وأغضُّ طَرْفى ما بَدَتْ لي جارتى ∴ حتي يُوارى جارتى مأواها[1]

وقد كان واحدا من أغربة العرب وهم الشعراء الذين جاءهم السواد من قبل أمهاتهم[2]، ومنهم أيضا خُفاف بن عمير الشَريدى والسُلَيك بن عمير السعدى.

وروى أن الرسول ﷺ قد أعجب بأخبار عنترة وأنشد قوله:

ولقد أبيتُ علي الطوى وأظلُّه ∴ حتى أنالَ به كريم المأكل

فقال ﷺ : "ما وُصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة"[3].

واقتصر فى شعره على الغزل والحماسة والفخر. أما الغزل فقد توجه بأكثره إلى عبلة التى تحدث إليها . وتغنى بها فى معلقته التى سنتحدث عنها بعد قليل.

وكانت بداية قوله للشعر لا تتجاوز البيتين أو الثلاثة، إلى أن كانت المناسبة التى قال فيها معلقته فذاع صيته، وانتشر خبره، خاصة بعد موته وصيرورته تاريخا ومجدا لبنى عبس.

---

(١) الديوان، ص١٥٣ .
(٢) الأغانى، جـ٨ ص٢٤٠ .
(٣) السابق ، جـ٨ ص٢٤٣ .

ذلك أنه اتجه فى أكثر شعره إلى الحماسة ووصف المعارك والإشادة ببطولته فى العديد من أبيات الفخر، التى عبر فيها عن ذاته، وليس كغيره من الشعراء الجاهليين الذين كانوا يجهدون أنفسهم فى التغنى بأمجاد القبيلة.

أما المعلقة فهى أجود شعره، وكانت تسمى المذهّبة، واعتبرت واحدة من مسمطات العرب، قال ابن قتيبة: "وكان عنترة من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يدُه، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة حتى سابّه رجل من بنى عبس، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته، وعيرّه بذلك، وبأنه لا يقول الشعر، فقال له عنترة: والله إن الناس ليترافدون بالطُّعْمة، فما حَضرْتَ مَرْفَد الناس أنت ولا أبوك ولا جدُّك قط، وإن الناس ليُدْعون فى الغارات فيُعرفون بتسويمهم، فما رأيناك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قطُّ، وإن اللبس ليكون بيننا، فما حَضرْتَ أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيْصلٍ، وإنما أنت فَقْعٌ نَبتَ بقَرْقرٍ[1] وإنى لأحتضِر البأس وأوُفى المغنم، وأعفُّ، عن المسألة، وأجُود بما ملكت (يدى) وأفصِل الخطة الصمعاء[2] ، وأما الشعر فستعلم، فكان أول ما قال قصيدةً:

هل غادرَ الشعراءُ من متردَّمِ

(١) الفقع: الرخو من الكمأة، وهو أردؤها القرقر: الأرض المطمئنة اللينة، وهذا مثل يقال: (أذل من فقع بقرقر) لأن الدواب تدفعه بأرجلها.

(٢) الصمعاء: الماضية .

وهى أجود شعره، وكانوا يسمونها المذهبة"[١] ولا نقبل القول بأن المعلقة هى أول شعره، كما أن المناسبة الباعثة على نظم القصيدة مشوبة بالشك، إذ أن الأبيات التى سوف يتصفحها القارئ تكشف عن ألوان من السيرة الذاتية غير المقيدة بحدود الزمن، كما أن الشعر لا يتفجر ينبوعه بين عشية وضحاها، إذ لابد أن يكون عنترة قد تغنى بالكثير الذى ضاع فى غمرة البحث عن الحرية، فلم يلتفت إليه الرواة، ولم يحفل به أبطال عبس، ولم تزد مشاعرهم نحوه على مجرد العطف عليه.

ودوت شهرته ـ فيما بعد ـ فلم يعد دوره قاصرا على حماية القبيلة والدفاع عنها، وإنما صار لها شاعرا وصوتا مدويا بين القبائل.

(١) الشعر والشعراء، جـ١ ص٢٥٧، ٢٥٨ .

المعلقة(*)

- ١ -

١- هل غادرَ الشعراءُ من مُتردَّمِ ∴ أم هل عَرفْتَ الدار بَعد توهُّمِ(١)

٢- يا دارَ عبلةَ بالجواءِ تَكلَّمِي ∴ وَعِمِي صباحا دارَ عبلةَ واسْلَمِي(٢)

٣- فَوَقَفْتُ فيها نَاقَتِي وكأنها ∴ فَدَنٌ لأقضِي حاجة المُتَلوِّمِ(٣)

٤- وتحُلُّ عبلةُ بالجِوَاءِ وأهلُنا ∴ بالحَزْن فالصَّمَّان فالمُتَثَلَّمِ(٤)

٥- حُيِّيتَ مِن طللٍ تقادَم عهدُه ∴ أقْوي وأقفرَ بعدَ أُمِّ الهَيْثَمِ(٥)

٦- حَلَّتْ بأرضِ الزائرينَ فأصبحَتْ ∴ عَسِرا عَلَيَّ طِلابُك ابْنَةَ مَخْرَمِ(٦)

٧- عُلِّقْتُها عرضًا وأقْتُلُ قومَها ∴ زَعْما لَعَمْرُ أبيك ليس بمَزْعَمِ(٧)

(*) شرح المعلقات السبع للزوزنى، ص١٠٧ طبع مكتبة المعارف ــ بيروت.

(١) المتردم: من قولك ردمت الشيئ إذا أصلحته، والتوهم: الإنكار أو الظن، و(أم) استفهامية، وكُررت (هل) فى الاستفهام فصح أن تدخل عليها، أو أن "أم" بمعنى (بل)، ويجوز أن تكون (هل) بمعنى قد، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (سورة الإنسان/ ١).

(٢) الجواء: موضع، تكلمى: أخبرى، عِمِى: أنعمى (حذفت نون الفعل) عبلة: محبوبة عنترة وابنة عمه مالك بن قرادِ، أسلمى: سلمك الله.

(٣) الفَدَن: القصر، المتلوم: المتمكث، وعنى بذلك نفسه.

(٤) تحل:تنزل وتقيم،الحزْن:ما غلظ من الأرض،والصمّان والمتثلم:موضعان.

(٥) حييت: من التحية، الطلل : ما كان شاخصا من الديار مثل بقية الحائط، تقادم عهده: أى قدم العهد به وطال، أقوى: خلا، وأقفر مثل أقوى فى المعنى، وجمع بينهما للتأكيد، أم الهيثم: كنية عبلة.

(٦) حلت: نزلت، الزائرون: الأعداء، عسرا خبر أصبحت، وطلابك اسمها وابنة مخرم: منادى، ومخرم: اسم رجل.

(٧) علقتها: أحببتها ، عَرَضا: فجأة من غير قصد، وعَمر وعُمر (بفتح العين فى الأولى وضمها فى الثانية): حياة، ويستعمل الأول فى القسم، زعما: طمعا.

٨- ولقد نزلْتِ فلا تظنّي غيرَه ∴ مِني بمنْزِلة المحبِّ المُكْرَمِ[١]

٩- كيف المَزارُ وقد تربّعَ أهلُها ∴ بعُنيْزَتَين وأهلُنا بالغَيْلَمِ[٢]

١٠- إنْ كنتِ أزْمَعْتِ الفِراقَ فإنما ∴ زُمَّتْ رِكابكُم بليلٍ مُظلمِ[٣]

١١- ما راعني إلا حَمُولَةُ أهلِها ∴ وَسْطَ الديارِ تَسَفُّ حبَّ الخِمْخِمِ[٤]

١٢- فيها اثنتانِ وأربعونَ حلُوبةً ∴ سُودا كخَافِيةِ الغُراب الأسْحَمِ[٥]

- ٢ -

١٣- إذ تَسْتَبيك بذي غُروبٍ واضحٍ ∴ عَذْبٍ مُقَبَّلُةُ لَذيذِ المَطْعَمِ[٦]

١٤- وكأنَّ فارةَ تاجرٍ بقَسِيمةٍ ∴ سَبَقَتْ عوارضَها إلَيْكَ مِن الفَمِ[٧]

١٥- أو رَوْضةً أُنُفًا تضمَّنَ نبْتَها ∴ غيثٌ قليلُ الدِّمْنِ ليسَ بمَعْلَمِ[٨]

---

(١) الباء فى قوله (بمنزلة) متعلق بمصدر محذوف تقدير (نزول).

(٢) المزار: الزيارة (مصدر) والمراد مكان الزيارة، تربع أهلها: أقاموا زمن الربيع، العنيزتان ، والغيلم: موضعان .

(٣) الإزماع : توطين النفس على الشئ ، زمت ركابكم: شدت الإبل بالأزمة.

(٤) راعنى: أفزعنى، الحمولة: الإبل التى تطيق أن يُحمل عليها، وسْط بتسكين السين ــ طرف، وبالفتح: اسم لما بين طرفى الشيئ، وقيل: يقع كل منهما موقع الآخر، تسف: تأكل، الخمخم: نبت تأكله الإبل.

(٥) الحلوبة: المحلوبة، أو جمع الحلوب، الخوافى: أواخر ريش الجناح مما يلى الظهر، الأسحم: الأسود .

(٦) تستبيكك تذهب بعقلك وتأسرك، ذو غروب: ذو تحديد، وغرب كل شئ: حده، والمراد: الفم، واضح: أبيض، عذب: رائحته طيبة ، مقبله: موضع التقبيل منه: المطعم: أى طعم ريقه.

(٧) فارة: وعاء المسك، وسميت بذلك لأن الروائح تفور منها، وخص فارة التاجر، لأن مسكه أجود، قسيمة: امرأة قسيمة أى حسناء، التقسيم: التحسين، وقيل إن القسيمة هى سوق المسك أو العير التى تحمله، العوارض: منابت الأضراس، واحدها عارض.

(٨) الروضة: المكان المطمئن الذى يجتمع إليه الماء فيكثر فيه النبت، والروضة الأنف: التى لم يرعها أحد فهو أطيب لريحها، تضمن: ضَمِن ، غيث: مطر، قليل الدمن: قليل اللبث لم يدم عليها، أى أصابها مطر خفيف لم يكثر عليها

١٦- جـادَتْ عليـه كـلُّ بكْـرٍ حُـرَّةٍ ∴ فتَـركْنَ كـلَّ قَـرارةٍ كالـدِّرْهَمِ[١]

١٧- سـحّاً وتَـسْكابًا فكـلُّ عـشيةٍ ∴ يَجـرى عليهـا المـاءُ لم يَتـصرَّمِ[٢]

١٨- وخَلا الذبابُ بها فلـيسَ ببَـارحٍ ∴ غَـرِدًا كفِعـلِ الـشاربِ المُتَـرنِّمِ[٣]

١٩- هَزِجًـا يَحُـكُّ ذراعَـه بذراعِـهِ ∴ قَـدْحَ المُكِـبِّ علـى الزِّنَـادِ الأجْـذَمِ[٤]

٢٠- تُمْسِى وتُصبحُ فوق ظهـر حَشِيَّةٍ ∴ وأبيـتُ فـوقَ سَـراةِ أدْهَـمَ مُلْجَـمِ[٥]

٢١- وَحَشيَّتى سَرْجٌ على عَبْل الشَّوَى ∴ نَهْـدٍ مَراكِلُـهُ نَبيـلِ المَحْـزِمِ[٦]

- ٣ -

٢٢- هـل تُبْلِغَنِّـى دارَهـا شَـدَنِيَّةٌ ∴ لُعِنـتْ بمحـرومِ الـشراب مُـصَرَّمِ[٧]

وهو أطيب لرائحتها، والدمن جمع دمنة وهى السرجين (الزبل)، ليس بمعلم: ليس بمكان معروف.

(١) جادت: جاءت بمطر جود (كرم) ، والضمير فى (عليه) لموضع الروضة، البكر: السحابة تكون فى أول الربيع عند بدايات المطر، الحرة: البيضاء الخالصة القرارة: الحفرة أو الموضع المطمئن من الأرض.

(٢) السح: الصب، والتسكاب: مثله ، وكل عشية: منصوب على الظرفية، لم يتصرم: لم ينقطع.

(٣) البراح: الزوال، وليس ببارح أى ليس بزايل، غردا: مصوتا مترنما يرجع الصوت بينه وبين نفسه .

(٤) هزجا: مصوتا، يحك ذراعه بذراعه أى يمرر إحداهما على الأخرى، القدح: منصوب على المصدر، المكب: الذى أكب على الزناد، أو المقبل على الشيئ، الأجذم: الناقص اليد .

(٥) تمسى وتصبح أى عبلة، حشية: فراش وطِيئ حشى بقطن أو غيره ، السراة: أعلى الظهر، وسراة كل شئ: أعلاه .

(٦) العبل: الغليظ، الشوى: الأطراف والقوائم، النهد: الممتلئ الجنبين، المراكل: جمع مركل وهو موضع الركل أى (الضرب بالرِّجل) النبيل: السمين، المحزم: موضع الحزام من جسم الدابة .

(٧) شدنية: ناقة منسوبة إلى شَدَن بالتحريك وهو حى من اليمن، لعنت: دعاء عليها بأن تحرم اللبن، ويجوز أن يكون غير دعاء، وأصل اللعن: البعد، محروم الشراب: محروم اللبن، مصرم: مقطع أى ضرع لا لبن فيه .

٢٣- خَطَّـارَةٌ غِـبَّ الـسُّرَى زَيافـةٌ ∴ تَطِـسُ الإكـامَ بوَخْـدِ خُـفٍّ ميْـثِمِ[١]

٢٤- وكأنَّمـا تَطِـسُ الإكَـامَ عَـشيَّةً ∴ بقريـبِ بَـيْنَ المَنْـسمَيْنِ مُـصَلَّمِ[٢]

٢٥- تَأوِى له قُلُصُ النَّعام كما أوَتْ ∴ حِـزَقٌ يمَانِيَـةٌ لأعْجَـمَ طِمْطِـمِ[٣]

٢٦- يَتْـبَعْنَ قُلَّـةَ رأسـه وكأنـه ∴ حِـدْجٌ علَـى نَعْـشٍ لهُـنَّ مُخَـيَّمِ[٤]

٢٧- صَعْلٍ يعودُ بذِى العُشَيْرَةِ بيضَه ∴ كالعَبْـد ذى الفَـرْو الطويـل الأصْلَمِ[٥]

٢٨- شَربتْ بماء الدُّحْرُضَيْنِ فأصْبحتْ ∴ زَوْراءَ تنفِـرُ عـن حِيـاض الـدَّيْلَمِ[٦]

٢٩- وكأنَّما تَنْـأى بجانـب دَفِّهـا الْـ ∴ وَحْـشِيِّ مـن هَـزِجِ العـشِيِّ مُـؤَوَّمِ[٧]

٣٠- هِـرٍّ جنِيـبٍ كلمـا عطَفَـتْ لـه ∴ غَـضْبَى اتَّقاهـا باليـدينِ وبـالفَمِ[٨]

---

(١) خطارة: تخطر بذنبها أى تحركه وتضرب به عجزها، وتفعل ذلك لنشاطها، غب السرى: بعد السرى: زيافة: مسرعة متبخترة، تطس: تـضرب بـشدة، الإكام: جمع أكَمة وهى كل رابية مرتفعة عن وجه الأرض، الوخـد: الـسير السريع، خف ميثم: خف شديد الوطء فكأنه يثم الأرض أى يدقها .

(٢) المنسمان: الخفان، والظليم هو القريب ما بين المنسمين أى (النعام) ، مصلم: ليست له أذن ظاهرة .

(٣) القلص: جمع قلوص وهى الأنثى الشابة من النعـام، الحـزق: الجماعـات والواحدة حزقة، أعجم: أراد به الحبشى، طمطم: لا يفصح.

(٤) الضمير فى يتبعن (للنعام) وقلة رأسه أى أعلى رأس الظليم، الحِدج: مركب من مراكب النساء يسمى الهودج، مخيم: مجعول خيمة .

(٥) الصعل: ذكر النعام الصغير الرأس، يعود: يتعهد ويأتى إلى بيضه، ومنـه عدتُ المريض: ذو العشيرة: موضع، الأصلم: المقطوع الأذنين، والظلمـان كلها صلم أى لا آذان لها.

(٦) الدحرضان: اسم موضع، زوراء: عوجاء من النشاط: حياض الديلم: ميـاه لبنى سعد، وقيل الديلم: الأعداء، أو الجماعة، أو الظلمة أو الداهية .

(٧) تنأى: تبعد، الدف: الجنب، الدف الوحشى: الجانب اليمين، وسـمى وحـشيا لأنه لا يركب ولا يُجلب منه، الهزج: الصوت، والمرادِ بهزج العشيى: الهـر العظيم المشوه الخلق أو العظيم الرأس.

(٨) الجنيب: المجنوب، اتقاها: استقبلها .

٣١- بَرَكتْ على جَنْب الرّدَاعِ كأنما ∴ بَرَكت على قَصَبٍ أجَشَّ مَهَضَّم[(١)]

٣٢- وكأنّ رُبًّا أو كُحَيْلا مُعْقَدا ∴ حَشَّ الوقودُ به جوانبَ قُمْقُم[(٢)]

٣٣- يَنْباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ ∴ زيّافةٍ مثلَ الفنيقِ الُمكْدَم[(٣)]

- ٤ -

٣٤- إنْ تغْدِفى دُونى القِناعَ فإننى ∴ طَبٌّ بأخذِ الفارسِ المستَلْئِم[(٤)]

٣٥- أثْنِى علىَّ بما عَلِمْتِ فإنّنى ∴ سَمْحٌ مُخَالَفَتِى إذا لمْ أُظْلَم[(٥)]

٣٦- وإذا ظُلمت فإن ظُلْمِىَ باسل ∴ مُرٌّ مذاقتُه كطعم العَلْقَم[(٦)]

٣٧- ولقد شَرِبْت من الُمدامةِ بعدما ∴ رَكَدَ الهواجُر بالَمشُوف الُمعْلَم[(٧)]

---

(١) الرداع: موضع ماء لبنى سعد، الأجش الذى فى صوته بحة، المهضم: المكسر .

(٢) الرب: الطلا، الكحيل: القطران، المعقد الذى أوقد تحته حتى انعقد وغلظ، حشى بمعنى احتشى أى اتقد، الوقود: الحطب، القمقم: القدر الصغير .

(٣) ينباع: يتبع، الذفرى: خلف الأذن، الجسرة: الناقة الموثقة الخلق الماضية فى سيرها، الزيافة: المسرعة، الفنيق: الفحل، المكدم: المعضوض .

(٤) تغدفى: ترخى، القناع: يقال ضرع مقنع إذا كان عاليا، الطب: الحاذق، المستلئم: اللابس الدرع .

(٥) الثناء: ما تصف به الإنسان من مدح أو ذم، وخص بعضهم به المدح: وجزم الكثيرون بعموم الثناء فى الخير والشر، واستدلوا بالحديث: "من اثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن اثنيتم عليه شرا وجبت له النار (هامش شرح المعلقات العشر للتبريزى ص٢٣٢) المخالقة: مفاعلة من الخلق وهى بمعنى المخالطة.

(٦) الباسل: الكريه، رجل باسل: شجاع . ويقال للحلال بَسْل وللحرام بَسْل، العلقم: الحنظل .

(٧) المدامة: الخمر، وسميت بذلك لطول إقامتها فى الدن، ركد: ثبت وسكن، الهواجر: جمع الهاجرة وهى أشد الأوقات حرا (الظهيرة) وركود الهواجر: أى حين ركدت الشمس ووقفت، وقام كل شيئ على ظله، المشوف: المجلو وهو الدينار أو الدرهم أو البعير المهذوء أو الكأس.

٣٨- بزُجاجــةٍ صــفراءَ ذاتِ أسِــرَّةٍ ∴ قُرِنــتْ بــأزهرَ فــي الــشَّمالِ مُفــدَّم[١]

٣٩- فــإذا شَــرِبْتُ فــإنني مُــستهلِكٌ ∴ مــالي وعِرْضـــي وافــرٌ لم يُكْلَــم[٢]

٤٠- وإذا صحَوتُ فما أُقصِّر عن نَـدىً ∴ وكمــا عَلِمْــتِ شمــائلي وتكرُّمــي[٣]

٤١- وحَليــلِ غَانيــةٍ تَركــتُ مُجــدَّلا ∴ تَمكُــو فريــصتُه كــشِدْقِ الأعْلَــم[٤]

٤٢- سَبَقَتْ يَـداي لـه بعاجـلِ طعنـةٍ ∴ وَرَشَــاش نافــذةٍ كَلَــوْن العَنْــدَم[٥]

٤٣- هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنـةَ مالـكٍ ∴ إن كانــتِ جاهلــةً بمــا لمْ تعلَمــي[٦]

٤٤- إذْ لا أزالُ علــى رِحَالَــةِ ســابحٍ ∴ نَهْــدٍ تعــاوَرُهُ الكُمــاةُ مُكلَّــم[٧]

٤٥- طَــوْرا يُجــرِّدُ للطِّعــان وتــارةً ∴ يــأوى إلى حَــصْدِ القــسيِّ عَرَمْــرَم[٨]

---

(١) أسرة: طرائق وخطوط، والمفرد سر (بالضم) وسِر (بالكسر)، أزهر: إبريق من فضة أو نحاس، مفدم: مشدود فمه بخرقة، أو عليه الفِدام يصفى به.

(٢) العِرض: موضع المدح والذم من الرجل، والواو للحال فى قوله (وعرضى) لم يكلم: لم يجرح، وأصل الكلم: الجرح بمعنى التأثير فى الدين أو العرض.

(٣) صحا يصحو إذا أفاق من سكره، الندى: السخاء، الشمائل: الأخلاق.

(٤) الحليل: الزوج، الغانية: المرأة المستغنية بجمالها أو بزوجها أو ببيت أبيها أو الشابة، مجدلا: ملقى على الجدالة وهى الأرض، تمكو: تصفر، فريصته: الموضع الذى يرعد من الدابة أو الإنسان عند الخوف، وقيل لحمة فى وسط الجنب عند منبض القلب، وجمعها فرائص الأعلم: مشقوق الشفة العليا.

(٥) سبقت : عجلت، الرشاش: ما تطاير من الدم، النافذة: الطعنة التى نفذت إلى الجانب الآخر أو نفذت إلى الجوف، العندم: صبغ أحمر.

(٦) الخيل: أى أصحاب الخيل.

(٧) الرحالة: السرج، السابح الذى يدحو بيديه دحوا، النهد: الغليظ، تعاوره: محذوف التاء وأصله تتعاوره أى تتداوله، الكماة: جمع كَمِى وهو الشجاع، وسمى بذلك لأنه يكمى شجاعته لوقت حاجته، مكلم من الكلم وهو الجرح.

(٨) طورا: تارة وتارة بمعنى مرة، وترّ الشئ، سقط وأتررته: أسقطته، حَصَدَ الشئ حصدا إذا استحكم، والإحصاد: الإحكام. القسى الأقواس، العرمرم: الكثير.

٤٦- يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعةَ أنني ∴ أغْشَى الوغى وأعِفُّ عند المَغْنَم[١]

٤٧- ومُدَجَّجٍ كره الكُماةُ نِزَالَه ∴ لا مُمْعنٍ هرَبا ولا مُسْتَسْلِم[٢]

٤٨- جادتْ له كَفِّي بعَاجِلِ طعنةٍ ∴ بمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعوب مُقَوَّم[٣]

٤٩- فَشَكَكْتُ بالرمح الأصمِّ ثِيَابه ∴ ليس الكريمُ على القَنا بمُحرَّم[٤]

٥٠- فتركتُه جَزَرَ السِّباع يَنُشْنَه ∴ يَقْضُمْنَ حسنَ بنانِه والمِعْصَم[٥]

٥١- ومِشَكٍّ سابغةٍ هتكتُ فروجَها ∴ بالسيف عن حَامِي الحقيقةِ مُعْلِم[٦]

٥٢- رَبِذٍ يداه بالقِدَاح إذا شَتَا ∴ هتَّاكِ غاياتِ التِّجَارِ مُلَوَّم[٧]

٥٣- لما رآني قد نزلْتُ أريدُه ∴ أبْدى نواجِذَه لغير تبسُّم[٨]

---

(١) الوقيعة: المعركة، أغشى الوغى: آتى الحرب، المغنم: الغنيمة.

(٢) المدجج : المتغطى بالسلاح، الإمعان: الإسراع فى الشيئ والغلو فيه، الاستسلام: الانقياد والاستكانة.

(٣) بعاجل طعنة: قدم الشاعر الصفة على الموصوف، ثم أضافها إليه، المثقف: المصلح المقوم، الصدق: الصلب: الكعوب: عقد الأنابيب، المقوم: الذى قوم وسوى.

(٤) شككت: شققت، الأصم: الصلب، ثيابه: درعه أو قلبه، قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أى قلبك، الكريم: الشجاع، القنا: الرماح.

(٥) الجزر: جمع جزرة وهى الشاة التى أعدت للذبح ، النوش: التناول.

(٦) المشك: السير الذى يجعل فى جيب الدرع ، أو الدروع التى شك بعضها إلى بعض، أو المسامير التى تكون فى حلق الدرع، والرجل المشاك: التام السلاح، سابغة: أى درع سابغة، هتكت: قطعت، فروجها: أوساطها: الحقيقة: ما يجب على المرء حفظه، المعلِم(بكسر اللام) أى الذى أعلم نفسه أى شهرها بعلامة يعرف بها فى الحرب (وبفتح اللام) الذى يشار إليه ويدل عليه.

(٧) ربذ: سريع الضرب بالقداح فى الميسر، إذا شتا: دخل فى الشتاء لأن القحط والجدب أكثر ما يكون فى الشتاء، أو لأنهم يكثرون الميسر فيه، غايات التجار: رايات الخمارين، ملوم: الذى يكثر لومه على إنفاقه المال.

(٨) النواجذ: الأسنان التى تبدو عند الضحك، وأبدى نواجذه: كشر عن أنيابه من الخوف.

٥٤- عهْـدِي بـه مَـدَّ النَّهـارِ كأنما ∴ خُـضِبَ البَنَـانُ ورأسُـه بـالعِظْلِمِ[١]

٥٥- فطعنْتُـه بـالرمحِ ثـم علوْتُـه ∴ بمُهنَّـدٍ صَـافي الحديـدةِ مِخْـذَمِ[٢]

٥٦- بطـلٍ كـأن ثيابَـه فـي سَـرْحةٍ ∴ يُحـذَى نِعَـالَ الـسبتِ لـيس بتَـوْأمِ[٣]

٥٧- يا شـاةَ مـا قَـنَصٍ لِمَن حلّتْ لـه ∴ حَرُمـت علـيّ وليْتَهـا لم تَحْـرُمِ[٤]

٥٨- فبعثْتُ جَاريتي فقلتُ لها اذهبي ∴ فتجسَّـسي أخبارَهـا لي واعْلَمـي[٥]

٥٩- قالت رأيـتُ مـن الأعـاديي غِـرَّةً ∴ والـشاةُ ممكنـةٌ لِمـن هـو مُـرْتَمِ[٦]

٦٠- وكأنّمـا التفتـتْ بجيـدِ جَدَايـةٍ ∴ رَشـأٍ مـن الغـزْلان حُـرٍّ أرثـمِ[٧]

٦١- نُبِّئتُ عَمْرا غيرَ شـاكرِ نعمتـي ∴ والكفـرُ مَخْبثـةٌ لـنفسِ المُـنْعِمِ[٨]

- ٥ -

٦٢- ولقد حَفِظْتُ وَصَاةَ عَمِّيَ بالضُّحى ∴ إذ تَقْلِصُ الـشفتانِ عـن وَضَـحِ الفَـمِ[٩]

---

(١) العهد: اللقاء، مد النهار: طوله أو أوله، خُضب: سبغ، البنان: الأصابع وأقيمت الألف واللام فيها مقام الهاء أى كأنما خضبت بنانه، العظلم: نبت يختضب به.

(٢) المهند: السيف المصنوع فى الهند، المخذم: السريع القطع.

(٣) بطل: شجاع . والكلمة بالجر راجعة إلى متقدم مجرور، ويروى بالرفع أى هو بطل، السرحة: الشجرة العظيمة، وفى سرحة أى على سرحة، السبت: جلد مدبوغ جيد النوع، وكانت الملوك تلبسها، ليس بتوأم: لم يولد معه غيره فيكون ضعيفا.

(٤) الشاة: كناية عن المرأة (ما) صلة زائدة، القنص: الصيد، حلت لـه: تقدر عليها، حرمت على، لأنها جارة له من قوم أعداء، أو أنها امرأة أبيه.

(٥) فتجسسى (فى رواية) فتحسسى .

(٦) قالت: أى الجارية، الأعادى جمع الجمع (عدو ـ أعداء ـ أعاد ـ وأعادى) غرة: غفلة، الشاة: يقصد المحبوبة، مرتم: يصطاد ويأخذ.

(٧) الجيد: العنق، الجداية: ولد الظبية، الرشأ: الصغير الذى قوى من أولاد الظباء، الغزلان: جمع الغزال، حر: أبيض، أرثم: الذى فى شفته العليا بياض.

(٨) نبئت: يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، وعمرو: شخص ما.

(٩) وصاة ووصية بمعنى واحد، بالضحى: أى وقت الضحى، تقلص: تنقبض حتى يُرى الإنسان كأنه يبتسم، وضح الفم: الأسنان.

٦٣- فى حَوْمَةِ الحَربْ التى لا تَشتكى ∴ غمراتِهــا الأبطــالُ غــيرَ تَغَمْغَــم[١]

٦٤- إذ يتّقــون بــىَ الأسـنَّةَ لمْ أخِـمْ ∴ عنهــا ولكنِّــى تــضايقَ مُقْــدَمِى[٢]

٦٥- لما رأيـتُ القـومَ أقبـل جمعُهـم ∴ يتــذامَرُون كــررْتُ غــيرَ مــذمَّم[٣]

٦٦- يـدعُون عـنترَ والرمـاحُ كأنهـا ∴ أشــطانُ بئــرٍ فــى لَبَــان الأدْهَــم[٤]

٦٧- ما زلـتُ أرمِـيهم بثُغْرة نحـرِهِ ∴ ولَبَانِــه حتــى تــسرْبَلَ بالــدَّم[٥]

٦٨- فـازورّ مـن وَقـعِ القَنـا بلَبَانـه ∴ وشــكا إلىَّ بعَبْــرة وَتَحَمْحُــم[٦]

٦٩- لو كان يَدرى ما المحاورةُ اشتكى ∴ ولَكــان لــو عِلــم الكــلامَ مُكلِّمــى[٧]

٧٠- ولقد شَفَى نفسى وأذهَب سُقْمَها ∴ قيــلُ الفــوارسِ ويْــكَ عــنترَ أقْــدِمِ[٨]

٧١- والخيلُ تقتحِمُ الخَبَار عوابِسا ∴ مــن بــينِ شَــيْظَمَةٍ وآخــرَ شَــيْظَم[٩]

---

(١) حومة الحرب: معظمها، غمراتها: شدائدها، التغمغم: صوت يسمع ولا يفهم منه شيئ٠

(٢) يتقون بى الأسنة: يجعلوننى بينهم وبينها، فالاتقاء: الحجز بين الشيئين، لم أخم: لم أجبن ولم أضعف، المُقدم: موضع الأقدام ٠

(٣) يتذامرون: يحض بعضهم بعضا على القتال، غير مذمم: محمود القتال، غير مذمومه٠

(٤) الأشطان: حبال البئر التى يستقى بها، والمفرد (شطن) بفتحتين) اللبان: الصدر، الأدهم: الفرس٠

(٥) الثغرة: الثقب فى أعلى النحر، تسربل: صار له سربال من الدم وهو القميص٠

(٦) أزور: تمايل، التحمحم: من صهيل الخيل، وما كان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له٠

(٧) المحاورة: المراجعة فى الكلام٠

(٨) شفى نفسى: أى اشتفيت، ويك (وى) : كلمة يقولها المتندم إذا تنبه على ما كان منه٠

(٩) الاقتحام : الدخول فى الشيئ بسرعة، الخبار: الأرض اللينة (فى رواية الغبار)، العوابس: الكوالح من الجهد، الشيظمة: الفرس الطويلة٠

٧٢- ذُلُلٌ رِكابى حيثُ شِئتُ مشايعى ∴ لُبِّى واحفِزُهُ بأمرٍ مُبْرَمِ[1]

٧٣- ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تُدرْ ∴ للحربِ دائرةٌ على ابْنَى ضَمْضَمِ[2]

٧٤- الشاتِمى عِرضى ولم أشتِمْهُما ∴ والناذِرَيْنِ إذا لم ألقَهُما دَمِى[3]

٧٥- إن يفعلا فلقد تركتُ أباهُمَا ∴ جَزَرَ السِّباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ[4]

إيضاح الأفكار:

أولا: (الأبيات من الأول إلى الثانى عشر فى الوقوف على الأطلال):

يخاطب الشاعر نفسه متسائلا فيقول: لم يطرق الشعراء شيئا إلا سُبقوا إليه، وهل عرفت دار محبوبتك بعد شكك فيها؟ وينادى دار عبلة لتخبره عما حل بأهلها، ويحييها، ويدعو لها بطيب العيش والسلامة. وقد حبس ناقته بدار محبوبته، ليخفف من حدة جزعه على فراقها، وهى تقيم بالجواء (اسم موضع) وأهله نازلون بأمكنة أخرى وهى (الحزن ـ الصمان ـ المتثلم).

ويحيى طلل عبلة من بين الأطلال، أى أنه خصه بالتحية من دونها، حيث طال العهد به فتغير بعد ارتحال محبوبته عنه، وأقامت بأرض أعدائه فعسر عليه طلبها، وأنه قد أحبها وعشقها من غير قصد

(١) ذلل: جمع ذلول أى غير صعب، الركاب: الإبل، مشايعى، معاونى، أى أن عقله لا يغرب عنه، أحفزه: أدفعه، مبرم: محكم.
(٢) الدائرة: الحادثة التى تدور على الإنسان من خير أو شر، ابنا ضمضم: هما هرم وحصين، وكانا يكرهان عنترة، وقد قتل أباهما ضمضما، وقتلهما ورد ابن حابس العبسى.
(٣) الشاتمى عرضى أى اللذان شتما عرضى، نذرت النذر: أوجبته على نفسك.
(٤) جزر السباع: لحما مقتولا للسباع كى تأكله، القشعم: الكبير من النسور.

منه، حيث نظر إليها، فتعلق بها مع ما بينه وبين قومها من القتال، فكيف يحبها ويقاتل أهلها؟ ولكن ذلك ليس بطبعه ولا يتأتى منه، إذ لا يمكن له أن يظفر بها مع ما بين الحيين من القتال.

ولقد نزلت من قلبه منزلة من يحب ويكرم فلا ينبغي أن تظن غير ذلك، ويتساءل: كيف يزورها وقد أقام أهلها بزمن الربيع فى هذا الموضع، (عنيزتين) بينما أقام أهله بموضع آخر (الغيلم)، وبينهما مسافة بعيدة.

وإذا كانت محبوبته قد هيأت نفسها على الفراق فإن الاستعداد له قد حدث فى ليل مظلم. ولم يفزع الشاعر إلا باستفاف الإبل لحب الخمخم وسط الدار، فأنذر برحيلها بعد انقضاء مدة الانتجاع فى الربيع، وفى وسط هذا الجو الموحى بالقحط يذكر أن لدى أهل معشوقته اثنتين وأربعين ناقة تدر اللبن، وهى من أنفس الإبل وأعزها، وسوداء مثل ريش الغراب الأسود.

ثانيا: (**الأبيات من الثالث عشر إلى الحادى والعشرين فى وصف المحبوبة**) :

ذكر الشاعر أن محبوبته قد أذهبت عقله بما لديها من ثغر محدد واضح، يستعذب تقبيله ويستلذ طعم ريقه، وإن رائحة فمها تشبه ريح المسك، إذا أردت تقبيلها، أو أنها مثل روضة لم ترع بعد أن نزل عليها مطر (نظيف) أو لم يطل مكثه فيها، وهذه الروضة ليست فى مكان معروف، فيقصدها أحد فتنتقص نضرتها وطيب رائحتها، وقد

نزل على هذه الروضة مطر نقى جعل المواضع المطمئنة فيها (كالحفر) جعلها كالدرهم فى الاستدارة وبياض الماء وصفائه، ويسقط المطر على الروضة بغزارة، ويجرى عليها الماء كل عشية بلا انقطاع.

وخلا الذباب (النحل) بالروضة فلا يزول عنها، ويصوت تصويت شارب الخمر المترنم بها، ويحدث صوتا عندما يحك إحدى ذراعيه بالأخرى مثل قدح الرجل الناقص اليد النارَ من الزندين . وتحيا عبلة فوق الحشايا بينما يبيت الشاعر فوق الفرس يقاسى شدائد الأسفار والاغتراب.

ثالثا: (**الأبيات من الثانى والعشرين إلى الثالث والثلاثين عن وصف الناقة**) :

يود الشاعر أن تبلغه دار المحبوبة ناقة صلبة قوية لم تضعف بالحمل والولادة وإدرار اللبن، وتسير نشيطة تضرب الأرض فى سرعة بأخفاف قوية، وتكاد تكسر الروابى المرتفعة لشدة وطئها الأرض عشية، بعد سرى الليل، وأنها تشبه الظليم القريب ما بين المنسمين، الأصلم الذى ليست له أذن ظاهرة.

وتأوى إلى هذا الظليم صغائر النعام كما تأوى الإبل اليمانية إلى رجل حبشى لا يفصح، وتتبع النعام أعلى رأس الظليم وكأنه مركب من مراكب النساء الذى له خيمة على مكان مرتفع، وذلك حتى لا تنحرف عنه.

وذكر أن الظليم الصغير الرأس عندما يأتى إلى بيضه يشبه الراعى الأسود الذى يلبس فروا ولا أذن له.

وقال عنترة: إن الناقة قد شربت من ماء الدحرضين فأصبحت عوجاء مائلة تبتعد عن مياه أخرى، وكأنها تنحى الجانب الأيمن منها خوفا من هر عظيم ذى رأس كبيرة قبيحة، وكلما انصرفت إلى الهر لتعقره أنقذ نفسه منها بالخدش باليدين والعض بالفم، ولما بركت عند ماء الرداع أحدثت صوتا وكأنها بركت على أعواد قصب مكسر، أو أحدثت صوتا كأنه أصوات مزامير، وشبه ماء العرق بقطران أشعل الوقود فى جوانب القمقم، ويخرج العرق من خلف أذن الناقة الموثقة الخلق المسرعة مثل الفحل الذى كدمته فحول الإبل أى أنه شبهها بالفحل فى التبختر والضخامة ومتانة الخَلْق.

رابعا: (الأبيات من الرابع والثلاثين إلى الحادى والستين فى الفخر والحماسة):

توجه الشاعر بكلامه إلى محبوبته فقال: لا ينبغى لك أن تستترى عنى وتزهدى فى، لأننى شديد البأس ولا أعجز عن صد الفرسان الدارعين، وأستحق أن تثنى على بما علمت عنى، إذ أننى سهل المخالطة، إذا لم يُهضم حقى، وإذا ظلمت فإننى أرد بظلم كريه مر على من ظلمنى وأعاقبه عقابا يستحقه.

وقال إنه شرب الخمر وقت الظهيرة بالدنانير الناصعة المجلوة، وإنه شربها فى زجاجة صفراء ذات خطوط، ومعها إبريق مسدود الرأس للصب منه فى الزجاجة.

وإنه يشرب الخمر وينفق المال مع حفاظه على عرضه وكرامته، أى أن سكره يدفعه إلى مكارم الأخلاق، ويكفه عن المثالب، وأنه في صحوه من السكر لا يقصر عن الكرم، أى يفارقه السكر، ولا يفارقه الجود . وقد جمع فى البيتين (٣٩، ٤٠) بين السخاء في السكر والصحو.

وتحدث عن شجاعته فذكر أنه قادر على البطش بزوج امرأة مستغنية بجمالها، وإلقائه على الأرض تنزف الدماء من جنبه، وهي تصفر كخروجها من شدق رجل مشقوق الشفة العليا، أو أن صوت نزيف الدم كصوت النفس من شدق ذلك الرجل، وأن يدى الشاعر الفارس قد أسرعت بطعنه طعنة تطاير الدم معها كأنه لون العندم.

ويحض عنترة محبوبته على سؤال الفوارس أصحاب الخيل عما لم تعلمه إن كانت تجهل حاله ومنزلته، فهو لا يتخلف عن سرج فرس سابح ضخم تداول الأبطال جرحه، أى فرس قتال جرحه كل الأبطال، ويجرده أحيانا لطعن الأعداء، وأحيانا ينضم به إلى قوم رماة محكمي القسي كثيري العدد.

وإذا سألت محبوبته من شهدوا الحروب معه فسوف يخبرونها أنه يدخل المعارك بشجاعة، ويتعفف عن جمع الغنائم أى أنه شجاع كريم.

ورب رجل كانت الأبطال تكره نزاله لا يمعن فى الهروب ولا يستسلم للأعداء جادت له يد عنترة بطعنة عاجلة برمح مقوّم صلب الكعوب وأنفذ الرمح الصلب فى ثيابه أو قلبه، وأن كرم ذلك الرجل لا

يخلصه من القتل، وجعله طعاما للسباع، لتنهش لحمه، وتقضم حسن أصابعه ومعصمه، وأنه هتك أوساط درع واسعة بالسيف عن رجل حام للحقيقة فى الحرب، فكيف الحال مع غيره؟ وأن حامى الحقيقة سريع الضرب بقداح الميسر شتاء، وأنه يأتى الخمارين فيشترى كل ما عندهم من الخمر فيعلقون راياتهم ويذهبون.

ولما رأى الرجل الحامى الحقيقة عنترة ينزل عن فرسه خاف منه وظهرت أنيابه من الخوف.

وأتاه الشاعر، وأجهز عليه فبدا – طول النهار وبعد جفاف الدم عليه – بدا مصبوغ الأصابع والرأس باللون الأحمر، وطعنه عنترة حين ألقاه من على ظهر فرسه، واعتلاه بسيف صافى الحديد سريع القطع.

ويصف الرجل الذى قضى عليه بأنه طويل القامة كأن ثيابه ألبست شجرة عظيمة من طول قامته، وأنه يرتدى نوعا من النعال لا تلبسه إلا الملوك، وقد ولد ونشأ قويا إذ لم يولد معه آخر.

ويذكر الشاعر امرأة جارة له محرمة عليه بسبب ما بينه وبين قومها من عداوة، وهى حل لمن ظفر بها، وليتها لم تُحرم على الشاعر، وبعث بجارية إلى محبوبته لتتعرف أخبارها له، وعادت فقالت: إن الأعداء غافلون عنها، وإن زيارتها ممكنة لمن طلبها؛ لغفلة الرقباء، والتفتت إليه، ولها عنق يشبه عنق ظبى فى شفته العليا بياض.

وقطع الشاعر البيت (الحادى والستين) عما قبله، فقال: إنه أخبر بجحود (عمرو) لنعمته، وكفران النعمة ينفر المنعم عن الإنعام.

خامسا: (**الأبيات من الثانى والستين إلى الخامس والسبعين فى وصف الحرب**) :

استمع الشاعر إلى وصية عمه له بضرورة اقتحام القتال فى أشد أحوال الحرب، عندما تنكشف أسنان الأبطال من هول القتال . وحفظ وصيته فى ساحة القتال الذى لا يشتكى الأبطال منه إلا بصياح وجلبة.

وعندما جعله أصحابه حاجزا بينهم وبين أسنة أعدائهم لم يجبن ولم يتأخر، ولكن تضايق موضع أقدامه فتأخر لذلك . ولما رأى الأعداء مقبلين يحض بعضهم بعضا على قتال قومه اندفع نحوهم محمودا غير مذموم.

وكان قومه يطلبونه وينادون عليه حين أشرعت الرماح عليه، وأصابت صدر فرسه، تلك الرماح التى تشبه حبال البئر لطولها ، واستمر يرمى الأعداء بنحر فرسه حتى تلطخ بالدم، وصار كأنه سربال له، ولما أوقع الأعداء الرماح على الفرس تمايل واشتكى بالدمع والصوت المتقطع، ولو قدر على المحاورة والكلام لاشتكى مما ألم به وأصابه من الجروح.

ولقد شفيت نفسه مما ألم بها بسبب قول أصحابه له: ويلك يا عنترة، تقدم نحو الأعداء، أى أن دعوة الفوارس له بالتقدم أبرأت نفسه وأذهبت الغم عنه.

والخيل تسير بسرعة، مقتحمة الأرض اللينة، عابسة لما نالها من الإعياء، ولا تخلو من فرس طويلة، وتنقاد إبله أو ناقته له إلى حيث يوجهها بما يرغبه عقله، ويمضى بإحكام إلى حيث يريد، وخشى عنترة أن يموت دون أن تدور دائرة الحرب على هرم وحصين ابنى ضمضم، اللذين يشتمانه وينذران سفك دمه فى حال غيبته، ولا يتجاسران عليه أثناء حضوره، وإن أهدرا دمه فلقد قتل أباهما وجعل لحمه طعاما للوحوش.

ملامح التعبير والتصوير:

تعرض معلقة عنترة للعديد من القضايا التى شَغلت شعراء العصر الجاهلى، والنقاد الذين جاءوا بعد ذلك، كالحديث عن الطلل وعلاقة الشاعر بمحبوبته، وطبائع الشعر البدوى، ومقدرة الشعراء الفرسان على تصوير المعارك، والفخر بالشجاعة ومكارم الأخلاق، والعلاقة بين الشعر والتاريخ إلى غير ذلك من المسائل المهمة فى درس الأدب ونقده.

ولم تتفق الروايات على الكثير من أبيات هذه القصيدة، وتراوحت أعدادها بين خمسة وسبعين بيتا، وهى الرواية التى اعتمد عليها الزوزنى فى شرحه للمعلقات السبع، وبين مائة واثنى عشر بيتا بالنظر إلى إحدى طبعات (جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام) للقرشى، وأولها عنده:

أعياكَ رسمُ الدار لم يتكلّم .:. حتى تكلَّم كالأصمِّ الأعجم

ولم يرد هذا البيت ضمن القصيدة فى معظم مصادرها ·

ولا شك فى أن القارئ المتذوق لشعر عنترة يكتشف تميزه عن سائر الشعر الجاهلى بالرقة فى الأسلوب والذاتية فى التعبير والتصوير، وسوف تتضح لنا هذه الملامح فى دراسة النص والتعليق عليه ·

ونلحظ أن الاستفهام فى البيت الأول مكرر فى الشطر الأول ومعناه النفى والإنكار، وفى الشطر الثانى ومعناه التحقيق أو التوكيد ، وتوحى كلمة (توهم) بما لحق بالدار من تغيير ، وينتقل الشاعر من الأسلوب الإنشائى الاستفهامى إلى البيت الثانى بما فيه من نداء وأمر، ونلحظ أن النداء للتمنى فى الشطر الأول، وللدعاء فى الشطر الثانى والأمر فى قوله (تكلمى) للتمنى وفى قوله (اسلمى) للدعاء، فضلا عما يكشف عنه تكراره لاسم محبوبته، مما يدلل على صدق عاطفته ورغبته فى التلذذ بذكر اسمها ·

وقد شخص الدار وأمرها بالكلام، أو أن الأسلوب من باب المجاز المرسل، ولا يكتمل المطلع بمجرد ذكره لديار محبوبته، حيث ينتقل إلى الحديث فى البيت الثالث عن الناقة التى تعد سفينة للصحراء وسبيلا إلى دار المحبوبة، وهى ليست ناقة عادية لا يؤبه لها، وإنما تشبه القصر فى عظمها وضخامة جسمها ·

وذكر الشاعر فى البيت الرابع مجموعة من المواضع، تقيم عبلة وأهلها، فى إحداها وينزل أهل عنترة فى الباقى، وكأنها صياغة تكشف عن مقابلة بين المنزلين مع أنهما ينتسبان إلى أصل واحد ·

ويرتبط الحديث عن الطلل فى البيت الخامس بالمرأة، فلا نكاد نجد فى الشعر الجاهلى أطلالا بغير امرأة، وجمع الشاعر بين الإقواء والإقفار للتأكيد.

وقال فى البيت السادس: حلت بأرض الزائرين .... فشبه توعد أهل محبوبته وتهديدهم بزئير الأسد ، ثم تحول بالأسلوب من الغيبة إلى الخطاب، وهو شائع فى الكلام، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾(١).

أما البيت السابع فقد برزت فيه ثقة الشاعر بنفسه، إذ قال: "وأقتل قومها"، وأكد الأسلوب بالقسم فى قوله: "لعمر أبيك".

وجعل فى البيت الثامن نزولها فى قلبه مثل منزلة المحب المكرم وهو تشبيه بسيط أقرب إلى السذاجة البدوية.

ويكشف البيت التاسع عن استفهام للتحسر، ومقابلة بين أهلها وأهله مع الحرص على ذكر المواضع التى ينزلون فيها.

ويكشف البيت العاشر عن عتاب خفيف من الشاعر؛ لإخفاء موعد الرحيل عنه، وقد شُدت الرحال فى ليل مظلم تتواكب إيحاءاته مع حالة الشاعر ونفسيته البائسة المضطربة.

ويعبر البيت الحادى عشر عن حزن الشاعر وحسرته، وهو يرى إبل أهل محبوبته ترعى نبات الخمخم، الذى يؤثر فى إدرار النياق للبن.

---

(١) يونس ٢٢ .

وشبه فى البيت الثانى عشر لون النوق بلون ريش الغراب الأسود، تأكيدا على نفاسة هذه الإبل.

واستعار فى البيت الثالث عشر لذة الطعم لنشوة التقبيل، أما استعمال كلمة (تستبيك) فيؤكد أن جمال عبلة كان طاغيا ومسيطرا على الشاعر.

وفى البيت الرابع عشر شبه طيب نكهتها بطيب ريح المسك، بل إن الرائحة الطيبة من فمها أسرع فى النفاذ من رائحة المسك.

وشبه فى البيت الخامس عشر الرائحة المنبعثة منها بالروضة التى لم يقصدها أحد؛ لبعدها عن العابثين وعدم معرفتها، وجاءت كلمة (روضة) نكرة لتفيد العموم، الذى يمكن أن يتصوره كل واحد عن جمالها وروعة منظرها.

وتوحى كلمة جادت فى البيت السادس عشر بأن الغيث عم كل شيئ فى الروضة أما وصف السحابة بأنها بكر حرة فيفيد ويؤكد جودة المطر، كما شبه حفرة الماء بالدرهم فى الاستدارة والصفاء.

وشخص الماء فى البيت السابع عشر، وجعله يجرى على الروضة مبتهجا بنضارتها.

والذباب فى البيت الثامن عشر هو ما نطلق عليه نحل العسل حيث يقصد الرياض المزهرة ويلتف بالورود المتفتحة فيمتص ريحقها ويحدث صوتا مطربا .

وقد شبه تصويت الذباب (النحل) بتصويت شارب الخمر، عندما يترنم بالغناء، وتلك صورة تشبيهية تمثيلية استعان عنترة فيها باللون والحركة والصوت والرائحة، التى كثف بها تصويره للطبيعة .

وصور فى البيت التاسع عشر صوت الذباب بصوت رجل مقطوع اليد يورى الزناد، وقال القدماء إن هذا من أعجب التشبيه، ولم يقل أحد فى معناه، وقيل إنه من التشبيهات العقم، التى لم يُسبق الشاعر إليها ولم يقدر أحد عليها، وقد كان حريصا على صدق التعبير حتى لو استخدم كلمة مثل (الأجذم).

ويأتى البيت العشرون ليكشف عن التنعم والرفاهية التى تعيش فيهما عبلة، دفعا لتوهم قد يظن بسبب ارتحال قومها، فقوله: "تمسى وتصبح" كناية عن هذا التنعم، وعن استمراره أيضا بالتأكيد عليه بالطباق بين الفعلين، وقد قابل كذلك بين مبيتها فوق الحشايا ومبيته فوق فرس أدهم، أى أنها تعيش فى النعيم وهو يقاسى شدائد الأسفار، ويبيت فوق ظهر الفرس الملجم، كناية عن استعداده للانطلاق دائما على فرس ذى صفات حرص الشاعر على الإشارة والتأكيد عليها فى تقديمه للصفة (أدهم) على الموصوف (ملجم).

والبيت الحادى والعشرون فى وصف الفرس، لأنه من مظاهر القوة والشجاعة ، وهو بالنسبة للبطل شئ هام ، وربما أهم من نفسه وأهله، وكثيرا ما كان يضفى عليه صفة إنسانية فيجعله يستجيب له ويشير عليه كما سيتضح لنا فيما بعد.

والاستفهام فى البيت الثانى والعشرين للتمنى، وذلك فى قوله: "هل تبلغنى"؟ والحديث عن سرعة الناقة يأتى تعبيرا عن لهفة الشاعر على محبوبته٠

وقوله: "لعنت بمحروم الشراب" كناية عن صبر الناقة على مشقات السفر، وأعباء الطريق٠

وقوله فى البيت الثالث والعشرين: "خطارة" كناية عن نشاط الناقة وسرعتها٠

وشبه فى البيت الرابع والعشرين سرعة الناقة ـ بعد سرى الليل ـ بسرعة الظليم (النعام) ، وذكر سيرها فى العشى، لأنه ساعة الفتور، وللتأكيد على مداومة السير ليلا ونهارا، أما قوله: (بقريب بين المنسمين) فهو كناية عن الظليم ٠

ويستطرد الشاعر فى البيت الخامس والعشرين فى وصف الظليم، لأن الحديث عن نشاطه وسرعته إنما يؤكد به سرعة الناقة وتميزها، وقد شبه إيواء صغار النعام إلى الظليم بإيواء الإبل اليمانية إلى الراعى الأعجم الذى لا يفصح، ويتميز بالسرعة والانطلاق٠

وفى البيت السادس والعشرين صورة تشبيهية رائعة، جعل فيها الظليم والنعام يتبعه مثل مركب النساء الذى جعلت له خيمة فوق مكان مرتفع٠

وشبه فى البيت السابع والعشرين الناقة بالصعل، وشخصه باستعارة مكنية، فجعله يزور بيضه، ثم شبهه براع أسود مقطوع

الأذنين يرتدى فروة، وقد حرص على إضفاء بعض الخصائص الإنسانية على الظليم، ومن ثم على الناقة التى يناجيها وهى تحمله إلى دار محبوبته.

ويؤكد فى البيت الثامن والعشرين صبر الناقة على العطش، وأضفى عليها ـ بالتشخيص الاستعارى ـ ما جعلها تنفر عن مياه الأعداء.

وفى البيتين التاسع والعشرين والثلاثين صورة تشبيهية جعل الناقة فى سرعتها ونشاطها كأن فى جنبها الأيمن هرا جنيبا تحمى نفسها منه، ولا تقبل أن يدفعها إلى السير.

وشبه فى البيت الحادى والثلاثين أنين الناقة عند بروكها على الكلال بصوت القصب المكسر عند بروكها عليه، أو بصوت المزامير المصنوعة من القصب أى أنها سمينة، ولم تتأثر قوتها بأعباء الرحلة ومشقاتها.

وشبه فى البيت الحادى والثلاثين سيل العرق على رقبة الناقة لسرعتها بعصير أو سيل الرب (الدبس) أو الكحيل من جوانب القمقم الموضوع على النار فالعرق يسيل غزيرا ساخنا من اندفاع الناقة.

كما شبهها فى البيت الثالث والثلاثين فى قوتها وتبخترها وضخامتها بالفحل من الإبل الذى كدمته الفحول، أى أنه ضخم غليظ وهى كذلك.

ويتجه الشاعر فى البيت الرابع والثلاثين إلى الحماسة والفخر فيذكر أنه قادر على الاستيلاء على محبوبته، لكنه يتعفف عن ذلك ووصف (الفارس) بالمستلئم، لأن قدرة الشاعر على أخذ الفارس غير المستلئم أسهل وأيسر عنه، وذلك تأكيد على شجاعته وقوته.

وأكد الأسلوب بالشرط والجواب وباستخدام حرف (إن) ويوحى الحديث بعتاب إلى عبلة، لكن سياق النص وطبائع الشعر تؤكد كلها على نوع من الاحتراق الذاتى عند عنترة اتجه به إلى توبيخ قومها، وكرهه لهذه التفرقة الجائرة.

وقوله: (طب يأخذ الفارس) كناية عن شجاعته وقوته .

وقوله فى البيت الخامس والثلاثين: (بما علمت) تأكيد على أن شجاعته معروفة لعبلة وقومها، وقوله: (سمح مخالقتى) إشارة إلى أنه يتميز ببطولة عاقلة غير متهورة، والأمر فى بداية البيت للالتماس ، ويرفض ــ فى آخره ــ الظلم والاستكانة.

واستعار فى البيت السادس والثلاثين المرارة للظلم تأكيدا على بشاعته وإبرازه فى هذه الصورة المحسوسة بالذوق، ولذلك شبه طعمه ومذاقه بالحنظل.

ويتحدث فى أربعة أبيات عن شربه للخمر، مفتخرا بذلك، ليقنع نفسه بأنه سيد من الأشراف، إذ لم يكن من حق العبيد أن يشربوها، لكنه يشربها، ولكن ليس بالدرجة التى يفقد فيها وعيه أو حبيبته.

وقد أكد شربه بقد والفعل الماضى فى البيت السابع والثلاثين، وأن احتساءه للخمر يكون بآنية متميزة للتأكيد على أنه لا يقل عن السادة الأحرار، وهذا ما جاء فى البيت الثامن والثلاثين.

وقابل فى البيتين التاسع والثلاثين والأربعين بين حالتى السكر والصحوة، وأنه فى حال سكره لا يفرط فى كرامته، فيبذل ما له ولا يلوث عرضه، وأنه فى حال صحوه لا يتخلى عن المكارم والفضائل. وعبر فى بدايتيهما ـ بإذا ـ لتحقق الحدوث وتأكيده ـ واستعار عدم الكلم (الجرح) للمال والعرض.

وقد حكم الرواة بتقدم هذين البيتين فى بابهما[١].

وقوله فى البيت الحادى والأربعين: (وحليل غانية) كناية عن الزوجة، وأفادت الواو التكثير والمبالغة فى الحدث، حيث يفتخر بالعفاف وقناعة النفس.

وشبه صوت خروج الدم من الرجل بصوت خروج النفس من شدق الأعلم (مشقوق الشفة العليا) من البعير أو الإنسان، أو شبه سعة موضع الطعنة بسعة فم البعير.

وقوله: "سبقت" فى البيت الثانى والأربعين يفيد أن عنترة هو السابق إلى الطعن، وقوله: "ورشاش نافذة" كناية عن الدم الكثير المتطاير فى كل اتجاه، كما شبه لون الدم بلون العندم (وهو صبغ أحمر تختضب به النساء).

---

(١) انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى، ص١٢١.

والاستفهام فى البيت الثالث والأربعين للتخصيص، وقوله: "سألت الخيل" تشخيص للخيل (استعارة مكنية) حيث جعلها محلا للسؤال، وتوحى الصياغة بالعتاب لمحبوبته من تقصيرها بالجهل وعدم المعرفة بشجاعته.

أو أن الأسلوب من باب الإيجاز بالحذف، وبه مجاز مرسل علاقته الملازمة.

أما قوله: "يا ابنة مالك" فهو تدليل يتناسب مع الحديث إلى المرأة.

وأكد الشاعر شجاعته بقوله فى البيت الرابع والأربعين: "إذ لا أزال"، وقوله: "سابح" استعارة مكنية شخص فيها الفرس، وجعله يسبح مسرعا فى سهولة وانسياب وهو فرس (مكلم) كثير الجروح التى لحقت به.

والجمع فى البيت الخامس والأربعين بين طورا وتارة إشارة إلى تعدد مهام الفرس، واستجابته لما يناط به من مهام.

وقوله: "حَصْد القسى" استعارة مكنية جعل الأقواس سهلة التكسير، للتأكيد على قوة الفرس وشجاعة فارسه، وقوله: "إلى حصد القسى عرمرم" كناية عن قوة الجيش وكثرته.

والبيت السادس والأربعون كناية عن شجاعة عنترة وعفته وقناعته، وإفادة بأن الغنيمة ليست هدفا يحرص عليه، وقوله: "أغشى

الوغى" استعارة مكنية عبر فيها بأصوات أهل الحرب بدلا من الحرب.

وقوله فى البيت السابع والأربعين: "ومدجج" تأكيد على أن الشاعر لا يقبل على الجبان وإنما على البطل الجسور الذى لا يستسلم ولا ينهزم، لأن عنترة يتفوق على الآخرين، ولا مثيل له بين الناس، وقوله عن عدوه: "لا ممعن هربا ولا مستسلم" كناية عن خبرته بفنون الحرب، أى أنه لا يقاتل الضعاف أو الجبناء.

ويبدأ البيت الثامن والأربعون بقوله: "جادت له كفى ...." إشارة بقدرة الشاعر على الحرب ومعرفته بفنون القتال، وقد استعار مد اليد بالعطاء لمد اليد بالضرب، إذ لا خلاف عنده بين الجود والضرب، جاعلا موت الآخرين نعمة له.

ويأتى البيت التاسع والأربعون فيذكر الرمح باسمه، لبيان حرص الشاعر على ذكر أدوات الحرب، وقوله: "فشككت بالرمح" مجاز مرسل علاقته المجاورة، وبيّن أن الكرم الحقيقى هو كرم الأفعال، وعزة النفس، وبطولة الرجال.

وقوله فى البيت الخمسين: "فتركته جَزَر السباع" تشبيه مثّل فيه هيئة العدو المدجج بالسلاح بهيئة الشاة التى اجتمعت عليها السباع، أى أن قتله كان سهلا ميسورا.

وقد كان العدو مرفها منعما، لأن تعبير الشاعر بقوله: "حسن بنانه" يكشف عن ذلك ، والأسلوب مجاز مرسل علاقته الجزئية، فقد

ذكر البنان والمعصم وأراد الجسم كله. واستخدم الشاعر فى هذا البيت وما قبله الفاء العاطفة تأكيدا على سرعة المواجهة والتصدى لعدوه.

وقوله فى البيت الحادى والخمسين: "ومشك سابغة" تأكيد على أنها درع طويلة محكمة النسج، وكلمة هتكت توحى بقوة الضربة وقوله: "حامى الحقيقة" كناية عن شجاعة الفارس.

وقوله فى البيت الثانى والخمسين: "ربذ يداه" كناية عن كرمه وسخائه، وتتواكب المبالغة فى الحدث بقوله: "هتاك..." وكذلك الجمع فى قوله: "غايات" والتضعيف فى قوله: "ملوم".

والتعبير بالكناية – فى البيت الثالث والخمسين – عن عبوس الوجه، وذلك فى قوله: "أبدى نواجذه لغير تبسم".

كما شبه لون دمه بلون عصارة شجر العظلم، وذلك فى البيت الرابع والخمسين.

وجمع الشاعر فى قتال عدوه بين الرمح والسيف، وذلك فى البيت الخامس والخمسين.

وكنى – فى البيت السادس والخمسين – عن ارتفاع الجسم بطول الثياب وأكد قوة ذلك البطل المحارب فهو يلبس الأحذية الفاخرة التى لا يرتديها إلا الأثرياء ، ولم يكن معه توأم أى لم يولد ضعيفا.

وفى البيت السابع والخمسين كناية عن المرأة فى قوله: يا شاة وطابق بالسلب بين قوله: "حرمت ولم تحرم".

وبين قوله: "حلت له" وقوله: "حرمت على" مقابلة أسهمت في إيضاح المعنى.

وأضفى الحوار فى البيت الثامن والخمسين حركة وحيوية، وأسهم تكرار حرف الفاء فى التأكيد على سرعة الأحداث.

والشاة فى البيت التاسع والخمسين كناية عن المحبوبة وشبه فى البيت الستين جيد عبلة بجيد الغزال.

ويكشف البيت الحادى والستون عن التأكيد بأن قومه لا يقرون له بفضل، مع فروسيته التى لم تكن خافية عليهم.

ويبدأ البيت الثانى والستون بتأكيد الشاعر على حفظه لوصاية عمه فى الضحى، وهو وقت اشتداد الحرب حيث تقلص الشفتان وتتغير ملامح الوجه، وذلك إشعار أو كناية عن شدة الحرب.

وتتواصل أحاديث الشاعر عن وصف الحرب فى البيت الثالث والستين وقوله: "يتقون بى" فى البيت الرابع والستين كناية عن أنهم كانوا يسلمون إليه زمامهم فى الحرب، وقوله: "تضايق مقدمى" كناية عن شجاعته.

وكشفت كلمة يتذامرون فى البيت الخامس والستين عن حال الأعداء عند بداية المعركة، والمراد بالقوم حينئذ هم أعداء بنى عبس، أو أن المراد بهم هم بنو عبس أنفسهم، وعند ذلك تكشف كلمة (يتذامرون) عن حرص عنترة على كرامتهم وحفظ أعراضهم.

وشبه فى البيت السادس والستين الرماح بأشطان البئر (الحبال) فى الطول؛ لأن الرماح الطويلة علامة على قوة الفوارس.

وفى البيت السابع والستين استعارة فى قوله: تسربل بالدم، حيث جعل الدم سربالا أى قميصا له، أو وشاحا مدمما يتشح به الفارس، وتوحى الاستعارة بشدة المعركة وكثرة الدماء.

وجعل الفرس – فى البيت الثامن والستين إنسانا يشكو من الألم، وإن كانت شكايته بالعبرة والتحمحم، اللتين سبقتا بالازورار الذى يوحى بكثرة ما وُجه إلى الفرس من رماح الأعداء.

وقوله فى البيت التاسع والستين: "لو كان يدرى" كناية توضح مدى معاناة الفرس من الحرب، ويكشف البيت عن مدى القرب بين الشاعر وفرسه.

وقد أكد كلامه ورضاه بقوله فى البيت السبعين: "ولقد" حيث شعر بإعجاب قومه به وثقتهم فيه فقال:

ولقد شفى نفسى وأذهب سُقْمها ∴ .....

وقوله: "عنتر" منادى مرخم، محذوف الأداء للحرص على سرعة الإقدام، والأمر للتمنى فى قوله: أقدم.

وفى البيت الحادى والسبعين استعارة مكنية فى قوله: "والخيل تقتحم الخبار عوابسا"، حيث أضاف صفة العبوس للخيل.

وقوله فى البيت الثانى والسبعين: "ذلل ركـابى" كنايـة عـن أن فرسه سهل القياد مطيع له، وقوله: "حيث شئت" يكشف عن مقدرته فى تصريف الأمور، وقوله: "بأمر مبرم" استعارَ فيه الإبرام وهـي صـفة للحبل ، فجعلها للأمر (مكنية)٠

وابتدأ البيت الثالث والسبعين بكلمة قد التى تفيد التحقيق والتأكيد، وجعل الحرب آلة تدور على الإنسان (استعارة مكنية)٠

والبيت الرابع والسبعون يؤكد عفة اللسان ونبـل الخلـق لـدى الشاعر، كما أن الجمع بين المتضادين يزيد المعنى وضوحا وبيانا٠

ويسخر عنترة فى البيت الخامس والسبعين من ابنـى ضمـضم، والتعبير بأن الشرطية يفيد الشك وتعذر الحدوث، ويؤكد هـذا البيـت والذى قبله على الصفات الحميدة لدى الشاعر، كما أنه خـتم الأبيـات بالتأكيد على شجاعته وقدرته على الانتقـام، وتميـزه علـى غيـره، وجدارته بحب عبلة والدفاع عن بنى عبس، والفتك بأعدائهم٠

التعليق العام على القصيدة :

١ – ذكر عنترة فى بداية المعلقة دار عبلة وأطلالها، ولكنه لم يطـل فى ذلك، ولم يظهر الجزع أو اليأس ، ولم يكثر فى حشد الأسماء المتعددة للمواقع والديار؛ لأن ديار أهلها ليست غريبة عنه، أما ما قاله عن بعد المسافة بين ديار أهلها وديار أهله، وأن ذلك لم ييسر له سبل زيارتها فليس إلا نوعا من احتذاء الآخرين، الـذين لـم يتركوا شيئا لمن جاء بعدهم، على حد قوله:

هل غادر الشعراء من متردم؟

وإن ذلك الاحتذاء ينافى ـــ إلى حد ما ـــ الواقعية التى يتميز بها؛ لأن أهلها هم أهله، ولا اختلاف بينهم جميعا على حجب الاعتراف بـه وإذلاله بالرق وسواد اللون واختلاط النسب.

٢ - لقد سبق الحديث عن مضمون القصيدة، وتم تقسيمه إلى مجموعة من الأفكار الجزئية، ذلك التقسيم الذى يخضع لرؤية الشخص القارئ للنص، لكن هذه الأفكار ليست منفصلة تماما عن بعضها، فيمكن أن تلتئم منها الفكرة العامة وهى رغبة الشاعر فى التحرر من قيود العبودية التى كبلته، وأرهقت نفسه، وهددت كيانه، وهو فى غزله يتحدث عن بطولته التى يستحق معها أن يرفع رأسه مفتخرا ببطولته، ومتغنيا بشربه الخمر، واتصافه بالكرم والعفة والفروسية.

ولقد عاش عنترة حياة مليئة بالإذلال والقهر، وعانى من مواقف أهله منه، فهو ـــ فى الميزان الاجتماعى ـــ فى درجة أقل كفاءة من عبلة، ولهذا لم يكن يجرؤ على مواجهتها بمثل غزل الجاهليين، فانصرف إلى التغنى ببطولته وأخلاقه الكريمة؛ لتكون عوضا عما لم يكن له سبب فيه.

والذين قالوا: إنه لا يجيد الحديث إلى المحبوبة ... غفلوا ـــ بدون قصد ـــ عن المعاناة النفسية، التى كان يشعر بها وهو يرعى الإبل وقومه يسهرون ويشربون الخمر، ويكثرون من اللهو العابث وسائر

الملذات، فكيف يتغزل الرجل فى سيدته الحرة الأبية، وهو العبد الأسود ... فكان جل همه الحديث عن حقه فى الحرية والكرامة والعدل والحب، وكل ذلك هو الموضوع الحقيقى لما تحدث عنه ونوه به.

٣ - تتضح فى هذه المعلقة صدق التجربة التى اكتوى بنارها، فجاء البوح صادقا متميزا، فالشاعر يشيد بالفرس والناقة، ويصف الظليم، وذباب الحدائق (النحل)، ويتحدث عن آلات الحرب كالسيف والرمح، ويذكر الخمر الذى لا يختلف شربه لها عن شرب السادة الأشراف.

ويتميز الشاعر بحرصه على الواقعية، فيذكر محبوبته عبلة ابنة عمه، ويكرر اسمه وأسماء أعدائه كابنى ضمضم حيث قتل أباهما، وتركه جزر السباع.

لقد عاش عنترة هذه الأحداث وتغنى ببطولته، وتعلق قلبه بحب عبلة الذى فجع فيه وعجز أمامه، قال:

إن تُغْدِفى دونى القِناع فإننى ∴ طَبٌّ بأخذِ الفارسِ المُسْتَلْئِم

٤ - تشتمل الأبيات على بعض الألفاظ التى لم يعد يتداولها الناس فى العصر الحديث، على أن عنترة ليس من الشعراء الذين يميلون إلى الصنعة أو التكلف، وإنما تنثال الألفاظ لبناء الأسلوب بناء محكما أقرب إلى الطبيعة البدوية الهادئة.

وقد حرص على اختيار الكلمات الموحية التى تتلاءم مع الموقف، والحالة الشعورية، وما بها من فرح وسرور أو غضب وانفعال.

٥ - لم يسرف الشاعر فى توظيف خياله خاصة فيما يتصل بعبلة، أما حديثه عن الحماسة والفخر ووصف الحرب فقد جاء واقعيا صادقا قال:

هَلا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ∴ إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمي

وقال:

لما رأيتُ القومَ أقبل جمعُهم ∴ يتذامرون كررْتُ غيرَ مُذمَّم

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها ∴ أشطانُ بئرٍ فى لَبَان الأدهم

وقال:

ولقد شَفَى نفسى وأذهب سُقْمَها ∴ قِيلُ الفوارسِ ويكَ عنترَ أقْدِم

فالتشبيه والاستعارة والكناية مستقاة من قاموس الشاعر وبيئته، فليست مقحمة فى النص أو طارئة عليه، بل هى ممتزجة به، متواكبة معه، مثل قوله: "فتركته جزر السباع"، وقوله: "تسربل بالدم" وقوله: "والخيل تقتحم الخبار".

فالهدف من الصور الخيالية إبراز المعنى وتوضيحه بالطريقة التى تكشف عن عاطفة الشاعر وانفعالاته، ولذلك لم يجعل عنترة كل همه حشد الصور، وإنما اتجه إلى التعبير الواقعى الطبيعى غير المتكلف.

٦ - القصيدة من البحر الكامل وهو من البحور الممتدة التى تتوافق مع حديث الشاعر عن نفسه من خلال الفنون التى عرض لها فى الغزل والحماسة والفخر ووصف الحرب.

والموسيقى الداخلية واضحة فى الألفاظ المنتقاة، والعبارات الموحية، التى تعكس بواعث الفرح والسرور، وتتواكب مع عمق تجربته، وصدق عاطفته، وجرس ألفاظه، وحرارة انفعالاته.

٧ - يكشف النص عن الكثير من ملامح البيئة:

أ - الحديث عن الدار وتحية الطلل، وذكر بعض المواضع.

قال:

يا دارَ عبلةَ بالجِوَاء تكلَّمى ∴ وعِمِي صباحا دارَ عبلةَ واسْلمى

وقال:

حُيِيِّتَ من طَلَلٍ تقادم عهدُه ∴ أقوى وأقفرَ بَعْد أم الهَيْثَم

ب - الحديث عن الدواب المستعملة فى الحرب والارتحال.

قال:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حلُوبةً ∴ سُودا كخافيةِ الغُراب الأسحم

وقال:

هَلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ ∴ إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمى

جـ - ذكره للأدوات المستعملة فى الحرب كالرمح والسيف وغيرهما.

قال:

فَشَكَكْتُ بالرمحِ الأصمِّ ثيابَه ∴ ليس الكريمُ على القَنَا بمحرَّم

وقال:

إذ يتَّقُونِ بىَ الأسنَّةَ لم أخِــمْ ∴ عنها ولكنِّى تــضايقَ مُقْــدَمى

د - وصف المعارك وما يجرى بها، وقد كانت أدوات الحــرب ودواب القتال وأصوات الأبطال أبرز ما دار عليه حديث الشاعر٠

ويأتى بعد ذلك وصف الرحلة وتصوير الرياض النضيرة، وبيان قيمة الغيث، ومياه الآبار التى يعتمد عليها الناس فى الصحراء٠

قصيدة النابغة الذبيانى

فى مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه

التعريف بالشاعر:

النابغة الذبيانى شاعر جاهلى متميز، يُكنَى أبا أُمامة وأبا ثَمامة، وهما ابنتاه، واسمه زياد بن معاوية بن ضباب، من أب وأم ذبيانيين، ولقب بالنابغة لنبوغه فى نظم الشعر، وتفوقه على أقرانه، وقيل لأنه لم يقل شعرا حتى صار رجلا، وفاجأ قومه بالنبوغ فى الشعر بعدما كبر، وحمل هذا اللقب شعراء آخرون مثل النابغة الجعدى، والنابغة الشيبانى، والنابغة التغلبى، وإذا ذكر الوصف مجردا انصرف إلى نابغة بنى ذبيان الذى كان واحدا من أربعة شعراء يمثلون الطبقة الأولى عند محمد بن سلام الجمحى، وهم النابغة وامرؤ القيس وزهير والأعشى، كما أن أهل الحجاز كانوا يفضلونه ــ ومعه زهير ــ على سائر الشعراء، وأنه يقترب فى ذوقه من أوس بن حجر الذى كان على رأس مدرسة عبيد الشعر.

ولا نستطيع أن نجزم بحقائق ثابتة عن المراحل الأولى من عمره، إذ كانت طبائع الحياة فى الصحراء لا تؤذن برصد الأحداث الخاصة بالناشئة والشباب، فلم يكن شاعرنا منبوذا كعنترة، ولا أميرا أو مليكا كامرئ القيس، ولا من الذين تولوا السيادة على أقوامهم قبل أن يشتهروا بالشعر كعمرو بن كلثوم.

وقال مؤرخو الأدب إن هذا النابغة كان من أشراف قومه، ومن البيوتات ذوات الرفعة والوجاهة الاجتماعية المتميزة، كما كانت ذبيان فى نزاع طويل مع أختها قبيلة عبس، وسجل الشعر كثيرا من جوانب المأساة التى اشتملتهما فى حرب داحس والغبراء التى استمرت نحو أربعين عاما، وكان بنو أسد يحالفون قبيلة ذبيان، وهما معا من أنصار المناذرة بالحيرة، ومن خصوم الغساسنة بالشام، ولهذا كان من الطبعى أن يلجأ النابغة إلى المنذر بن ماء السماء (بالحيرة) ثم يتركها فى عهد (عمرو بن هند)، ويعود إليها فى الشطر الثانى من حياته، نازلا على النعمان بن المنذر حيث لزمه، وتغنى بأمجاده، وتكسب بمدائحه فيه، وتفوق على الآخرين، الذين اقتربوا من النعمان (من أمثال أوس بن حجر ، والمثقب العبدى، ولبيد العامرى، والمنخّل اليشكرى وغيرهم).

ولم تستمر ملازمة النابغة للنعمان، فقد تركه وارتحل إلى الغساسنة، وإذا كان قد لجأ إلى المناذرة ـ بسبب ما بينهم وبين ذبيان من تحالف وولاء ـ فلماذا ترك النعمان ، وغادر الحيرة إلى جلق (حوران) نازلا بكنف عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج، ابن الحارث الأكبر بن أبى شمر الغسانى، وأخيه النعمان بن الحارث . قيل إنه ترك الحيرة بسبب قصيدة غزلية قالها فى زوجة النعمان بن المنذر (المتجردة) أو أنه طلب منه أن يصفها فى شعره، وأوغر المنخل اليشكرى صدر النعمان، وذكر له أن هذا الشعر لا يقوله إلا من جرب، فغضب الملك من شاعره الذى هرب منه إلى الغساسنة، ومن جانب آخر كان المنخل موضع اتهام بالمتجردة، فكأنه رغب فى دفع

الظنون عنه فأحال الأمر إلى وشاية مدبرة بثها إلى النعمان، وأحيل القارئ إلى رواية فى الأغانى تقول:

"إن الذى من أجله هرب النابغة من النعمان أنه كان والمنخل بن عبيد بن عامر اليشكرى جالسين عنده، وكان النعمان دميما أبرش[١] قبيح المنظر، وكان المنخل بن عبيد من أجمل العرب، وكان يُرمى بالمتجردة زوجة النعمان، ويتحدث العرب أن ابنى النعمان منها كانا من المنخل، فقال النعمان للنابغة: يا أبا أمامة، صف المتجردة فى شعرك، فقال قصيدته التى وصفها فيها .... فلحقت المنخل من ذلك غيرة، فقال للنعمان: ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جربه. فوقر ذلك فى نفس النعمان، وبلغ النابغة، فخافه فهرب، فصار فى غسان"[٢].

أما القصيدة التى قيل إنها سبب هذه النكبة فأولها:

أمِنْ ال ميةَ رائحٌ أو مغتدى ∴ عَجْلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزوَّد

أفِدَ الترحلُ غيرَ أن ركابَنا ∴ لما تزُلْ برحالِنا وكان قَدِ[٣]

زعم الغرابُ بأن رحلتنا غدا ∴ وبذاكَ خبَّرنا الغدافُ الأسود[٤]

لا مرحبًا بغدٍ ولا أهلاً به ∴ إن كان تفريقُ الأحبَّةِ فى غدِ

---

(١) فى لون جسمه اختلاف كمرض البهاق.
(٢) الأغانى جـ ١١ ص١٤ طبعة دار الكتب المصرية.
(٣) أفد الترحل: دنا الرحيل، وكان قد: أى قد زالت لقرب وقت زوالها.
(٤) الغداف: السابغ الريش.

وفيها:

نَظرتْ إليك بحاجةٍ لم تَقْــضِها .·. نظر السقيم إلى وُجُــوه العُــوَّد
سَقَط النصيفُ ولم تُرد إسقاطَه .·. فتناولَتْــــه واتَّقتنــــا باليــــد[١]
بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كــأن بنانَــه .·. عَنَمٌ يكاد من اللطافــة يُعقــد[٢]

وروى أن النابغة كان يقوى فى شعره، والإقواء اختلاف حركــة الروى ، ولم يقلع عنه إلا بعد أن ذهب إلى يثرب، ونبهه أهلها، بــأن جعلوا قينة تغنى شعره ففطن، ولم يعد إليه ٠

وفى القصيدة غزل مكشوف لا يلائم النابغــة، ولا يتــصور أن يقوله فى زوجة ولى نعمته، وصاحب الفضل عليه ٠

وقيل إن تركه للنعمان كان بسبب سعيه لإطلاق أسرى قبيلته عند الغساسنة، فالحرص على مصالح ذبيان كان الدافع له فى وفوده علــى المناذرة أولا، ثم إلى الغساسنة بعد ذلك ٠

وكتب بروكلمان قائلا: "فى كتاب التظــافر والتناصــر خطبــة مسجوعة للنابغة، خاطب بها الحارث الغسانى؛ ليطلق أسارى قبيلته"[٣] ونعتقد أن هذا التفسير الأخير هو الأقرب للقبول، فقد كان النابغة صوتا جهوريا لذبيان فى الحيرة وحوران وغيرهما، وأن التكسب بالــشعر لا يتعارض فى توظيف الرجل لفنه وموهبته فى خدمة مصالح القبيلة٠

---

(١) النصيف: نصف خمار٠
(٢) بمخضب: أى بمعصم مخضب، البنان: الأصابع المخضوبة، العنم: نوع من الشجر له نور أحمر وهو لين الأغصان، والقصيدة فى الديوان ص٨٩ ٠
(٣) تاريخ الأدب العربى جــ١ ص٩٠ ٠

وقال فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى:

كِلِينِى لِهَمٍّ يا أميمـــةَ ناصـــبِ ∴ وليلٍ أقاسيه بطيئِ الكواكـــب[١]

تطاوَل حتى قلتُ ليس بمُنْقضٍ ∴ وليس الذى يرعى النجومَ بآيبِ[٢]

وصَدْرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همِّه ∴ تَضاعفَ فيه الحُزْنُ من كل جانب[٣]

والمطلع غزلى حزين يكشف عن معانـــاة الـــشاعر وهمومـــه، والقصيدة ذات أبعاد قبلية أو سياسية، وقال مما يعد تأكيدا للمـــدح بمـــا يشبه الذم:

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفَهم ∴ بِهِنَّ فُلُولٌ من قِــراع الكتائـــب

تُورِّثْنَ من أزمانِ يوم حليمـــةٍ ∴ إلى اليوم قد جُرِّبْنَ كلَّ التجارِب[٤]

وأشار إلى يوم حليمة الذى هُزم فيه المنـــاذرة هزيمـــة منكـــرة، وأسفرت رحلته إلى الغساسنة عن مجموعة من القصائد التى تـــستكمل بها الصورة الفنية لشعره.

وبقى النابغة فى الشام إلى أن توفى عمرو بن الحـــارث وأخـــوه النعمان، فعاد إلى المناذرة، وامتدح النعمان بن المنذر، واعتذر لـــه، واستعطفه، ونال عطاياه.

---

(١) كلينى: دعينى، وكله يكله: تركه، ناصب: متعب، وقال يا أميمة بالفتح، كأنه أجرى الكلمة مجرى الاسم المرخم، كما يقال فى ترخيم عزة يا عز، وإن كان الأصح أن تنطق الكلمة مضمومة.

(٢) الذى يرعى النجوم: لا ينام.

(٣) العازب: الذى يبيت فى المرعى، والقصيدة فى الديوان ص٤٠.

(٤) تورثن: أى السيوف ــ الديوان ص٤٤، ص٤٥.

وقيل إن السبب فى رجوعه إلى الحيرة ما بلغه أن النعمان مريض لا يرجى شفاؤه، فعاد إليه ، وامتدحه إلى أن توفى عام ٦٠٢م أو أنه أخذ أسيرا إلى فارس، ومات فى محبسه، وبقى النابغة مدة عاد بعدها إلى قبيلته، ومات فيها عام ٦٠٤م قبل أن تنتهى حرب داحس والغبراء فى عام ٦٠٨م.

شعره:

يحفل ديوان النابغة بالعديد من القصائد المتميزة التى تكشف عن نبوغه وتفوقه فى المدح والاعتذار، أما المديح الذى توجه بمعظمه إلى المناذرة، وببعضه إلى الغساسنة فبسبب دفاعه عن قومه، وحرصه على تحقيق مصالحهم، خاصة فى المرحلة التى كثرت فيها الحروب مع عبس، أو مع غيرها من القبائل، فضلا عن تكسبه بشعره.

ومن روائعه فى المدح والاعتذار قوله للنعمان بن المنذر:

أتانى ــ أبَيْتَ اللعن ــ إنك لُمْتَنى ∴ وتلك التى اهْتَمُّ منها وأنْصَبُ

وقال فيها:

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ ∴ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهن كوكب

ولست بمُسْتَبْقٍ أخا لا تلُمُّه ∴ على شَعَثٍ ، أىُّ الرجالِ المهذَّب

فإن أكُ مظلوما، فَعَبْدٌ ظلمتَه ∴ وإن تكُ ذا عُتْبَى فمثلُك يُعْتَب[1]

---

(١) الديوان ص٧٢، ص٧٤ .

وتميز مديحه واعتذاره بمتانة اللفظ وعمق المعنى، وترتيب الأفكار وحسن الديباجة والإفاضة فى المبالغة والخيال الواسع، والذوق الحضارى الذى أكتسبه بالحياة فى بلاط الملوك والأمراء إبان المرحلة الثانية من حياته التى نضجت فيها موهبته، وعرفه الناس شاعرا قديرا وناقدا بصيرا، يحكم بين المتخاصمين من الشعراء فى عكاظ.

ونعتقد أن همومه بقضايا قبيلته كانت الباعث الأول له قبل الرغبة فى الكسب من مديح النعمان بخاصة، فقد سيطر الحزن عليه، وهو يقول له:

فإنك كالليل الذى هو مدركى ∴ وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[١]

وللنابغة غزل تقليدى تابع فيه غيره ممن يقفون على ديار المحبوبة، ويبكون أطلالها، ولعل قصيدته فى المتجردة والتى سبق الحديث عنها أفضل ما يعبر عن موهبته فى الغزل بمية وأميمة وهند وسعاد وغيرهن، كما أن له شعرا فى الرثاء وفى وصف الحيوان.

وقال يهجو عامر بن الطفيل بأسلوب خال من الإسفاف والإقذاع فيصغره فيه، ويفضل أباه وعمه عليه، ويعيره بالجهل:

فإن يكُ عامرٌ قد قال جَهْلا ∴ فإن مظنَّةَ الجهل الشَّبابُ[٢]

فكُنْ كأبيك أو كأبى بَراء ∴ تُوافقْك الحكومةُ والصَّواب[٣]

---

(١) الديوان ص٣٨ .

(٢) يريد أن الشباب مقرون به الجهل.

(٣) أبو براء: عامر بن مالك وهو عم عامر بن الطفيل والحكومة: الحكم.

ولا تَذهبْ بحِلمِك طاميات ∴ من الخُيلاء ليس لهُن باب[١]

وله مقطوعة توجه فيها بالحديث إلى حاجبه عصام من بن شهير (أو شهبرة) عندما علم بمرض النعمان، وهى من مرويات الأصمعى وذكرها الأغانى، وجاء فيها:

ألم أقسِمْ عليك لتُخْبرنِّى ∴ أمحمولٌ على النَّعْش الهُمام[٢]

فإنّى لا ألامُ على دُخُول ∴ ولكنْ ما وراءكَ يا عِصامُ

فإن يَهْلِك أبو قابوسَ يهلِكْ ∴ ربيعُ الناس والشهرُ الحرام[٣]

ومن شعره الذى نسب إليه، وذكره ابن قتيبة وغيره، قوله بعد انقطاع عن قول الشعر:

المرءُ يأملُ أن يعيـ ∴ ش وطول عيش قد يضره

تَفْنى بشاشتُه ويبقى ∴ بعد حُلْو العيش مرُّه

وتخونُه الأيامُ حتى ∴ لا يرى شيئا يَسُرُّه

كم شامتٍ بى إن هلكْـ ∴ ت، وقائلِ : لله دَرُّه[٤]

وقوله:

تعصى الإلهَ وأنت تُظهر حبَّه ∴ هذا لعمرُك فى المقال بديعُ

لو كنتَ تصدقُ وده لأطعتَه ∴ إن المحبَّ لمن يحبُّ مطيع[٥]

---

(١) الديوان ص١٠٩ .

(٢) الهمام: السيد الشريف وهو النعمان بن المنذر .

(٣) أبو قابوس: كنية النعمان ــ والأبيات فى الديوان ص١٠٥ .

(٤) من ملحقات الديوان ص٢٣٠، والشعر والشعراء ص١٦٤ .

(٥) من ملحقات الديوان ص٢٣١ .

ومن متفرقات شعره المنسوب له أو المنحول عليه قوله:

تعدو الذئابُ على من لا كلابَ له ∴ وتتقى مَرْبَضَ المستنفرِ الحامى[(١)]

أما ما يوجه إلى شعره من نقد، فإنه كشأن الشعر الجاهلى كلـــه من ناحية القول بالنحل أو الاضطراب أو الخضوع للتقليد.

المعلقة:

واحدة من القصائد العشر المشهورة فى العصر الجــاهلى، وقــد اختلف عدد أبياتها من رواية لأخرى، وقالها فى مــدح النعمــان بــن المنذر واستعطافه والاعتذار له، بسبب وشاية سعى بها بنو قريع فـــى أمر المتجردة، وسوف نعرض لها برواية الأصمعى المطبوعـــة فـــى الديوان.

---

(١) الديوان طبع دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ص١٦٢ ، وتتقـــى: تخـــاف، والمستنفر: المستنجد، الحامى: المدافع.

المعلقة(*)

- ١ -

١- يـا دارَميَّــةَ بالعليـاءِ فالـسَّندِ ∴ أقْـوتْ وطـالَ عليهـا سـالفُ الأبَـدِ[١]

٢- وقفـتُ فيهـا أصيلانًا أسـائلُها ∴ عَيَّـتْ جوابا، وما بـالربع مـن أحَـدِ[٢]

٣- إلا الأوَارِيَّ لأيًــا مــا أُبيِّنُهــا ∴ والنُـؤْيُ كـالحوضِ بالمظلُومـة الجَلَـد[٣]

٤- ردَّتْ عليـــه أقاصِـــيْه ولبَّـــده ∴ ضـربُ الوليـدةِ بالمِسحاة فـى الثَّـأد[٤]

٥- خَلَّـت سـبيلَ أتَـيٍ كـان يحبِسُه ∴ ورفَّعتْـــه إلى الـــسَّجْفين فالنَّـــضَد[٥]

(*) ديوان النابغة الذبيانى طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، صـ١٤ .

(١) مية: اسم امرأة، العلياء: المكان المرتفع بناؤه، السند: السفح أى الارتفاع الذى بين القمة والوادى، حيث يسند فيه أى يصعد، والعلياء والسند مكانان مرتفعان لا يصل السيل إليهما، أقوت: أقفرت وخلت من أهلها، السالف: الماضى، الأبد: الدهر .

(٢) أصيلانا: تصغير لأصلان (جمع أصيل) وهو العشى، أو أنه مصدر من أصيل على وزن غفران، عيت: عجزت فلم تجبنى وليس بها أحد يكلمنى، الربع: منزل القوم فى زمن الربيع، (جوابا) منصوب على المصدرية .

(٣) الأوارى: الأوتاد وما يربط بها من حبال حيث يدفن طرف الحبل ويبرز الطرف الثانى، فتربط الدابة به، مفردها آرى، لأيا: بطئا وشدة، النؤى: حفرة أو حاجز من تراب حول الخيمة أو المنزل؛ لكى تمنع عنه السيول، المظلومة: الأرض صعبة الحفر، الجلد: الأرض الصلبة الغليظة حيث لا يسهل الحفر فيها .

(٤) ردت: فاعله ضمير يعود على الشابة التى لم يسبق ذكرها . وجاز ذلك لأنه عرف معناه، الأقاصى: جمع أقصى وهو ما شذ منه أى أن الفتاة ردت إلى النؤى ما تباعد منه، ليرتفع، وسكنت الياء للضرورة، لبده: جمعه وسكنه بشدة، المسحاة: المجرفة، الثأد: الموضع الندى التراب (مصدر وضع موضع الصفة) .

(٥) خلت: شقت، سبيل: طريق، الأتى: السيل، أى سهلت له طريقا حتى يجرى، رفعته: أعلته، السجفان: ستران رقيقان يكونان فى مقدم البيت، النضد: متاع البيت الذى جعل بعضه على بعض .

٦- أمْسَت خلاءً وأمسى أهلُها احتملوا ∴ أخْنَى عليها الذى أخْنَى على لُبَد[١]

- ٢ -

٧- فَعدِّ عما تَرى إذْ لا ارتجاعَ له ∴ وانْمِ القُتُودَ على عَيْرانةٍ أُجُد[٢]

٨- مَقْذوفةٍ بدَخيسِ النَّحْض بازلُها ∴ له صريفٌ صريفُ القَعْو بالمَسَد[٣]

٩- كأنَّ رَحْلى، وقد زال النهارُ بنا ∴ يومَ الجليلِ على مُسْتأنِسٍ وَحَدِ[٤]

١٠- مِن وَحْشِ وَجْرةَ موشىٍّ أكارِعُه ∴ طاوِى المصير، كَسَيْفِ الصيْقل الفَرِدِ[٥]

١١- أسْرَتْ عليه من الجوزاء ساريةٌ ∴ تُزجِى الشَّمَالُ علَيْهِ جامد البرد[٦]

---

(١) خلاء: خالية من سكانها، احتملوا: شاهد نحوى على وقوع خبر كان وأخواتها فعلا ماضيا غير مقرون بقد، أخنى عليها: أتى عليها الدهر وأفسدها، لبد: آخر نسور لقمان بن عاد، وقد عمر طويلا، ولقمان بن عاد غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم.

(٢) عد: انصرف عما ترى من خراب الديار، انم: ارفع، القتود: خشب الرحل ولا واحد له من لفظه، وقيل مفرده قتد، العيرانة: الناقة التى تشبه العير فى القوة والنشاط وصلابة الخف، الأجد: القوية الموثقة الخلق.

(٣) مقذوفة: رميت باللحم رميا، الدخيس: المتداخل ، النحض: اللحم، البازل: نابها حين بزل اللحم، أى شقه وخرج، الصريف: الصوت والصياح، القعو: البكرة بعينها، المسد: الحبل.

(٤) زال النهار بنا: انتصف، وبنا أى علينا ، الجليل: شجر الثمام، وواد قرب مكة، ويوم الجليل: يوم مرورنا بالجليل، المستأنس: الثور (أو الإنسان) الذى ينظر بعينه فيخاف، وحد: منفرد.

(٥) وجرة: فلاة واسعة بنجد، وهى مجتمع للوحش ليس فيها منزل، موشى أكارعه، الموشى الذى فيه ألوان مختلفة، أكارعه: قوائمه، طاوى المصير: ضامر البطن، الصيقل: الحداد، الفرد: المسلول أو الذى لا مثيل له .

(٦) أسرت عليه: جاءته ليلا، سارية: سحابة تسير ليلا وتمطر به، الجوزاء: برج فى السماء، أى أن السحابة كانت من نوع الجوزاء ويكون نوؤها فى البرد الشديد، تزجى: تدفع، الشمال: ريح الشمال بما فيها من مطر، جامد البرد: ما صلب منه.

١٢- فارتاعَ مِنْ صوت كلاَّبٍ فباتَ لـه ∴ طوعُ الشوامتِ مـن خـوفٍ ومـن صَـرَدِ[١]

١٣- فبـثَّهنَّ عليـه، واسـتمرَّ بـه ∴ صُمْعَ الكعُـوب بريئـاتٍ مـن الحَـرَدِ[٢]

١٤- وكان ضُمْرَانُ منه حيثُ يُوزِعُـه ∴ طَعْـنَ المُعـارك عنـد المُحْجَـر النَّجُـد[٣]

١٥- شكَّ الفريـصةَ بالمِدْرَى فأنفَذَها ∴ طعـنَ المُبَيْطـرِ إذ يَـشفى مـن العَـضَد[٤]

١٦- كأنه خارجا من جَنْب صفحَتِهِ ∴ سَـفُّودُ شَـرْبَ نَسُوه عنـد مُفْتَـأد[٥]

١٧- فظلَّ يَعْجُمُ أعلى الـرَّوْقِ مُنقَبِضا ∴ فـى حالِـك اللـونِ صَدْقٍ غـير ذى أوَدِ[٦]

١٨- لما رأى واشـقٌ إقعـاص صاحبه ∴ ولا سـبيلَ إلى عَقْـلٍ ولا قَـوَدِ[٧]

١٩- قالت له النفسُ: إني لا أرى طَمَعا ∴ وإن مـولاكَ لم يَـسْلم ولم يَـصد[٨]

---

(١) ارتاع: فزع، الكلاب: الصائد ذو الكلاب، له: الضمير راجع إلى الكلاب، الشوامت: جمع شامت أو أنها القوائم، (وتأتى طوع بالنصب خبر بات) الصرد: البرد .

(٢) فبثهن عليه: فرق الصائد كلابه على الثور، فركض برجله، استمر عليه: نهض به واشتد، صمع: ضوامر، والواحدة صمعاء، الكعوب: المفاصل، الحرد: استرخاء أعصاب يد البعير من شدة العقال .

(٣) ضمران: اسم كلب للصائد، منه: من الثور، يوزعه: يغريه بالثور، المعارك: المقاتل، المحجر: الملجأ وحمى القبيلة، النجد: الشجاع .

(٤) الفريصة: المضغة التى ترعد من الدابة (ومن الإنسان) عند الخوف، وقيل إنها فى مرجع الكتف، المدرى: قرن الثور، المبيطر: البيطار الذى يعالج الحيوان، العضد: داء فى الكتف من ثقل حمل أو غيره .

(٥) كأنه: أى المدرى، خارجا: حال خروج القرن من جنب صفحة الكلب إلى الصفحة الأخرى السفود: الحديدة التى يشوى عليها اللحم، شرب: قوم يشربون واحدهم شارب، نسوه: تركوه ، المفتأد: موضع النار الذى يشوى فيه اللحم .

(٦) فظل يعجم: ظل الكلب يمضغ أعلى الروق (القرن)، منقبضا: تقبض الكلب، واجتمع فى القرن بسبب الألم، الصدق: الصلب، الأود: الاعوجاج .

(٧) واشق: اسم كلب آخر، الإقعاص: الموت السريع، العقل: الدية، القود: القصاص، وكلامه فى الشطر الثانى: مثل من الأمثال .

(٨) قالت له النفس: حدثت واشقا نفسه، مولاك: صاحبك وهو الكلب المقتول، وقيل: رب الكلب أى صاحبه، حيث قتلت كلابه فلم يسلم من الأذى، ولم يصد شيئا .

٢٠- فتلـك تُبْلِغُنِـى النعمـانَ، إنَّ لـه ∴ فضلاً على الناس فى الأدْنَى وفى البَعَد[١]

- ٣ -

٢١- ولا أرَى فاعلا فى الناس يُشبِهُهُ ∴ ولا أُحاشِـى مـن الأقـوام مِـنْ أحَـدِ[٢]

٢٢- إلا سـليمانَ إذ قـال الإلـهُ لـه ∴ قُـمْ فـى البَرِيَّـة فاحـدُدْها عـن الفَنَـد[٣]

٢٣- وخَيِّس الجن،إنى قد أذنْتُ لهم ∴ يَبْنُـون تَـدْمُر بالـصُفَّاحِ والعَمَـد[٤]

٢٤- فمَـن أطاعَـك فانْفعْـه بُطاعتـهِ ∴ كمـا أطاعـك، وادْلُلْـهُ علـى الرَّشَـدِ[٥]

٢٥- ومـن عـصاك فعاقِبْـه مُعاقبـةً ∴ تَنْهَـى الظَّلُـوَم ولا تَقْعُـدْ علـى ضَمَدِ[٦]

٢٦- إلا لِمثْلـك أو مَـنْ أنْـتَ سـابقُه ∴ سَبْقَ الجَـواد إذا استولى علـى الأمَـد[٧]

٢٧- أعْطـى لفارِهَـةٍ حُلْـوٍ توابعُهـا ∴ مـن المواهـبِ لا تُعْطَـى علـى نَكَـد[٨]

---

(١) فتلك : أى الناقة، إن له فضلا على الناس: يريد التفضل على القريب والبعيد أو يريد الرفعة، إذ هو يفضل جميع الناس، فى الأدنى وفى البعـد: أى فـى القريب والبعيد .

(٢) فاعلا: أى فاعلا يفعل الخير، ولا أحاشى: لا أستثنى، من أحد: من زائدة.

(٣) إلا سليمان: يستثنى نبى الله سليمان بن داود من القوم المنفى عـنهم شـبه النعمان، قم فى البرية: انظر فى مصالح الناس، فاحـددها: امنعهـا، الفنـد: الخطأ.

(٤) خيس: ذلل ، تدمر: مدينة بالشام، الصفاح: حجارة عراض رقـاق، العمـد: السوارى من الرخام.

(٥) الرشد بفتح الشين: أى الرشد بتسكينها .

(٦) الظلوم: كثير الظلم، الضمد: الذل والغيظ .

(٧) قيل إن موضع هذا البيت بعد البيت الثامن والأربعين الذى قال فـى أولـه: "هذا الثناء" وإلا لمثلك: أى ليس بينك وبينه فى الفضل إلا يسير، أو من كـان من صلبك، أو شبها لك، استولى على: غلب عليه، الأمد: الغاية .

(٨) أعطى: أكثر عطاء، الفارهة: الناقة الكريمة والعطية الحسنة، توابعها: مـا يتبعها من المطايا والهبات، حلو توابعها: متيسرة بلا امتنان، النكد: الـضيق والبؤس.

٢٨- الواهبُ المائةَ المِعْكَاء زيَّنها ∴ سَعْدانُ تُوضِحَ في أوبارها اللِّبَدِ[١]

٢٩- والأُدْمَ قد خُيِّست فُتْلاً مرافقُها ∴ مشدودةً برحالِ الحيرة الجُدُد[٢]

٣٠- والراكضاتِ ذيولَ الرَّيْطِ فانَقَهَا ∴ بَرْدُ الهواجر كالغِزْلان بالجَرَد[٣]

٣١- والخيلَ تَمْزَعُ غَرْبا في أعِنَّتِها ∴ كالطير تنجُو من الشُّؤبوبِ ذي البَرَد[٤]

٣٢- احكُمْ كحُكْم فتاة الحي إذْ نَظَرَتْ ∴ إلى حَمامٍ شِراعٍ واردِ الثَّمَد[٥]

٣٣- يَحُفُّه جانِبَا نِيقٍ وتُتْبعُه ∴ مثلَ الزجاجةِ لم تُكْحَل من الرَّمَد[٦]

٣٤- قالت: ألا لَيْتَما هذا الحمامُ لنا ∴ إلى حمامَتِنا ونصفُه فَقَدِ[٧]

٣٥- فحسَّبُوه فألفَوْه كما حَسَبَتْ ∴ تِسعا وتسعينَ لم تَنْقُصْ ولم تَزِد[٨]

---

(١) الواهب المائة: الذي يهب المائة (من الإبل)، المعكاء: الغلظ الشداد، سعدان: نبت تسمن به الإبل في مكان اسمه (توضح) ، اللبد: الأوبار المتلبدة لعدم استعمال ظهورها وتركها مهملة في المرعى، مفردها لِبدة بضم اللام وكسرها .

(٢) الأدم: النوق البيض، خيست: ذللت بالركوب، الفتل: جمع فتلاء وهي من بانت مرافقها عن آباطها فلا تصاب بجرح يمنعها عن السير، رحال الحيرة: الرحال التي تنسب إلى مدينة النعمان، الجدد: جمع جديد .

(٣) الراكضات: الجواري يركضن، ذيول: أواخر الثوب، الريط: الملاءة أو الكساء، فانقها: طيب عيشها، الهواجر: مفردها الهاجرة وهي الحر الشديد، الجرد: الأرض الجرداء.

(٤) تمزع: تسرع، غربا: حدة ونشاطا، الشؤبوب: الدفعة الشديدة من المطر .

(٥) احكم: كن حكيما، فتاة الحي: قيل إنها زرقاء اليمامة، وكانت ترى مسيرة ثلاثة أيام، شراع: مجتمعة قاصدة إلى الماء، الثمد: الماء القليل الذي يكون في الشتاء، ويجف في الصيف.

(٦) يحفه: يحيط به، جانبا: ناحيتا، النيق: الجبل، مثل الزجاجة: عينها صافية مثل الزجاجة، لم تكحل من الرمد: لم يصبها رمد فتحتاج إلى الكحل.

(٧) فقد: حسبي، وهو مرفوع على الابتداء، وقدني كذا أي حسبي كذا.

(٨) فحسبوه: عدوه، فألفوه: وجدوه.

٣٦- فكمَّلَتْ مائةً فيها حمامَتُها ∴ وأسرعتْ حِسْبَةً في ذلك العَدَدِ[١]

- ٤ -

٣٧- فلا لَعَمْرُ الذى مَسَّحْتَ كَعْبَتَهُ ∴ وما هُريق على الأنصاب من جَسَدِ[٢]

٣٨- والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها ∴ رُكْبَانُ مكة بين الغَيْلِ والسَّعَدِ[٣]

٣٩- ما قلتُ من سَيِّئٍ مما أُتِيتَ به ∴ إذا فلا رَفَعَتْ سَوْطى إلَىَّ يَدِى[٤]

٤٠- إلا مقالةَ أقوامٍ شَقِيتُ بها ∴ كانتْ مقالتُهم قَرْعًا على الكَبِدِ[٥]

٤١- أُنْبِئْتُ أن أبا قابوسَ أوْعَدنى ∴ ولا قَرارَ على زَأْرٍ من الأسَدِ[٦]

٤٢- مهْلا فِداء لكَ الأقوامُ كلُّهُمُ ∴ وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ[٧]

٤٣- لا تَقْذِفَنِّى بُركْنٍ لا كِفاء له ∴ وإن تأثَّفَكَ الأعداءَ بالرِّفَدِ[٨]

٤٤- فما الفراتُ إذا هبّ الرياحُ له ∴ تَرْمِى غواربُه العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ[٩]

---

(١) أسرعت حسبة: أى أسرعت فى حساب الحمام، والحسبة هيئة الفعل.

(٢) فلا لعمر: قسم، مسحت كعبته: التمس بركتها، هريق وأريق: بمعنى واحد وهو سال وصب، الأنصاب: الأحجار التى كانوا يذبحون عليها القرابين لآلهتهم، الجسد: الدم اللاصق.

(٣) المؤمن: الذى أمنها وهو الله تبارك وتعالى، العائذات: اللاجئات إلى الحرم، والطير بدل من العائذات منصوب، والغيل والسعد: أجمتان كانتا بين مكة ومنى، والأجمة : الشجر الملتف.

(٤) ما قلت من سيئ: جواب القسم، فلا رفعت سوطى إلى يدى: يدعو على نفسه بشل اليد، وذكر السوط لخفته وكثرة الحاجة إليه.

(٥) القرع: الضرب.

(٦) أبوقابوس: كنية النعمان بن المنذر، أوعدنى: أى بالشر، قرار: استقرار، زأر الأسد: زئيره.

(٧) فداء: بالنصب على المصدرية، وجاز الرفع على الخبرية، أثمر: أجمع.

(٨) لا تقذفنى: لا ترمنى، الركن: كناية عن القوة، الكفاء: النظير، تأثفك: اجتمعوا حولك، الرفد: العصبة وجماعات الناس.

(٩) الغوارب: الأمواج، العبران: جانبا النهر (الشاطئان) ، الزبد: ما يقذفه النهر إذا اضطربت أمواجه.

٤٥- يَمُدُّه كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ .:. فيه رُكامٌ من اليَنْبُوتِ والخَضَد[1]

٤٦- يظلُّ من خوفه الملاحُ مُعتَصِمًا .:. بالخَيْزُرَانةِ بعْدَ الأيْنِ والنَّجَدِ[2]

٤٧- يوما بأجْوَدَ منه سَيْبَ نافلةٍ .:. ولا يَحُولُ عطاءُ اليوم دُونَ غَدِ[3]

٤٨- هذا الثناءُ فإن تَسمع به حَسَنًا .:. فلم أُعرِّضْ - أبيتَ اللعنَ - بالصَّفَدِ[4]

٤٩- ها إنَّ ذى عِذْرةٌ إلا تكنْ نَفَعَتْ .:. فإن صاحبَها مشارِكُ النَّكَدِ[5]

إيضاح المضمون:

١ - (الأبيات من ١ ـ ٦) فى وصف أطلال محبوبته مية، فيناديها بهذين المكانين المرتفعين، فقد أقفرت، وطال عليها الزمن، إذ وقف عليها وقت الأصيل يسائلها، فلم يسمع صوتا يرد عليه، ويصف آثارها وما أبقاه الزمن منها ، فلم يجد إلا محابس الخيل والدواب وما حفر حولها، ليحجز السيل عنها، مع أنها صلبة يصعب الحفر فيها على الجارية الشابة التى كانت حريصة على إرجاع التراب بالمجرفة إلى الساتر؛ ليرتفع ويعلو إلى مستوى ستائر البيت وأمتعته، التى جمعت فوق بعضها إيذانا بالرحيل، وإمعانا فى تصوير ما لحق بها من خراب

---

(١) المترع: المملوء، اللجب: ذو الصوت الشديد، الركام: الحطام المتراكم، الينبوت: شجر، الخضد: ما تكسر من الشجر.

(٢) خوفه: من خوف الفرات، معتصما: مستمسكا، الخيزرانة: الخشبة التى يدفع بها (الدفة)، الأين: التعب، النجد: العرق والكرب.

(٣) بأجود: خبر فما الفرات، السيب: العطاء، النافلة: الزيادة.

(٤) فإن تسمع به حسنا: أى تسمع به قولا حسنا، لم أعرض: لم أمدحك تعرضا وانتظارا لعطائك، أبيت اللعن: تحية كانوا يحيون بها الملوك، والمعنى: أنك أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه، الصفد: العطاء مكافأة وجزاء.

(٥) ها إن ذى عذرة: هذه معذرة إليك، مشارك النكد: حليف النكد.

بفعل الزمن الذى أفسدها، وأتى عليها مثل الذى جرى لنسر لقمان بن عاد.

٢ - (الأبيات من ٧ ـ ٢٠) فى وصف ناقة الرحلة والثور وكلاب الصيد: لقد خاطب الشاعر نفسه فى بداية هذه الأبيات قائلا: انصرف عما ترى من تغير الدار، وما أحدثه فيها الزمن الذى لا رجعة له، وارفع خشب الرحل على الناقة استعدادا للرحيل، لتنسى ما أنت فيه، فهذه الناقة قد كثر لحمها، وخرج الصوت من فمها، كصوت البكرة والحبل؛ للتعب والمشقة التى حلت بها، بسبب مشقات السفر، وكأن رحله قد حمله ثور وحشى، مستأنس متفرد لما لاحظه من نشاط الناقة وحدتها فى وقت إعياء الإبل وكلالها.

ويستطرد فى وصف الثور الوحشى، فيذكر ألوان قوائمه، وضمور بطنه، وأنه فى لمعانه يشبه السيف المسلول، ثم سارت إليه سحابة محملة بالمطر، تدفع رياحا شمالية باردة بعثت فيه النشاط والقوة مع هذا البيت السيئ الذى قضاه الثور فزعا من صوت الصائد بكلابه، وكان المبيت بحالة تسر الشامت على عدوه، أو أنه بات واقفا على أرجله من شدة البرد، وبعث الصائد كلابه على الثور فرفس برجله وهو ينهض على مفاصل قوية غير مترهلة، وأغرى الصائد كلبه (ضمران) بالثور فنشب بينهما صراع عنيف انقض الثور، فيه على الكلب بقرنه، وطعنه طعنة المدافع الشجاع عن حماه.

وأنشب الثور قرنه فى الكلب بمثل طعنة البيطار فى علاجه لكتف الحيوان، وجعل الثور قرنه يغوص فى صفحة الكلب إلى أن اخترقها حتى الصفحة الأخرى كصورة السفود (حديدة الشواء) التى تركت بلحمها على النار، فأخذ الكلب يتألم من فرط ما حدث به.

وبقى الكلب يعلك القرن ويقبض عليه؛ لأن القرن كان صلبا شديدا غير ضعيف لاستقامته وعدم اعوجاجه، ولما رأى الكلب الآخر (واشق) الموت السريع لصاحبه (الكلب ضمران) ولم يستطع معاونته ولا الانتقام له، حدثته نفسه بالإحجام عن لقاء الثور ؛ حفاظا على نفسه، إذ تسرب اليأس إليه بسبب فشل صاحبه فى السلامة وفى الصيد.

فتلك الناقة التى تشبه هذا الثور فى القوة والنشاط، حملته إلى النعمان بن المنذر صاحب الأفضال على القريب والبعيد.

فالبيت (العشرون) يمثل نقطة التحول من المقدمة الكلية ووصف الناقة وما أعقبها من حديث عن المعركة بين الثور والكلاب إلى مدح النابغة والاعتذار له واستعطافه، وهذا هو الغرض الأساسى للقصيدة.

٣ - (الأبيات من ٢١ ـ ٣٦) فى مدح النعمان بن المنذر:

ابتدأ النابغة المدح ـ بعد أن ذكر الناقة التى تصل به إلى النعمان ـ وقال: لا أرى فاعلا يفعل الخير مثله، ولا أستثنى أحدا من ذلك إلا نبى الله سليمان بن داود، إذ أمره الله بالنظر فى مصالح الناس، ومنعهم من الخطأ فى القول والفعل، كما أمره أن يذلل الجن، ويسخرهم فى

الطاعة، حيث أمروا ببناء مدينة تدمر بحجـــارة متميـــزة، وأن يقـيم السوارى بالرخام، وهكذا يستطرد النابغة فيقترب بممدوحه من مرتبـــة الأنبياء، إذ أمر الله سليمان أن ينفع من يطيعه، ويعاقب مـــن يعـصاه ويخرج عليه بطريقة تمنع الظالم من ظلمه ولا تكـشف عـن كراهـــة وحقد، وليس بين النابغة و(سليمان) فى الفضل إلا يسير بمثـــل سـبق الجواد المتقدم على الثانى فى الحلبة، فهو يحض النعمان على أن يقعد عنه، ولا يضمر له حقدا؛ لأنه ليس مثله، ثم ينتقل إلى الإشادة بكرمه، فيذكر أنه يمنح الناقة بما تحمل من هبات بلا قيد ولا ضيق، ويعطـــى المائة من الإبل السمينة التى ترعى وتتغذى بأفضل أنواع النبات فـــى أرض (توضح) حيث تُركت سائمة مهملة بأوبارها؛ لعـدم اسـتعمالها والحاجة إليها، كما يهب النوق الجيدة التى سلمت من حـك مرافقهـا بآباطها فلا تصاب بجرح يمنعها من السير، وعليها الرحـال الجديـدة التى تنسب إلى الحيرة، كما يهب الجوارى الراكضات بـالملاءات أو الملاحف البيضاء، وهن فى طيب من العيش، حيث لا يتعرضن لوهج الشمس، فهن كالغزلان الحسان . ويعطى الخيل التى تشبه فى سرعتها الطير الخائف من المطر البارد.

ويطالب الشاعر ممدوحه بأن يكون حكيما معه، ولا يقبل كلامـا وصله، وسُعى به إليه، ليكون كتلك الفتاة التى أحكمت القول والتقـدير فى الحمام الذى كان بين جانبى جبل، ويصعب إحصاؤه، لكنها تبعتـه بعين صافية لم تصب برمد فتكحل منه، وقد تمنت أن يكون الحمام لها، فإنه كله ويضاف إليه مثل نصفه فيكفى ذلك، وعدوا الحمـام فوجـدوه

كما حسبت، وكان عدده ستا وستين، وأضيف إليه مثل نصفه (ثلاث وثلاثون) فصار الحساب تسعا وتسعين وأضيفت إلى حمامتها، فصارت الجملة مائة. ويطلب الشاعر من ممدوحه أن يصيب فى أمره مثل هذه الفتاة (زرقاء اليمامة) التى لم تخطئ فى الحسبة والتقدير .

٤ - (الأبيات من ٣٧ ـ ٤٩) فى الاستعطاف والاعتذار: بدأ النابغة استعطافه واعتذاره للنعمان بالقسم وبالأيمان المغلظة وببركة الكعبة وبالذبائح التى سال دمها على الأحجار، كما أقسم بالله الذى أمن الكعبة والطير الذى يلجأ إليها، فلا يمسه الركبان ولا يصطادونه من الأشجار الملتفة، بين مكة ومنى، ويقسم أنه لم يقل شيئا مما ذكر، ويدعو على نفسه بالهلاك، وشل اليد إن كان ما قاله الوشاة صحيحا، فهو لم يقل شيئا مما ذكروه وكان اتهامهم مؤذيا وكأنه ضرب على كبده .

ويصور الشاعر نفسه ضعيفا أمام الذى يشبه الأسد إذا زأر، فلا استقرار لأحد بجواره . ويذكر أن الناس جميعا فداء للنعمان، كما يفديه الشاعر نفسه بماله وولده. وقال له: لا ترمنى بما أعجز عنه، فإن الأعداء قد التفوا بك وتآمروا ضدى، أو لا ترمنى بقوة لا يقدر عليها الأعداء إذا اجتمعوا لك، ويصور كرم الممدوح بنهر الفرات عندما تهب الرياح عليه، وتضطرب أمواجه، ويرمى بالزبد على شاطئيه، وينساب ماؤه حاملا ما يقتلعه من الأشجار والنباتات المهشمة، ويخاف منه قائد السفينة، فيلجأ إلى التحصن بالمجداف أو بذيلها (دفتها) من

التعب والإجهاد والخوف، فلم يكن النهر ـ بهذا الفيضان ـ بأكرم من النعمان الذى لا يمنع عطاؤه الزائد (غير الواجب) فى يوم أن يمنح ويهب فى اليوم التالى، وقد قدم له ثناء حسنا لا ينتظر منه جزاء أو مكافأة، عما يكون قد وصله من وشاية، فإن لم يقبل هذا الاعتذار فإنه ـ أى النابغة ـ سيكون حليفا للهم والنكد وسوء المصير .

ملامح التصوير والتعبير:

يعد الشعر عند العرب ديوانا لحياتهم وسجلا لمفاخرهم، وتصويرا لبيئتهم وتعبيرا عن ملامح الحياة عندهم .

ودالية النابغة واحدة من القصائد الجاهلية المتميزة بألفاظها ومعانيها، خاصة ما اتصل منها بالمدح والاعتذار، اللذين تميز فيهما عن كثير من الشعراء، وقد كان واحدا بين الذين تكسبوا بفنهم لحساب الرغبة الجامحة فى الثروة، واستثمار علاقته بأمراء الحيرة، وبالغساسنة أيضا فى الارتقاء بمكانة ذبيان، وحشد التأييد لها فى صراعها الطويل مع عبس فى عصر النابغة، بخاصة .

وتبدأ الدالية .. التى بين أيدينا ـ بوصف ديار مية، وقد كان نسيب الشاعر خاضعا لنظام الجاهليين، ولا يختلف فيه كثيرا عن معاصريه، فلا يهتم بتصوير المشاعر والأحاسيس قدر حرصه على العناية بالصور الحسية، وما تنطوى عليه من استعارات وتشبيهات، لينتقل بعد ذلك إلى وصف الناقة التى تشبه الثور الوحشى، ويمارس

منهاج أكثر الجاهليين فى الاستطراد إلى أن يدلف إلى غرضه الأساسى.

ويبدأ البيت الأول بقوله: يا دارمية، وجاء نداؤه للدار أسفا عليها، وتوجعا لما لحق بها بعد فراق أصحابها لها (استعارة مكنية) أو النداء لأهلها بأسلوب المجاز المرسل، أى يا أهل دار مية، وكأنه يسأل الطلل عن حبيبته دون أن يلقى جوابا، وربما كان ذكره للعلياء والسند (موضعين) إشارة إلى علو مكانة الدار، وارتفاع شأن أهلها، أما قوله: (أقوت) فهو تعبير عن اليأس والتوجع، والتفات من الخطاب إلى الغيبة، وتحديق فى تأثير الزمن، وإلا فقد كانت الصياغة المتوقعة هى (أقويت) قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾[١].

ويأتى البيت الثانى ليعلن وقوف الشاعر فى الدار، وقد صغر (الأصيل) ليؤكد قصر الوقت، وأنه لحزنه وتوجعه لم يمنعه ضيق الزمن من الوقوف فى الدار. وسؤالها (ترشيح للاستعارة) أو للرغبة فى السؤال عن أهلها. وقوله: "عيت جوابا" ترشيح آخر، أو استعارة جديدة.

ويواصل تصويره لتضاريس الدار فيشبه النؤى بالحوض ـ فى البيت الثالث ـ تشبيها حسيا ساذجا، أما الاستعارة المبتكرة ففى جعله صعوبة الحفر فى الأرض ظلما لها، حتى قيل إن النابغة أول من أعطى هذا الاسم أو الوصف للأرض.

---

(١) يونس ٢٢ .

وفى البيت الرابع ضرورة شعرية فى كلمة: (أقاصيه)، وقوله: "لبده" أى سكنه، فاستعار شكل الوبر لمحتويات الساتر الترابى، وشبه فى البيت الخامس مجرى الماء بالسبيل (تصريحية).

وشبه فى البيت السادس ما أحدثه الزمن بدار محبوبته بما حدث لنسر لقمان بن عاد الذى يضرب به المثل فيقال: "أتى أبد على لبد" ويكتمل بهذا البيت ما رغب الشاعر فى إبرازه عن صورة الدار، ووصف تأثير الزمن فيها، وبيان حالها بعد فراق الأهل لها.

وتكشف هذه الأبيات عن قدرة النابغة فى وصف الطبيعة ورسم ملامح البيئة، منطلقا إلى وصف بعض المظاهر للطبيعة المتحركة، والتى استهلها فى البيت السابع بالحديث عن الناقة التى قطع بها الصحراء للوصول إلى مقصده، ويستطرد فى وصف الثور الوحشى وكلاب الصيد، وكأنه موضوع مستقل بذاته.

وقوله: "فعد عما ترى" تجريد حيث جعل الشاعر من نفسه شخصا آخر يخاطبه، وقوله: "العيرانة" تشبيه للناقة بالعير فى القوة والنشاط، وأبرز فى البيت الثامن قوة الناقة، فصورها كأنها رميت باللحم ـ وشبهها فى البيت التاسع بثور وحشى مستأنس، وأن هذا الثور ـ كما جاء فى البيت العاشر ـ أبيض لماع كسيف الحداد، والمصير كناية عن البطن، وأنه وحشى متميز ـ من نتاج وجرة (فلاة) وذلك فى البيت الحادى عشر، وأنه يشعر بما يحسه الإنسان من البرد والنشاط، وتستكمل صورة الوحش فى البيت الثانى عشر ـ حيث

يشعر بالروع والفزع من صوت الكلاب، وأن مبيته كان بالحالة التي تسر الشامت على عدوه.

ويستطرد في البيت الثالث عشر إلى وصف الصائد وكلابه، حيث دارت بينها وبين الثور معركة حامية استعار الشاعر فيها وصف (الحرد) ــ وهو استرخاء أعضاء البعير ــ للثور، وبدأ الكلب (ضمران) في الاشتباك (البيت الرابع عشر)، وكان في موضع يحضه فيه صاحبه على الدنو من الثور، الذي أهوى على الكلب فطعنه بقرنه طعنة تشبه صنيع البيطار عند مداواة الإبل من العضد.

وخص الفريصة في البيت الخامس عشر؛ لأنها موضع للإيذاء، كما شبه القرن (في البيت السادس عشر) في حال خروجه من صفحة الكلب إلى الصفحة الأخرى بالسفود الذي ترك حتى نضج ما عليه.

وصور الكلب في البيت السابع عشر وهو يعلك أعلى القرن، وما خرج منه منقبضا إلى أن لفظ أنفاسه، وينتقل إلى تصوير الثاني (واشق) في البيت الثامن عشر بالشخص البائس، الذي يرغب في الانتقام، ولا يقدر عليه، ويمثل حالته في البيت التاسع عشر بصورة الإنسان الذي يحدث نفسه بما يموج فيها، أو أنه استعار صورة الإنسان العاقل في سيطرة نزعة الخوف والحذر والترقب عليه بصورة الكلب الذي يرغب في الثأر ولا يقدر عليه.

وذكر أن الناقة هي التي توصله إلى النعمان، فيتجه في منتصف البيت العشرين إلى المدح المباشر والتأكيد على تفرد ممدوحه على

الناس، ويضفى على أسلوبه بعضا من ملامح الشعر الملحمى الذى يستعان فيه بالخوارق والجن، وبعض معطيات الطبيعة وأحداث التاريخ؛ ليرسم صورة لأبى قابوس، واستطرد إلى الحديث عن نبى الله سليمان، ومآثره الخالدة فى هداية البشر، وتسخير الجن ومعاقبة المذنبين، ثم ينصرف إلى تعداد مآثر الملك، وذكر بعض الحوادث الخارقة كقصة زرقاء اليمامة، التى كان يضرب بها المثل فى حدة البصر، ويبالغ فى الحديث عن كرم النعمان ولا يتخلى عن ظاهرة الاستطراد التى خضع لها كثير من الجاهليين.

ويعدد فى أبيات المدح عطاءات الممدوح، فهو يمنح النوق والإبل والجوارى والخيل على اختلاف هيئاتها وأعدادها.

وقد شبه الشاعر الجوارى بالغزلان الحسان التى تظهر محاسنها فى الأرض الجرداء الخالية، كما شبه الخيل فى سرعتها بطير أصابها مطر شديد بارد، ويتمنى أن يشبه الملك فتاة الحى ــ وهى من بقايا طسم وجديس ــ فى القول والتدبير، كما شبه صفاء عينيها ــ التى لم تصب برمد ــ بالزجاجة الصافية، ويستطرد فيدلل على حدة بصرها بحساب عدد الحمام الذى شاهدته بين جانبى الجبل، حيث لم ينقص ولم يزد (طباق).

ويبدأ فى استعطافه والاعتذار إليه من البيت السابع والثلاثين، فأبرز اتهام خصومه له بمثابة الضرب على كبده، مصورا الاتهام بصورة حسية مؤثرة، ثم جعل النعمان أسدا يزأر، وعبر بالركن كناية

عن الشدة والقوة، وذكر أنه لا يقل كرما وقوة عن نهر الفرات، ويبرز صورة النهر فى ارتفاع أمواجه وحمله للأشجار والنباتات، ويتضاءل أمام النعمان ويستعطفه، فيطلب منه أخيرا أن يقبل عذره، وإلا فمصيره النكد وفقدان النعيم.

التعليق والنقد:

١ - إن الحديث عن الأطلال فى أول القصيدة لا يختلف كثيرا عن منهج القدماء فى الوقوف على الديار، ووصفها بعد أن تركها أهلها، ونشهد ذلك عند أصحاب الحوليات بخاصة، والذين لُقّبوا بالمحككين أو بعبيد الشعر ومنهم أوس بن حجر، وزهير بن أبى سلمى، والنابغة الذى قال:

وقفت فيها أصيلانا أسائلها ∴ عيّت جوابا وما بالربع من أحد

كما قال زهير فى معلقته:

وقفت فيها من بعد عشرين حجةً ∴ فلأيا عرفتُ الدار بعد توهم

وانتقل النابغة فى معلقته إلى الحديث عن الناقة، واستطرد فذكر الثور الوحشى وكلاب الصيد، وهذه طريقة لا خلاف فى ذيوعها على ألسنة الكثيرين من أهل الجاهلية، فعنترة فى معلقته يذكر الناقة الشدنية الخطارة، ثم يشبهها بالظليم وذكر النعام، ويستطرد فى وصفه كأنه ليس فى معرض الحديث عن الناقة.

ويخلص شاعرنا من الكلام عن الدواب إلى مدح النعمان بأسلوب رائع جيد فى الانتقال من فكرة إلى أخرى.

فتلك تُبْلِغنى النعمانَ إن له فضلاً ∴ على الناس فى الأدْنَى وفى البَعَد

لكنه يعود إلى الاستطراد، فيتحدث عن نبى الله سليمان بن داود مما أفقد القصيدة بعضا من ترابطها، وقد أنكر الدكتور طه حسين أن يكون هذا الكلام شعر النابغة[١]، وأن المدح الحقيقى فى قوله عن النعمان:

الواهبُ المائةَ المِعْكاء زينَّها ∴ سعدانُ تُوضِحَ فى أوبارها اللِّبَدِ

ويستطرد إلى فتاة الحى فيقول:

احْكُمْ كحكم فتاةِ الحى إذْ نَظَرَتْ ∴ إلى حَمَامٍ شِرَاعٍ واردِ الثَّمَد

والكلام عن الاستطراد هنا لا يختلف عما سبق، فإن الأبيات التالية فيها تكلف وصناعة لفظية، لا تتلاءم مع الخصائص المميزة لشعر النابغة، وقال الدكتور طه حسين، وتبعه الدكتور شوقى ضيف بانتحال المقطع الخاص بزرقاء اليمامة، وحديثها عن الحمام، وهو قول أجد راحة فى قبوله والاطمئنان له والثقة فيه، لكن المبالغة فى الشك والاتهام بالنحل على الإطلاق لا يخدم الدراسة النقدية للأدب الجاهلى.

وإذا كان النابغة قد بالغ فى تذلله وبيان ضعفه وتضاؤله إمعانا فى تكبير ممدوحه ورفع شأنه؛ فلأنه كان حريصا على مصالح قومه وتوثيق علاقتهم بحكام الحيرة وتقوية شوكتهم على القبائل المجاورة،

---

(١) الأدب الجاهلى ص٣٠٤ طبع دار المعارف بمصر.

وفك أسراهم أينما وجدوا، ثم يـأتى بعـد ذلـك التكـسب والطمـوح الشخصى، كما سبق القول.

٢ - تتضح عناية النابغة بألفاظه ومعانيه وأخيلته، ومن ثم نشهد بداوة وغرابة فى الألفاظ فى كثير من الأبيات بسبب نشأته ورضـاعته للغة فى البادية، لكن تحضره والتزامه بذوق معاصريه لم يمـح مـن ذاكرته ما كان قد استقر فيها من محصول لغوى وفير، فـضلا عـن اتساع خياله، الذى أضفى على شعره جمالا ورونقا وبهاء، بما ينطوى عليه من تشبيهات واستعارات منتزعة من المكان والزمان.

وقد ذكرنا أمثلة من شعره ليرجع إليها من أراد، كما أنه أضـاف كثيرا من المعانى، التى لم يألفها معاصروه من الشعراء، وأبـدع فـى المدح، وتفوق فى الاعتذار.

٣ - يكشف التحليل السابق للنص عن دلائل البيئـة، فقـد بـدأ بالسؤال عن دار محبوبته، ووصف الثور الوحشى، وكـلاب الـصيد، وزرقاء اليمامة، وحمام الجبل، ونهر الفرات وغيرها.

٤ - تنتمى معلقة النابغة عروضيا إلى البحر البسيط، وهو مـن الأوزان الصالحة للغناء، خاصة مع عروضه وضربه المخبونين على وزن (فعل) وإن كان حرف الدال وهو الروى لا يتواكـب مـع خفـة البسيط، كما أن الغموض والثقل الذى يشمل بعض الألفـاظ لا يجعـل الموسيقى الداخلية فى البيت تلائم الوزن الـشعرى، مـع أن بعـض

مقاطعها قد ذكرت ضمن الشعر المغنى فى الترجمة للنابغة بكتاب الأغانى.

ونعجب كيف يسجل (لويس شيخو) أن المعلقة من الطويل[١]، ونظن أنه من الأخطاء التى غفل المصححون عنها.

أما عاطفة الشاعر فتتميز بالصدق الذى لا يتعارض مع تكسبه بفنه، فقد كان صادقا فى عودته إلى النعمان، وصادقا فى مدحه والإشادة به، والاعتذار إليه، وأن أخيلته لا تبتعد عن البيئة البدوية أو الحضرية فى ديار نجد، وقصور الحيرة وبلاد الشام.

٥ - أما منزلة الشاعر ومكانته بين شعراء عصره فقد أثبتها القدماء وتحدثوا عنها بإفاضة، فمرة يقولون: إنه أشعر العرب، وإنه أشعر الناس وإن عمر بن الخطاب ـ بما له من ثقافة فى نقد الشعر ـ قد فضله على الشعراء أجمعين، وقد يكون ذلك مبالغة من الرواة؛ لأن تفضيل شاعر على الآخرين مطلقا غير مقبول، وإن كان بيان مكانته عند أمير المؤمنين لا يتعارض مع حديث الفاروق عن زهير الذى فجر كثيرا من المعانى للشعراء، ولم يترك لهم إلا القليل.

وكان النابغة ذا بصر بنقد الشعر، إذ رووا أن الشعراء احتكموا إليه فى عكاظ، وأنه أعجب بشعر الأعشى (أبى بصير) وأثنى على الخنساء، وأغضب حسان بن ثابت فى رواية رفعها أبوالفرج إلى الأصمعى (عبدالملك بن قريب) قال:

---

(١) شعراء النصرانية ص٦٥٨ .

"كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. قال: وأول من أنشده الأعشى ثم حسان بن ثابت ثم أنشده الشعراء، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد":

وإن صخرًا لتأتم الهداةُ به .·. كأنه علمٌ فى رأسِه نارُ

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقام حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك . فقال له النابغة: يا ابن أخى أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليلِ الذى هو مُدركى .·. وإن خلتُ أن المنتَأى عنك واسعُ

خطأ طيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ متينةٍ .·. تمُدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازِعُ(١)

قال: فخنس(٢) حسان لقوله"(٣).

وتكشف الرواية عن بواكير النقد الأدبى فى الجاهلية، وتُبرز مكانة النابغة بين معاصريه، واحتكامهم إليه، وإن تميز عنهم بالذوق النقدى الذى تجلى فى الأزمنة التالية .

---

(١) خطاطيف حُجْن: حدائد البئر المعوجة التى تستخرج بها الدلاء (جمع خطاف) ومفرد حجن: أحجن والأنثى حجناء.
(٢) خنس: انقبض أو تنحى .
(٣) الأغانى جـ١١ ص٦ .

زهير بن أبى سُلْمى

شاعر الحب والسلام

زهير بن أبى سلمى واحد من الشعراء الثلاثة المقدمين فى العصر الجاهلى، والآخران هما امرؤ القيس والنابغة الذبيانى، وكان زهير مقدما عند أهل الحجاز.

وأبوه ربيعة بن رباح الذى يكنى بأبى سلمى وهو من مزينة من مضر، وكان يقيم هو وقومه فى بلاد غطفان فى موضع يقال له (الحاجر) من أرض نجد (جنوب الرياض الآن).

ولد زهير فى تلك المنطقة حوالى سنة (٥٢٠م)، ونشأ فى بيئة شاعرة، فأبوه من الشعراء، وقد قرأت شعرا له فى الأغانى لأبى الفرج، وكان خاله بشامة بن الغدير شاعرا، كما كانت أختاه سلمى والخنساء شاعرتين، ولما مات أبوه تزوجت أمه من شاعر جاهلى كبير هو أوس بن حجر ، فروى زهير شعره وتتلمذ عليه، ومن عجب أن يمتد الشعر إلى أبناء زهير وأحفاده فابناه كعب وبجير شاعران، وعقبة ابن كعب الملقب بالمضرب شاعر، كما كان ابنه العوام بن عقبة بن كعب شاعرا، وما زلت أذكر بيته الذى قال فيه:

وخُبرت سوداءَ الغميمِ مريضةً ∴ فأقبلت من أهلى بمصرَ أعودُها

وقد عاش زهير أثناء الحرب التى شملت قبيلتى عبس وذبيان، والتى عرفت بحرب داحس والغبراء، كما شهد الشاعر عنترة بعضا

من أحداثها، وقد اتصل زهير بخاله بشامة بن الغدير، وأخذ عنه جودة الرأى وجمال الشعر. وكان بشامة غنيا موسرا، ولما حضرته الوفاة ــ ولم يكن له ولد ــ جعل نصيبا من ثروته لزهير، ولذلك عاش شاعرنا فى سعة من المال الذى انتقل إليه من خاله، أو مما قدمه له هرم بن سنان (سيأتى ذكره) وأحب زهير الشعر، وأجاد حفظه وروايته، فاتصل بزوج أمه (أوس بن حجر) وصار رواية له، مثلما صار الحطيئة وكعب بن زهير راويين لشعر زهير .

وفى أخبار زهير أنه تزوج من امرأة تسمى (ليلى) وتُكْنَى بأم أوفى، وقد طلقها بعد موت أولادها صغارا، ثم تزوج بامرأة أخرى تسمى كبشة بنت عمار الغطفانية، وأنجب منها أولاده، وهم سالم الذى مات فى حياة والده، ورثاه زهير ببعض شعره، وكعب وبجير، وقد أسلما وامتدحا رسول الله (ﷺ) ، ويقال: إن زهيرا قد أسن فبلغ عمره مائة وثمانى سنوات. وأراد العودة إلى أم أوفى بعد عشرين سنة فأبت. ويقال: إنه توفى قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة، وقيل بعد البعثة بعام واحد، ولم يدخل فى الإسلام بينما دخل ابناه كعب وبجير .

شعر زهير:

أسهمت عوامل كثيرة فى تفوق زهير، فقد نشأ فى بيئة بدوية شاعرة، وعاش فى عصر كثر فيه المجيدون من الشعراء، وشارك فى الملاحم الحربية التى نشبت فى الجزيرة العربية، وفى مقدمتها حروب عبس وذبيان، أسهمت تلك البيئة فى إثراء موهبته ونموها، ولذلك قالوا: "لم يتصل الشعر فى أهل بيت من العرب كما اتصل فى بيت

زهير" وكانت ملازمته لخاله بشامة وتتلمذه على أوس بن حجر وحرصه على رواية الشعر أهم الأسباب لترقيه فى هذا الفن، وأعجب عمر بن الخطاب بشعره أيما إعجاب، فقال عنه: "زهير شاعر الشعراء؛ لأنه كان لا يعاظل فى الكلام، وكان يتجنب وحشى الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه"(١) (المعاظلة فى الكلام: المداخلة فيه)، وقال عمر لبعض ولد هرم: "أنشدنى فى بعض مدح زهير أباك، فأنشده، فقال عمر: إن كان ليحسن فيكم القول. قال: ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء، فقال: قد ذهب ما أعطيتموه، وبقى ما أعطاكم"(٢) .

وجُمع ديوان زهير، وطبع عدة طبعات، بعضها برواية الأصمعى (بَصرى)، والبعض الآخر بروية ثعلب (كُوفى)، وتشدد الأصمعى فى روايته، فلم يذكر لزهير إلا ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ، وتزيد الرواية الثانية عن الأولى بعشرات القصائد؛ لأنها عن طريق حماد وابن الكلبى المعروفين بكثرة الوضع.

وكان زهير والحطيئة وأشباههما يمثلان اتجاها فريدا فى العصر الجاهلى، إذ عمدا إلى تحكيك الشعر عن طريق إبقائه عندهم لمدة عام، وعرف هذا الاتجاه بمدرسة عبيد الشعر على حد قول الأصمعى: "زهير بن أبى سلمى والحطيئة، وأشباههما عبيد الشعر" بمعنى خضوعهم لإرادته الفنية مع العناية بتنسيق الألفاظ وإحكام الصنعة، وقال الحطيئة: "خير الشعر الحولى المحكك" واعتنى زهير بشعره

---

(١) الأغانى، جـ١٠، ٢٨٩ .

(٢) العمدة لابن رشيق جـ١ صـ٨١ طبع دار الجيل بيروت.

عناية كبيرة، وعرفت قصائده بالحوليات، التى يكتبها فى أربعة أشهر، ويصلحها فى أربعة، ويعرضها على الخاصة من الشعراء فى أربعة أشهر، ثم يذيعها فى الناس بعد ذلك.

وتنوعت فنون شعره بين المدح والغزل والوصف والهجاء والرثاء والحكمة، وأشهرها المدح، إذ أفاض فى مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف سيدى بنى مرة، اللذين أصلحا بين عبس وذبيان، وحقنا دماء القبيلتين بعد حروبهما الطويلة، التى عرفت بحروب داحس والغبراء.

وقد سجل مديح هذين الرجلين وجودهما فى الصلح بين القبيلتين المذكورتين فى معلقته التى تبلغ أربعة وستين بيتا فى بعض الروايات. وسوف نختار منها عددا من الأبيات كتعبير عن أهم الأفكار التى عرض لها زهير، وسيكون من بين المختار ثمانية أبيات فى الحكمة التى لا يقدر على صوغها وإحكامها إلا زهير، قال(١):

١- أمِنْ أم أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّم ∴ بحَوْمَانَةِ الدرَّاج فالمُتَثلَّم(٢)

٢- ودارٌ لها بالرَّقْمَتَيْن كأنها ∴ مَراجيعُ وَشْمٍ فى نواشرِ مِعْصَم(٣)

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى صـ١٩ طبع المكتبة الثقافية - بيروت ١٩٦٨م ، وشرح المعلقات السبع للزوزنى - مكتبة المعارف - بيروت.

(٢) أم أوفى: امرأة كانت لزهير، ثم طلقها، الدمنة: ما اسود من آثار الدار والبعر والرماد وغيرها، الحومانة: القطعة من الرمل، وحومانة الدراج والمتثلم: موضعان بنجد .

(٣) الرقمتان: حرتان إحداهما بالبصرة والأخرى بالمدينة، المراجيع جمع مرجوع وهو ما جدد وأعيد من الوشم ، الوشم : الخضرة التى تحدث من غرز الإبرة. نواشر المعصم: عروقه .

٣- بها العِيْن والآرامُ يمشِين خِلْفَةً ∴ وأطلاؤُها يَنْهَضْنَ من كل مَجْثَم[١]

٤- وقفتُ بها من بَعدِ عشرين حِجّةً ∴ فلأيًا عَرفْت الدارَ بعد توهُّم[٢]

الشرح والتعليق والنقد:

افتتح زهير معلقته بالوقوف على الأطلال على عادة الجاهليين، فذكر أن دمنة فى ديار أم أوفى صامتة لم تبين، ولعله أراد ساكنى هذه الدمنة، ثم انطلق إلى وصف دار أو ديار أم أوفى، فشبهها بمراجع الوشم فى عروق المعصم، ونظر الشاعر إلى دار أم أوفى فوجد بها حركة دائبة من قبل البقر الوحشى والظباء التى تلحق بها صغارها من مجاثمها فى نشاط وخفة. ثم ذكر أنه تعرف على الدار بمشقة لطول عهده بها، الذى امتد إلى عشرين سنة. ولما أتم الشاعر تعرفه على الدار خاطب ربعها فقال:

ألا انْعِمْ صباحًا أيها الربعُ واسْلَمِ

واعتمد شاعرنا على الأسلوب الهادئ والتصوير الخيالى فى إبراز معانيه. فانظر مثلا إلى قوله: "دمنة" حيث أتى بها نكرة؛ لتكون

---

(١) العين: مفردها أعين وعيناء (يلاحظ أن العين فى العين قد كسرت لمجاورتها الياء على غير قياس) والعين: البقر ذو العيون الواسعة، الآرام: جمع رئم (تخفف إلى ريم) وهو الظبى الخالص البياض. خلفة: أى يخلف بعضها بعضا كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان آية ٦٢) . الأطلاء: مفردها الطلا وهو ولد البقرة الوحشية، ويستعار لولد الإنسان، مجثِم بفتح الثاء وكسرها: المكان الذى يقام فيه مثل البروك للابل (المربض).

(٢) الحجة: السنة. اللأى: الجهد والمشقة.

أشمل وأعم فى توضيح الصمت الذى انتاب ديار أم أوفى، مع أن البيت الثالث يكشف عن حركة لا تتلاءم مع هذا الصمت! لكن .. أى صمت هذا؟ إنه صمت أهل الديار، كتعبير عن تنكرهم للشاعر الذى طال غيابه. ولاحظ معى ملامح التصوير المتجسد فى نفى إسناد الكلام للدمنة (استعارة مكنية) ، أما فى البيت الثانى فقد اعتمد على التشبيه حيث شبه الدار بما فيها من آثار بالوشم المرجوع (المكرر) وهذه صورة أظن أنها متكررة على ألسنة الشعراء ومنهم طرفة الذى قال:

لِخَوْلَةَ أطلالٌ بِبَرْقَةِ ثَهْمَدِ ∴ تلوحُ كباقِى الوَشْمِ فى ظاهرِ اليَدِ

فالصورة التشبيهية واحدة عند الشاعرين.

والحركة فى البيت الثالث هل هى حركة وحوش أم حركة نساء؟ تقول الكتب وظاهر الشعر: إنها حركة وحوش ، وأقول: إنها حركة نسائية، وإلا فما المعنى فى تفرد هذا البيت بتلك الحركة بدون تناسق لما قبله ولما بعده، وربما ناسب حركة النساء قوله فى بيت تال، يصف ارتحال القوم ومعهم الظعائن (النساء) فى الهوادج.

تَبَصَّرْ خليلِى هل ترى من ظَعائنٍ ∴ تحمَّلْن بالعَلْياءِ من فوقِ جُرْثُم[1]

وبعد أن انتهى من وصف ديار أم أوفى، التى وقف عليها، انتقل إلى غرضه أو موضوعه الأساسى وهو مدح هرم والحارث، ووصف الحروب التى نشبت بين عبس وذبيان، فقال:

---

(١) جرثم: ماء لبنى أسد .

٥- فأقسمْتُ بالبيت الذى طاف حولهُ ∴ رجالٌ بَنَوْه من قريش وجُرْهُم[١]

٦- يمينًا لنعم السيدانِ وُجِدْتُما ∴ على كل حالٍ من سَحيل ومُبْرَم[٢]

٧- تَداركْتُما عَبسًا وذبيانَ بعدما ∴ تفانَوْا ودقُّوا بينهم عِطرَ مَنْشِم[٣]

٨- وقد قُلْتما: إن نُدرِكِ السِّلْم واسعا ∴ بمالٍ ومعروف من القول نَسْلَم[٤]

٩- فأصبحتُما منها على خيرِ مَوْطنٍ ∴ بَعيدَيْن فيها من عُقوقٍ ومَأثم[٥]

١٠- عَظِيمين فى عُلْيا مَعَدٍّ ـ هُديتما ـ ∴ ومنْ يسْتَبح كنزا من المجد يَعْظُم[٦]

١١- ألا أبلغِ الأحلافَ عنى رسالةً ∴ وذُبيانَ هل أقْسمتُمْ كلَّ مُقْسَم[٧]

---

(١) البيت: الكعبة، قريش (فهر) وهو ولد النضر بن كنانة (انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى ص١٤٠)، جُرهم: قبيلة يمنية قديمة تزوج منها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فغلبوا على الكعبة بعد وفاته، واستحلوا حرمتها، ثم استولت عليها خزاعة إلى أن عادت إلى قريش.

(٢) السحيل: الخيط المفتول على قوة واحدة، أو خيط واحد لا يضم إليه آخر، المبرم: الخيط المفتول على قوتين أو أكثر، أو خيطان مفتولان أو أكثر.

(٣) عبس وذبيان: قبيلتان، التدارك: التلافى، التفانى: التشارك فى الفناء، منشم: قيل فيه: إنه امرأة عطارة اشترى قوم منها جفنة من العطر، فقاتلوا العدو الذى تحالفوا على قتاله حتى فنوا جميعا، فتطير العرب بعطر منشم.

(٤) السلم: الصلح وهو يذكر ويؤنث، وتكسر سينه وتفتح، واسع: ممكن، نسلم: أى نسلم من الحرب.

(٥) الضمير فى (منها) يعود على السلم لأنه يذكر ويؤنث، وقيل: راجع إلى الحرب، العقوق: العصيان، المأثم: الإثم (بعيدين : حال).

(٦) عظيمين: حال منصوب، ويعظم: يأتى بأمر عظيم أو يصير عظيما، أو يعظمه الناس، الاستباحة: وجود الشئ مباحا، أو جعله مباحا. الكنز: أصله المال المدفون، وأطلق هنا على المجد مجازا، والكنز: بمعنى المجد يعنى الكثرة والعظمة، العليا: تأنيث الأعلى، وعليا معد: أرفعها، هديتما: دعاء لهما.

(٧) الأحلاف : جمع حليف وهم حلفاء ذبيان، وقيل: الأحلاف: أسد وغطفان وطيئ، هل أقسمتم كل مقسم؟ أى هل حلفتم على إبرام الصلح كل حلف؟ فتحرجوا وتجنوا.

١٢- فلا تكْتُمُنَّ الله ما فى نفوسِكم ∴ لِيَخْفَى، ومهما يُكْتَم الله يَعْلَم[١]

١٣- يُؤخَر فيوضَع فى كتابٍ فيدَّخرْ ∴ ليومِ الحسابِ أو يُعجَّل فيُنْقَم[٢]

١٤- وما الحربُ إلا ما علِمْتم وذقتمُ ∴ وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم[٣]

١٥- متى تَبعثُوها تبعثوها ذميمةً ∴ وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُموها فتَضْرَم[٤]

١٦- فتعرُكُكُم عركَ الرحى بثفالها ∴ وتَلْقَح كِشافا ثم تُنْتَج فتُتْئِم[٥]

١٧- فتُنْتِج لكم غِلمانَ أشأمَ كلُّهم ∴ كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضَع فتَفْطِم[٦]

١٨- فتُغْلِل لكم ما لا تُغِلُّ لأهلِها ∴ قُرىً بالعراق من قَفِيزٍ ودِرْهَم[٧]

---

(١) لا تكتمن الله: لا تضمروا خلاف ما تظهرون.

(٢) يؤخر: يؤخر عقابه.

(٣) الذوق: التجربة، الحديث المرجم: الذى يرجم فيه بالظنون أى غير المتيقن، وأصل الرجم: الرمى بالرجام وهى الحجارة، ثم قيل: رُجم بالظن أى رمى به.

(٤) الضرى: شدة الحرب واستعار نارها، ضَرمت النار تضرم ضرما، واضطرمت وتضرمت: التهبت. تبعثوها: تثيروها. ذميمة: مذمومة.

(٥) ثفال الرحى: جلد يجعل تحتها (أى معها) ليقع عليه الطحين، فالباء فى "بثفالها" بمعنى (مع)، تلقح: تحمل بالولد، وتلقح كشافا أى تلقح الناقة مرتين وقيل: مرة كل عام وهذا ليس بمحمود عندهم، إذ المفضل أن تحمل سنة ولا تحمل أخرى. تتئم: تلد الأنثى توأمين، والإبل لا تلد توأمين، وإنما ذكر ذلك على سبيل التشبيه.

(٦) الشؤم: ضد اليمن، كأحمر عاد: عاقر الناقة واسمه قدار بن سالف، قال الأصمعى: أخطأ زهير لأن عاقر الناقة من ثمود، وقال المبرد: لم يخطئ لأنه يقال لقوم هود عاد الأولى، ولقوم ثمود عاد الأخيرة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ (سورة النجم/ ٥٠).

(٧) أغلت الأرض تغل: إذا كانت لها غلة، القفيز: مكيال عراقى يسع أحد عشر أو اثنى عشر مدا بمد النبى (ﷺ).

الشرح والتعليق والنقد:

أقسم زهير بالكعبة التى بناها الرجال الذين طافوا حولها من قبائل الجنوب والشمال، وأن ممدوحيه نعم الرجال الذين تعاملوا مع كل أمر بما يِستحقه من شدة وسهولة، وقد تداركا عبسا وذبيان بعد ما أوشكوا على التفانى، وكأنما تحالفوا على أن يفَنى كل منهما الآخر . فلذلك هب الرجال لإتمام الصلح، وإدراك السلم مهما تكلفا من المال والقول الحسن . وقد صارت تلك البلاد بتحقيق السلام خير الأوطان، وابتعدتما بذلك عن العقوق والعصيان فصرتما عظيمين، وفى أرفع قمة من معد التى تنتسبان إليها، وظفرتما بكنز المجد والرفعة . ثم اتجه بحديثه إلى ذبيان والمتحالفين معها، ليسألهم عن صدق نيتهم فى إبرام الصلح، ويحذرهم من إضمار الشر؛ لأن الله عالم بالخفيات والسرائر مما يضمره الناس، وسوف يحاسبهم على ذلك آجلا فى يوم الحساب أو عاجلا فى الدنيا .

ثم تحدث عن الحرب قائلا: إن الحرب معروفة لكم ولن تزيد عن معرفتكم بها، وذوقكم لها، ويقول: إن حديثى عنها حديث البصير المتيقن، وليس رجما بالظن ، ثم دعاهم إلى الصلح، وحذرهم من مغبة الحرب، وإيقاد نارها، تلك النار التى تلتهمهم وتطحنهم كما تفعل الرحى بطحينها الذى تلقى به على الثفال، ولا تنتج لهم تلك الحرب إلا الشؤم الكثير المتكرر، والمتمثل فى الغلمان الشؤم الذين يشبهون فى شؤمهم عاقر الناقة، التى كانت معجزة لنبى الله صالح، وقال: إن هذه

الحروب لا تغل إلا الموت والهلاك، ولا تغل خيرا كالذى تغله قــرى العراق من الحبوب أو تدره من أثمانها ٠

ويكشف القسم بالكعبة عن جانب من جوانب الإيمان عند زهيــر، والجوانب الأخرى تتمثل فى الإقرار بهذا الإيمان المتمثل فى معرفــة الله بما تكنه الضمائر، والاعتراف بالبعــث، والتــصديق بعقــاب الله العاجل الآجل . (اقرأ البيتين ١٢، ١٣) ، وارجع إلى قوله فــى مــدح الرجلين: "على كل حال" فإنها تفيد وتؤكد على تواجــد الــسيدين فــى حالات الشدة واللين، والحرب والسلام، وإســداء النــصيحة بــالقول الحسن، وبذل المال لتحمل الديات، وأقرب هذه الأحوال أحوال الــشدة واللين، والتى عبر عنها بقوله: "سحيل ومبرم"، وقد أضــفى الطبــاق بينهما قوة فى المعنى، الذى عبر عنه بالتصوير الحسى المستوحى من البيئة، حيث استعار السحيل لحالة اللين والمبرم لحالة الــشدة، وكــل منهما مطلوب فى حالات معينة٠

كما استعار حالة الرجال المتحالفين على القتال والمتعاقدين عليه متخذين من عطر منشم آية على حلفهم .. استعار هذه الحالــة لحالــة المتقاتِلين فى عبس ذبيان، وكأنهم إن لم يصلوا إلى الصلح سيؤول إلى الفناء والهلاك. وتابع معى مدى ما تكشف عنــه وتــدل عليــه كلمــة (واسعا) فى قوله: "إن ندرك السلم واسعا" فلابد إذن أن يكون الــصلح شاملا وعاما، وأن يتحقق السلام بين كــل الأفــراد فــى حاضــرهم ومستقبلهم٠

واستعار الشاعر الكنز للمجد والرفعة فى البيت العاشر، وقوله: "هديتما" جملة دعائية، وقوله: "هل أقسمتم كل مقسم"، استفهام حقيقى أو مجازى على سبيل التقرير بهدف إقرارهم على القسم الصادق.

وفى حديثه عن الحرب تتجلى موهبته فى التصوير الخيالى، فقد شبه الحرب بشيئ يذاق (استعارة مكنية)، والحقيقة أن شعر زهير عن الحرب فى هذه المعلقة من أفضل الشعر، ويعد زهير واحدا من شعراء الحرب فى الجاهلية، فحديثه عنها حديث الخبير المجرب، وقد كانت إقامته فى غطفان، وقربه من حروب عبس وذبيان ورؤيته لآثار هذه الحروب عوامل جعلت حديثه عنها ليس رجما بالظن، أو مستوحى من الغيب. ثم شبه الحرب بالنار المشتعلة التى يبعثونها بالإصرار على القتال، كما شبه الحرب بما تفعله بهم بالرحى التى تطحن الحبوب، وجعلها (أى الحرب) ناقة تنتج غلمان شؤم كلهم (استعارة بالكناية) وقد كانت الناقة عونا للشاعر على استكمال الصورة المركبة، وقوله: "فتنتج" ترشيح (أى تقوية) للاستعارة، أو صورة جديدة جعل فيها الحرب أنثى تلد غلمان شؤم أو ناقة تنتج لهم الشر والشؤم كعاقر الناقة، وجعل الحرب كأرض تغل غلة قبيحة، ولا تنتج ما تنتجه قرى العراق من الخير والعطاء.

وهكذا اعتمد الشاعر اعتمادا كبيرا على التصوير الخيالى، فجعل الأشياء المتخيلة التى لا تحس، كأنها مشاهدات مادية تدرك أو تذاق.

وقال فى نهاية المعلقة عددا من الأبيات التى تعد من شعر الحكمة نختار منها قوله:

١٩- سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِشْ ∴ ثمانينَ حولا لا أبا لكِ يَسْأَمِ[١]

٢٠- وأعلمُ ما فى اليومِ والأمسِ قبْلَه ∴ ولكننى عن عِلْمِ ما فى غَدٍ عَمِ[٢]

٢١- رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ من تُصِبْ ∴ تُمِتْهُ، ومن تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فيَهْرمِ[٣]

٢٢- ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلِهِ ∴ على قومه يُسْتَغْنَ عنه وَيُذْمَمِ[٤]

٢٣- ومن يجعلِ المعروفَ فى غير أهلِهِ ∴ يكُنْ حمدُه ذمًّا عليه ويَنْدَمِ[٥]

٢٤- ومن لم يَذُدْ عن حَوْضِه بسلاحِه ∴ يُهَدَّمْ، ومن لا يَظلمِ الناسَ يُظْلَمِ[٦]

٢٥- ومهما تكُنْ عند امرئٍ من خليقةٍ ∴ وإن خالَها تَخْفَى على الناس تُعْلَمَ[٧]

٢٦- لسانُ الفتى نصفٌ، ونصفٌ فؤادُه ∴ فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدَّمِ

الشرح والتعليق والنقد:

تكشف هذه الأبيات عن حنكة زهير وتجربته فى الحياة التى سئم منها بعد أن بلغ الثمانين عاما، وقال: إنه يعلم ما فى الماضى والحاضر، ولكنه يجهل حوادث المستقبل، وتحدث عن الموت، وجعله

---

(١) سئم: ملّ، تكاليف الحياة: مشقاتها وشدائدها، لا أبالك: أسلوب تفجع وتوجع.
(٢) عم: أى عمى القلب .
(٣) الخبط: ضرب باليدين والرجلين. عشا يعشو: إذا أتى على غير قصد، كأنه أعشى، والعشواء: الناقة (مؤنث الأعشى) .
(٤) فضل: مال.
(٥) الضمير فى (حمده) راجع على (من) فى قوله: "ومن يجعل المعروف" أو على المعروف نفسه .
(٦) الذود: الكف والردع.
(٧) الخليقة: الخلق.

كناقة تصيب من تصيب فيهلك ويموت، وتخطئ من تخطئ فيهرم ويشيخ، أى أن المنايا بدون قضاء، وذكر أن من كان ذا مال فيبخل به عن قومه استحق أن يستغنى عنه ويذم منهم. كما أن من وضع إحسانه فى غير موضعه استحق أن يذم ممن لا يستحق الإحسان، وقال: إن من لم يدافع عن نفسه ويحمى أهله استحق أن يستباح عرضه، ومن امتنع عن ظلم الناس ظلمه الناس وجاروا عليه، ثم ذكر أن الأخلاق لا تخفى على أحد، وأكد فى النهاية مقولة العرب: المرء بأصغريه: لسانه وجنانه (قلبه).

واعتمد زهير فى إبراز هذه الحكم على الحقيقة المستمدة من صوت العقل، وكانت الصور الخيالية هنا قليلة، نذكر منها تشبيهه المنايا بالناقة، واستعارته الحوض للحريم، كما استعان بالطباق فى توضيح المعانى كقوله "اليوم والأمس" و"حمده: ذما" و"لا يظلم ، يظلم" و"تخفى على الناس، تعلم" و"اللسان، والفؤاد" و"اللحم، والدم" ومع التصديق بالكثير مما قاله زهير فى هذه القصيدة خاصة فيما يتعلق بالحرب، والسلام، لكننا وجدنا الأبيات الأخيرة تتناقض مع بعض ما قاله فى شعر المدح والحرب فمن ناحية الإيمان بالله، والتصديق بالبعث نقض ذلك نقضا فى قوله:

رأيتُ المَنَايا خَبْطَ عشواءَ من تُصِبْ ∴ تُمِتْهُ ومن تُخْطِئ يُعَمَّرْ فيَهْرَم

وهذا ما يؤكد أن القصيدة الجاهلية تتكون من عدة قصائد مجموعة إلى بعضها، وربما قيلت فى أزمان مختلفة، تغيرت فيها

مواقف الشعراء للظروف المحيطة بهم، على أن ذلك لا يقدح في موهبة زهير، وقدرته على تجلية المعانى وإبرازها فى صورة خيالية جميلة .

التعليق العام:

١ - استمرت حروب عبس وذبيان التى تعرف بحروب داحس والغبراء ما يقرب من أربعين عاما (من ٥٤ ق.هـ) إلى (١١ق.هـ) تقريبا، وداحس: فرس لقيس بن زهير سيد بنى عبس، والغبراء: فرس أيضا لحذيفة بن بدر من فزارة إحدى قبائل ذبيان، وقد تأخرت داحس فى السباق، لأن الغبراء سبقت بالخدعة[١]، ولهذا السبب البسيط نشأت الحرب بينهم، والتى تصدى لإنهائها رجلان من بنى غيظ بن مرة من غطفان وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان، فسعيا فى الصلح ودفعا ديات القتلى، وبعد أن أوشكت القبيلتان على التصالح، قتل ورد ابن حابس القيسى هرم بن ضمضم المرى (من ذبيان) فتشاجرت القبيلتان ثانية، واضمر الحصين بن ضمضم (أخو هرم بن ضمضم) الشر، وصمم على الثأر لأخيه، وحانت له الفرصة عندما نزل عليه رجل من قيس فقتله، وقد كانت الحرب توشك أن تعود من جديد لولا تحمل الحارث بن عوف لدية العبسى المقتول، ولذلك قال زهير فى المعلقة:

ألا أبْلِغِ الأحلافَ عني رسالةً .:. وذبيانَ هل أقْسمْتم كل مُقْسَمِ

---

(١) انظر كتاب (أيام العرب فى الجاهلية) لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين، ص٢٥٢، دار الفكر .

ذلك لأن الحصين (من ذبيان) تظاهر بالصلح، وأضمر العداوة، وأنفذ رغبته فى الثأر، وقال زهير القصيدة مشيدا بالرجلين اللذين سعيا بالصلح وأتماه. ومما قاله زهير، فى هرم فى غير هذه المعلقة:

إن البخيلَ ملومٌ حيثُ كانَ ولـــ ∴ كنَّ الجوادَ على علاتـــه هَـــرِمُ

هو الجوادُ الذى يعطيك نائِلَـــهُ ∴ عفْـــوا ويظلِـــمُ أحيانـــا فـــيظَّلِم

وقال:

إن تلقَ يومًا على عِلاَّته هَرِما ∴ تلقَ السماحةَ منه والندى خُلِقــا

٢ - يلاحظ أن معانى زهير وأفكاره مستوحاة من البيئة وصادرة من نفسه وحسه، وكانت الحروب تثير شهيته للشعر، وتبعث خياله من مكامنه، وتحرك مشاعره، وتحرك وجدانه، وتدفعه إلى ساحة الشعر.

وقد أجاد فى المدح وذكر الموت والحياة ، ووصف الوحش والصيد، وسوق الحكم، وقد قالوا: "كان أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب" ويقصدون من ذلك أن أجود شعر امرئ القيس كان فى وصف الخيل والصيد، وأجود شعر زهير كان فى المدح، وأجود شعر النابغة كان فى الاعتذار، وأجود شعر الأعشى كان فى وصف الخمر[١].

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمرى ص٢٧٤ ، ط دار الآفاق، بيروت ١٩٧٩م.

كما اعتمد زهير على التصوير فى إبراز المعانى مثل التشبيهات والاستعارات والكنايات، وكان واحدا من الرواة المشهورين، فأسهمت موهبته وروايته للشعر فى صقل ملكته، حتى ارتقى كل هذا الارتقاء فى السلم الشعرى.

٣ - كان زهير واحدا من الشعراء المعروفين بعبيد الشعر، ولذلك خلا ديوانه من الحوشى والغريب من الألفاظ، وجاءت مفرداته سهلة واضحة، وتطورت لغته كثيرا لطول حياته وكثرة تجاريبه على أن ألفاظه تميل إلى السهولة والرقة على عكس اللغة التى تعامل معها أستاذه أوس بن حجر.

٤ - صدر فى شعره عن عاطفة صادقة وعميقة، فأنتجت بذلك خيالا متجسدا وثابا وقد ذكرنا أمثلة له فى الشرح والتعليق والنقد.

٥ - اعتنى بموسيقاه عناية كبيرة بحيث لا يحمل شعره أى شذوذ أو خلل فى الأوزان، ولهذا ذكره أبوالفرج كواحد من شعراء الغناء.

معلقة عمرو بن كلثوم
شاعر تغلب

كانت قبيلة تغلب تسكن الجزيرة الفراتية من أعالى (شمالى) الشام والعراق، وكان أهلها من أشد الناس فى الجاهلية حتى قالوا: "لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس"(١).

ولا شك فى أن هذه القبيلة تمثل ثقلا لاعتدال ميزان القوى مع قبيلة بكر، إذ كان الصراع بينهما لا ينقطع مع ما بينهما من قرابة وجوار.

وتعد حرب البسوس بأيامها المتعددة الصورة الواضحة لبعض مظاهر الحياة القبلية فى العصر الجاهلى، وكانت كل قبيلة تفتخر وتشمخ بمن لديها من الشعراء، الذين يتحدثون بلسان الجماعة، ويهتفون بشعرهم فى الفخر والحماسة، وذكر الأمجاد وسلاسل الأنساب، وعراقة الأصول والدماء.

وتكشف نهاية القرن الخامس الميلادى ـ على وجه التقريب ـ عن ظهور طفل تلمس فيه التغلبيون مخايل النجابة منذ باكورة حياته وهو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل) (٢).

---

(١) شرح القصائد العشر ـ للتبريزى ، ص٢٥٢ .
(٢) السابق، ص٢٥٢، وانظر جمهرة أشعار العرب للقرشى، ص٢٧٢، طبعة دار نهضة مصر.

ولم يكن لوالده (كلثوم بن مالك) تأثير متميز على سطح الحياة الاجتماعية سوى أنه واحد من التغلبيين الذين يعتزون بالعيش فى ديار الأهل بجزيرة الفرات، وأنه متزوج من ليلى بنت مهلهل بن ربيعة من بنى جشم بن بكر بن تغلب.

وهكذا تبرز الأصول النجيبة لعمرو بن كلثوم من جهة أبيه وأمه، وتسيطر على نشأته الثقة بالنفس، ومعايشة الصراع القبلى، والتدثر بالعزة والكرامة، والمران على الفروسية، وتعلم فنون الحرب.

وتتواصل الروايات التى لا تخلو من مبالغات عن شخصية عمرو، فقيل إنه تولى السيادة على قومه وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل إنه عمّر طويلا، ومات نحو سنة أربعين قبل الهجرة (٥٨٤م) وقد بلغ مائة وخمسين عاما.

أما الجوانب الاجتماعية من حياته فلم تسعفنا الروايات بشيئ ذى بال عنها، غير أن أبا الفرج قد ذكر — فيما ذكر — ابنا لعمرو يقال له عباد، فقال صاحب الأغانى: "وهو قاتل بشر بن عمرو بن عدس، ولعمرو بن كلثوم عقب باق، ومنهم كلثوم بن عمرو العتابى الشاعر صاحب الرسائل"[١].

كما أن أخاه (مرة بن كلثوم) كان فارسا فاتكا وهو قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر.

---

(١) الأغانى: جـ١١ ص٥٥ طبعة دار الكتب المصرية.

وترتبط سيادة عمرو بن كلثوم على قومه، وفروسيته، واعتزازه بنفسه بملك الحيرة، عمرو بن هند، فقد كان ابن كلثوم يرى نفسه وقومه لا يقلون عن هذا الرجل، الذى تدخل بالصلح بين (بكر) ومنها شاعرهم (الحارث بن حلزة) و(تغلب) ومنها (عمرو بن كلثوم).

وتذكر الروايات أن ابن هند مال فى صلحه إلى جانب (تغلب) منحرفا عن (بكر) لكن ظواهر الأحداث تشير إلى اتهامه بمعاداة تغلب، وهكذا الشأن مع كثير من المصلحين الذين يسعون إلى التوفيق بين المتخاصمين فينالون مزيدا من الغضب، وعدم الرضا من كلا الفريقين.

وقد تمخضت جلسات الصلح التى عقدها (ابن هند) لبكر وتغلب عن إنشاد ابن حِلِّزة لمعلقته، وإنشاد عمرو بن كلثوم لمعاقته، أو للكثير من أبياتها، ولم تقتصر مرويات القدماء على ما سبق بشأن العلاقة بين (ابن هند) و(ابن كلثوم)، فقد أضافت بعض الأخبار أن الثانى قتل الأول فى أحداث عنيفة لا تتجاوز الشك إلى اليقين عند الدكتور طه حسين، الذى جعلها مجموعة من الأساطير.

ويذكر أبوالفرج الأصفهانى فيما يذهب بسنده إلى ابن قتيبة: "أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟ فقالوا: نعم! أم عمرو بن كلثوم، قال: ولِم؟ قالوا: لأن أباها مهلهلُ بن ربيعة، وعمها كليب وائل أعزُّ العرب، وبعلُها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيد قومه، فأرسل

عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه أمه، فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة فى جماعة بنى تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل فى ظُعُن من بَنيِ تغلب. وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا فى وجوه بنى تغلب، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند فى رواقه، ودخلت ليلى وهند فى قُبَّة من جانب الرواق . وكانت هند عمة امرئ القيس بن حجر الشاعر، وكانت أم ليلى بنت مهلهل بنت أخى فاطمة بنت ربيعة التى هى أم امرئ القيس، وبينهما هذا النسب.

وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تُنَحِّى الخدم إذا دعا بالطُّرَف[1] وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطُّرَف. فقالت هند: ناولينى يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها وألحت. فصاحت ليلى: واذُلاَّه! يا لتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه، ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشر فى وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى فى بنى تغلب، فانتهبوا ما فى الرواق، وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة. ففى ذلك يقول عمرو بن كلثوم:

ألا هُبِّى بصَحْنِك فأصْبحينَا

---

(١) الطرف: جمع طرفة وهى كل شيئ مستحدث عجيب (مثل التحفة).

وكان قام بها خطيبا بسوق عكاظ، وقام بها فى موسم مكة"[١]، وهكذا تتضارب الروايات فيما تذكره عن إنشاد عمرو لمعلقته، ولربما هتف الشاعر ببعضها فى أعقاب جلسة الصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس وهتف بالباقى بعد قتله لعمرو بن هند.

شعر عمرو بن كلثوم:

عمرو بن كلثوم شاعر مطبوع ، وأشعاره قليلة، وهى عبارة عن المعلقة التى قيل إنها كانت ألف بيت، فإن صح ذلك كان ما وصلنا لا يتجاوز العُشر منها، ولكن هذه الأقوال تفتقر إلى ما يرجحها، ويقوى من مصداقيتها.

ويضاف إلى محصول شعره ــ فضلا عن المعلقة ــ بعض المقطوعات المتناثرة، التى لا تخرج عن موضوعها، ولا ترقى إلى منزلتها، فقد شُغل بنو تغلب بالمعلقة بما لم تُشغل به قبيلة بقصيدة حتى قال بعض شعراء بكر بن وائل.

ألْهَي بَنِى تغلبَ عن كل مَكرُمةٍ ∴ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ

يروونها أبدا مُذْ كان أولُهم ∴ يا للرجالِ لشعرٍ غير مَسئُوم[٢]

وقد جعل ابن كلثوم من الطبقة الأولى لشعراء الجاهلية فى ميزان (طبقات الشعراء) لإسكندر إبكاريوس[٣].

---

(١) الأغانى، جـ١١، ص٥٣، ٥٤ .

(٢) السابق، ص٥٤ .

(٣) انظر تاريخ آداب اللغة العربية، جرجى زيدان جـ١ ص٦٩ .

بينما وضعه ابن سلام الجمحى (في الطبقة السادسة)، وهو عند الكثيرين واحد من كبار الشعراء الجاهليين.

ومن شعره الذى يفتخر فيه، ويتوجه به إلى عمرو بن أبى حجر الغسانى:

ألا فاعلمْ أبيتَ اللعنَ أنا ∴ على عمْدٍ سنأتى ما نريدُ
تعلَّمْ أن محملَنا ثقيلٌ ∴ وأن زناد كَبَّتِنَا شديدُ
وأنّا ليسَ حيٌّ من مَعَدٌ ∴ يوازِينا إذا لُبِس الحديدُ(١)

وقبل أن نغلق باب التعريف بعمرو وشعره يحسن أن نقدم بعضا من نثره الذى تتضح فيه موهبته وحكمته وتجربته، وترتبط روايته برجل من النمر بن قاسط مما رواه صاحب الأغانى، فذكر أنه:

"لما حضرت عمرو بن كلثوم الوفاة، وقد أتت عليه خمسون ومائة سنة، جمع بنيه فقال: يا بَنِى، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائى، ولابد أن ينزل بى ما نزل بهم من الموت . وإنى والله ما عَيَّرْتُ أحدا بشيئ إلا عُيرت بمثله، إن كان حقا فحقا، وإن كان باطلا فباطلا . ومن سَبّ سُبّ ، فكفوا عن الشتم فإنه أسلم لكم، وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم، وامنعوا من ضيم الغريب، فرب رجل خيرٌ من ألف، وردٌ خيرٌ من خُلْف . وإذا حُدِّثْتم فعُوا ، وإذا حَدثتم فأوجزوا، فإن مع الإكثار تكون الأهْذَار(٢)، وأشجعُ القوم العطوفُ بعد الكر، كما أن

---

(١) الأغانى، جـ١١، ص٥٨، وكبتنا: حملتنا فى الحرب ودفعتنا فى القتال.
(٢) الأهذار: جمع هذَر ـ بالتحريك ـ وهو سقط الكلام.

أكرم المنايا القتل. ولا خير فيمن لا رويةَ له عند الغضب، ولا مَنْ إذا عُوتب لم يُعْتَبِ، ومن الناس من لا يُرْجَى خيـرُه، ولا يُخَـاف شـره، فبكؤُهْ[١] خير من درهٍّ، وعقوقه خير من بِرِّهْ . ولا تتزوجوا فى حـيكم فإنه يؤدى إلى قبيح البُغْض"[٢].

أما المعلقة فلا تتفق الروايات على الكثير من أبياتها، بل لم تتفق أصلا فى عدد أبياتها ما يرجح القول بنفى التعليق على أستار الكعبة.

فالقصيدة فى جمهرة أشعار العرب مائة وخمسة عشر بيتـا، وإن ذكرت ستة أبيات أخرى إضافة إلى العدد المـذكور، وجـاءت عنـد الزوزنى مائة وثلاثة أبيات، بينما وصل التبريزى بها إلى ستة وتسعين بيتا، وتدور حول الحماسة والفخر وهما مناط القول فيها، كما يخاطب ابن كلثوم عمرو بن هند، وبنى بكر وغيرهم، ويبدؤها بـالخمر علـى غير ما كان يصنع الشعراء الجاهليون.

---

(١) بكؤه: انقطاع لبنه.
(٢) الأغانى، جـ١١، ص٥٩، صـ٦٠ .

عرض الأبيات(*)

أولا: فى الخمر والغزل:

قال:

١- ألاَ هُبِّــى بــصحنكِ فاصْــبحينا ∴ ولا تُبقـــى خمـــورَ الأنْـــدَرينا(١)

٢- مُشعْــشعةً كــأن الحُــصَّ فيهــا ∴ إذا مــا المــاءُ خالطَهــا سَــخِينا(٢)

٣- تجـورُ بـذي اللُّبانَــةِ عـن هـواه ∴ إذا مــا ذاقَهــا حتــى يَلِينــا(٣)

٤- تَـرَى اللَّحِـزَ الـشحيحَ إذا أُمِرَّت ∴ عليـــه لِمالِـــهِ فيهـــا مُهينـــا(٤)

٥- صَـدَدْتِ الكــأسَ عنــا أمَّ عمــرو ∴ وكــان الكــأسُ مَجْرَاهــا اليمينــا(٥)

٦- ومــا شَــرُّ الثلاثـــةِ أمَّ عمــرو ∴ بــصاحبكِ الــذى لا تَــصْبَحِينا(٦)

٧- وإنَّــا ســوف تُــدْرِكنا المَنَايــا ∴ مُقـــدَّرةً لنـــا ومُقَـــدَّرينا(٧)

(*) الأبيات فى شرح القصائد العشر للتبريزى، ص٢٥٤ ٠

(١) ألا: أداة تنبيه، هبى: قومى من نومك، الصحن: القــدح العظــيم، وقيــل: الصغير أو الواسع، اصبحينا: اسقينا شراب الغداة، خمــور: جمــع خمــر، وأصلها التأنيث (خمرة) وسميت خمرا لمخامرتها العقل، وأصله التغطية ومنه الخمار لتغطيته الرأس٠

(٢) مشعشعة: رقيقة من العصر أو المزج ، الحص: الزعفــران، أو الــورس: سخينا: ساخنا إذ كانوا يسخنون لها الماء فى الشتاء٠

(٣) تجور: تعدل، والجائر: المائل، قال تعــالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ (النحل/٩)، اللبانة: الحاجة٠

(٤) اللحز: الضيق الصدر، الشحيح: البخيل، أمرت: أديرت، أهان المال: أنفقــه وأهلكه٠

(٥) أم عمرو: هى أم عمرو بن هند (من إحدى نسخ جمهرة أشــعار العــرب) للقرشى، أو أنها امرأة أخرى تجالس الشاربين ٠

(٦) يروى هذا البيت وما قبله لعمرو ابن أخت جذيمة الأبرش٠

(٧) المنايا: الأقدار، مقدرة ومقدرينا: منصوبتان على الحالية٠

٨- قِفِـى قبـلَ التفـرُّقِ يـا ظَعِينـا ∴ نخبِّــرْكِ الـــيقينَ وتُخْبرينـــا[١]

٩- بيــومِ كريهـــةٍ ضَــرْبا وطَعْنًــا ∴ أقرَّبــــه مَوَالِيــــكِ العُيونــــا[٢]

١٠- قِفى نسألْكِ هـل أحـدثْتِ صُرْمًا ∴ لِوَشْــكِ الــبينِ أم خُنْــتِ الأمينـا[٣]

١١- تُريـك إذا دَخَلْـتَ علـى خَـلاء ∴ وقــد أمِنَــتْ عيــونَ الكاشــحينا[٤]

١٢- ذِرَاعَــىْ عَيْطَـلٍ أدْمَـاءَ بِـكْرٍ ∴ تَرَبَّعَــتِ الأجــارِعَ والمُتونـــا[٥]

١٣- وثَـدْيًا مثـلَ حُـقّ العـاجِ رَخْـصًا ∴ حَـصَانا مـن أكُـف اللامِـسينا[٦]

١٤- ومَتْنَـىْ لَدْنَـةٍ طالـتْ ولانَـتْ ∴ روادِفُهـــا تَنــوء بمـــا يَلِينـــا[٧]

١٥- تـذكَّرْتُ الـصِّبَا واشـتقْتُ لمـا ∴ رأيــتُ حُمُولَهـــا أُصُــلا حُـدِينا[٨]

١٦- وأعْرَضَـتِ اليمامـةُ واشْمَخَرَّتْ ∴ كأســـيافٍ بأيـــدى مُـــصْلَتِينا[٩]

---

(١) الظعينا: أصلها الظعينة وهى المرأة فى الهودج،وحذف الهاء، وأشبع الفتحة، فصارت ألفا،وسميت الظعينة بذلك لظعنها مع زوجها وهى المرأة فى الهودج.

(٢) الكريهة:من أسماء الحرب،وسميت بذلك لأن النفوس تكرهها،وضربا وطعنا: منصوبتان على المصدرية، أقر: أسكن، الموالى هنا: العصبة أو بنو العم.

(٣) الصرم: القطيعة، الوشك: السرعة، البين: الفراق.

(٤) خلاء:خلوة من الرقباء،الكاشح:العدو، وسمى بذلك؛ لأنه فى الإعراض يولى خصمه كشحه وهو جنبه،وفيه الكبد بيت العداوة والبغضاء(عن لسان العرب).

(٥) العيطل: الطويلة العنق، أدماء: بيضاء، والأدمة: البياض فى الإبل، والبكر: الناقة التى حملت بطنا واحدا، وتربعت: رعت نبت الربيع، الأجارع: الرمال المنبسطة، جمع أجرع، المتون: مفردها المتن وهو الأرض الصلبة.

(٦) العاج: عظم الفيل، الرخص: اللينة، الحصان: العفيفة التى تحصنت من الريب، اللامسون: أهل الريبة.

(٧) المتن: جانب الصلب، اللدنة: اللينة، الروادف: الأعجاز، تنوء: تنهض بثقل، والمراد: تنهض بما يلين من روادفها.

(٨) الاشتياق: رقة القلب للقاء المحبوب، الحمول: الأحمال، والمراد: الإبل التى عليها الهوادج، الأصل: مفردها الأصيل، حدين: من الفعل حدا، والحدو: سوق الإبل والغناء لها.

(٩) أعرضت: ظهرت، اليمامة : المقصود قرى اليمامة، اشمخرت: ارتفعت، المصلتة: المسلولة المشهرة.

١٧- فما وَجَدَتْ كوَجْدِى أمُّ سَقْبٍ ∴ أضلَّتْه فرجَعَتِ الحَنينا[١]

١٨- ولا شَمْطَاءُ لم يترِكْ شَقَاها ∴ لها مِنْ تسعةٍ إلا جَنِينا[٢]

١٩- وإن غدا وإن اليومَ رهْنٌ ∴ وبعدَ غدٍ بما لا تَعْلَمِينا[٣]

إيضاح الأفكار:

يخاطب الشاعر المرأة (الساقية)، ليوقظها من النوم، حتى ترويه من خمور الأندرون فلا يبقى منها شيئ؛ لأنها خمرة تشبه الزعفران فى تغير لونها إلى الصفرة عندما يختلط بها الماء الساخن، ذلك لأن شربها يُحول صاحب الحاجة عن هواه، فيلين لأصحابه، وينسى همومه وحوائجه وأحزانه، كما أن الخمر تجعل الرجل البخيل الحريص على ماله عندما تدار عليه يهلكه وينفقه فى شرائها.

ويخاطب الساقية (أم عمرو) التى لم تجر الكأس، وتمر بها من على اليمين، فأجرتها على اليسار، كما أن صاحب أم عمرو ليس هو شر الثلاثة الذين يشربون، فكيف تعدل عنه بالشرب، وتتأخر فى سقيه الصبوح.

وذلك لحرصه على الاستمتاع بالشرب قبل حلول الأجل المقدر له، ويود أن توقف هذه المرأة مطيتها، ليخبرها بما قاسى بعدها، وبما

---

(١) الوجد: الحزن ، أم سقب : الناقة، والسقب: ولدها الذكر. أضلته: ضل منها، الترجيع: ترديد الصوت، الحنين: صوت المتوجع.

(٢) الشمطاء: العجوز، أو التى ابيض شعر رأسها، الشقا: الشؤم وهو يمد ويقصر، الجنين: المولود و(القبر)، كما يطلق على المقبور الذى أجنته الأرض، أى سترته.

(٣) يقصد أن الأيام مرتهنة بالأقدار.

لقيت هى الأخرى بعده، أو أنه رغب فى إيقافها ليخبرها بما لا تشك فيه من حروب قومه مع أهلها، وعن ذلك اليوم الذى حدثت فيه الوقعة الكريهة، وكان بينهم وبين أهلها، لينظر أغيرها ذلك أم لا؟

ويطلب إيقافها، ليسألها إن كانت قد قطعت علاقتها به، وأقدمت على تحقيق الفراق وخيانته بذلك، وهو الأمين الذى يحفظ السر ويفى بالوعد، وتكشف هذه المرأة ــ عند خلوها من الرقباء ومن عيون الأعداء ــ تكشف عن طول فى العنق كالناقة البكر، التى رعت نبات الربيع فى الفضاء الواسع بما فيه من رمال منبسطة وأرض صلبة، ويتضح منها الثدى الذى يشبه بياض العاج فضلا عن ليونته وانسيابه، مع أنها عفيفة وبعيدة عن أيدى المرتابين وأهل السوء، وهى ذات جوانب لينة طويلة، فتنهض بثقل بما يلى الأرداف، وأنه قد استرجع أيام الصبا عندما رأى الإبل وعليها الهوادج إيذانا بالرحيل، فظهرت اليمامة (أى المرآة) مستوية براقة مثل السيوف المصلتة، أو ظهرت قرى اليمامة على تلك الصورة، وأن حزنه على الفراق مثل حزن الناقة وترديدها لصوت الحنين على فقد ولدها، أو كأشد من حزن الناقة التى فقدت أبناءها التسعة.

ويختم غزله بالحكمة إيذانا بأن الأيام سوف تكشف عما لا نعلمه فهى رهينة بالأقدار.

ملامح التعبير والتصوير:

معلقة عمرو بن كلثوم واحدة من روائع الشعر العربى فى الجاهلية، وهى ذات خصائص لغوية وأدبية واجتماعية متميزة،

ومقدمتها فى الخمر والغزل، إذ لم يتابع شاعرنا الجاهليين فى حرصهم على ذكر الأطلال والديار والوقوف عليها، أو الاكتفاء بذكر المرأة وصولا للغرض الأصلى من القصيدة، التى لم تكن تخلص لموضوع واحد، مما جعل كثيرا من الناس يعتقدون أن أكثر القصائد الجاهلية لم تكن إلا أجزاء، أو مقطوعات ضم بعضها إلى بعض، واكتمل منها هيكل القصيدة التى نطالعها، فيشهد افتقادها لما يسمى بالوحدة الموضوعية، وتتميز قصيدة عمرو بالصدق والواقعية والتعبير عن البيئة التى أجاد فى وصفها، وافتخر بما لم يفتخر به جاهلى آخر، فضلا عن تمثيلها للقبيلة وتجربتها الصادقة، وعمق التشابيه فيها، وسهولة حفظها، وإن لجأ إلى تكرار كثير من الجمل والكلمات مما يقوى الرأى القائل بأن الشاعر نظمها ارتجالا، أو أنه قالها فى أزمان متقاربة من الأحداث، التى ارتبطت بها، وتتصل بما كان بين قبيلتى بكر وتغلب، وبما كان بين الشاعر نفسه وعمرو بن هند ملك الحيرة.

أما قول الدكتور طه حسين بأنها منحولة لاتصالها بالخصومة بين بكر وتغلب، وأنها من آثار التنافس بين القبيلتين فى الإسلام لا فى الجاهلية، فإن هذا الرأى لا يقتصر على قصيدة عمرو بن كلثوم أو معلقة الحارث بن حلزة، وأولها:

آذنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسماءُ ∴ رُبّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ

وإنما يمتد ــ رأى الدكتور طه حسين ــ ليشمل الشعر الجاهلى كله، وهذا الكلام فيه مبالغة وتحامل، وتأثر بكلام المستشرقين،

وإسراف فى الاتساع بما قاله ابن سلام الجمحى فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) عن الوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى، ولست بصدد تفصيل القول ـ هنا ـ فى هذه القضية التى صارت شبيهة بما يسمى بالمرافق العامة، التى يلوذ بها كل عابر سبيل. أما سهولة القصيدة فترجع إلى ألفاظها وتراكيبها وبنائها على وزن (الوافر) بما فيه من حركات كثيرة فى أوتاد أجزائه، وبناء الروى على حرف النون المتصل بألف الإطلاق.

ويتجه الشاعر بكبريائه وشموخه وسيادته وهو فى قمة النشوة بالخمر ـ يتجه إلى الساقية بفعل الأمر (هبى) لتستيقظ وتقدم أجود أنواع الخمر. كما يشبه ـ فى البيت الثانى ـ صفرة الخمرة بالزعفران، وتتضح عنايته بوصفها وإبراز تأثيرها على الشاربين.

أما اختيار اسم (أم عمرو) إذا صح أنه لوالدة (عمرو بن هند)، فإنه نوع من الحرب والاستعلاء على هذا الملك.

وتتجلى تجربة شاعرنا فى البيت السابع الذى يعلن فيه إيمانه بالأقدار، ويبدأ حديثه عن المرأة فى البيت الثامن، ملتمسا بفعل الأمر (قفى)، والتصريع إعلان عن موقف جديد أو مناسبة يختلف زمن القص فيها. وقوله: "بيوم كريهة" إشعار وتوكيد لما يصيب الأعداء وهو كناية عن الحرب، وتوحى أبياته عن المرأة بالحماسة والفخر بما وقع لعصبة المرأة من ضررب وطعن، ويعود للاستعانة بفعل الأمر (قفى) فى البيت العاشر، ووصف نفسه بالأمين، الذى يحفظ السر مع

ما كان بينه وبين أهلها من عداوة وشحناء، والاستفهام بهل يؤكد نوعا من المعاناة والحسرة، وقد شبه ذراعيها ــ فى الطول ــ بأذرع الناقة الريانة، كما شبه ــ فى الأبيات التالية ــ الثدى بُحق العاج، ويصور اليمامة بالسيوف المشهرة، أو أنها قرى اليمامة (مجاز بالحذف)، ووجده على تلك المرأة أشد من حزن الناقة وترجيعها الحنين على ابنها، وأشد من حزن الناقة التى فقدت أبناءها المقبورين، وأن الألم الذى غلف به أبياته عن المرأة قد تمخض من تجربة وحكمة، يضاهى بها زهيرا فى قوله:

وأعلمُ ما فى اليومِ والأمسِ قبلَه ∴ ولكنَّنِى عنْ عِلم ما فى غدٍ عَمِ

فهو يقر بالأقدار، ويؤمن بالموت، ويعترف بجهله عن قابل الأيام، ويلاحظ أن الشاعر استعان بالتشبيه المحسوس المستوحى من البيئة، وذكر الموت، ولجأ إلى الأساليب المشكوفة فى وصفه للمرأة التى انتقل إلى الحديث عنها بعد كلامه عن الخمر .

ثانيا: فى الحماسة والفخر:

٢٠- أبَا هندٍ فلا تَعجلْ علينا ∴ وأنْظِرْنا نخبِّرْك اليَقينا[١]

٢١- بأنَّا نُوردُ الراياتِ بيْضًا ∴ ونُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قد رَوينا[٢]

٢٢- وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوَالٍ ∴ عَصَيْنا المَلْك فيها أن نَدِينا[٣]

---

(١) أبو هند: كنية عمرو بن هند، واسمه: عدى بن ربيعة، واسم أمه (قويلة بنت مهلهل بن ربيعة)، انظر: انتظرنا .

(٢) الرايات: الأعلام، نصدرهن: نرجعن .

(٣) الأيام: الوقائع، ومجرور بالعطف على قوله (بأنا) أو تنزل، الواو منزلة (رب)، الغر: المشاهير، مفردها أغر، الملك بتسكين اللام: الملك بكسر اللام، ندين: نطيع .

٢٣- وسَـيِّدِ مَعْـشَر قـد توَّجـوه ∴ بتـاجِ المُلْـك يَحْمِـى المُحْجَرينـا[١]

٢٤- تركْنَـا الخيـلَ عاكفـةً عليـهِ ∴ مُقلَّـدةً أعِنَّتهـا صُـفُونا[٢]

٢٥- وقـد هَـرَّتْ كـلابُ الحـى مِنَّـا ∴ وشـذَّبْنَا قتـادةَ مـنْ يَلينـا[٣]

٢٦- متـى تَنْقُـلْ إلى قـوم رَحَانـا ∴ يكونُـوا فـى اللقـاءِ لهـا طَحِينـا[٤]

٢٧- يكـون ثِفَالُهـا شَـرْقىَّ نجْـدٍ ∴ ولُهْوَتُهـا قُـضَاعَةُ أجمعينـا[٥]

٢٨- وإن الـضِّغْنَ بعـد الـضغْن يَفـشُو ∴ عليـك وُيخـرِجُ الـداءَ الـدَّفِينا[٦]

٢٩- وَرِثْنـا المجـدَ قـد عِلمـت مَعَـدٌّ ∴ نُطَـاعِنُ دونَـه حتـى يَبِينـا[٧]

٣٠- ونحـنُ إذا عِمَـادَ الحـىِّ خَـرَّتْ ∴ علـى الأحْفـاضِ نمنـعُ مـن يلِينـا[٨]

٣١- نـدافِعُ عـنهمُ الأعـداءَ قُـدْما ∴ ونحِمـلُ عـنهمُ مـا حمَّلُونـا[٩]

---

(١) معشر: جماعة، توجوه: ملكوه أى ألبسوه التاج، يحمى: يمنع، المحجـرون: الملجؤون.

(٢) عاكفة: مقيمة، أعنتها: جمع عنان وهو سير اللجام الذى يمسك بـه الدابـة، الصفون: جمع صافن وهو من الخيل الذى يرفع إحدى قوائمه ويقـف علـى ثلاث، قال تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ (سورة ص ـــ ٣١).

(٣) هرت: نبحت، شذبنا: قطعنا وفرقنا، والتشذيب: نفى الـشوك والأغـصان الزائدة والليف عن الشجر، القتادة: شجرة لها شوك، من يلينا: من يقرب منا.

(٤) المراد من الرحى: رحى الحرب وهى مؤنثة وتمد فيقال لها رحاء.

(٥) الثفال : خرقة تبسط تحت الرحى ليقع الدقيق عليها، اللهوة: القبـضة مـن الحب تلقى فى فم الرحى (اللهوة) بفتح اللام وضمها، قـضاعة: حـى مـن اليمن.

(٦) الضغن: الحقد، الداء: المرض أو الحقد، الدفين: المستتر فى القلب.

(٧) المجد: الشرف والرفعة، يبين: ينقطع منهم ويصير إلينا.

(٨) عماد: جمع عمود، خرت: سقطت، الأحفاض: المتاع الـذى يحمـل علـى الإبل، وتطلق على البعير الذى يحمل المتاع، من يلينا: من يجاورنا.

(٩) قدما: بضم القاف أى تقدما، وقِدما بكسرها أى قديما، ما حملونا: ما جنـوا علينا.

٣٢- نطاعنُ ما تَراخى الناسُ عنّا ∴ ونضربُ بالسيوفِ إذا غُشِينا[1]

٣٣- بسُمْرٍ من قَنَا الخطِّى لُدْنٍ ∴ ذوابلَ أو ببيْضٍ يَعْتَلِينا[2]

٣٤- نشقُ بها رؤوسَ القومِ شقاً ∴ ونُخْلِيها الرقابَ فيَخْتَلِينا[3]

٣٥- تخالُ جماجمَ الأبطالِ فيها ∴ وُسُوقا بالأماعزِ يَرْتَمِينا[4]

٣٦- نَحُزُّ رؤوسَهم فى غيْرِ برٍّ ∴ فما يَدْرُون ماذا يتَّقُونا[5]

٣٧- كأن سيوفَنَا فِينا وفيهمْ ∴ مخاريقٌ بأيدِى لاعِبينا[6]

٣٨- كأن ثيابَنَا منّا ومنهمْ ∴ خُضِبْنَ بأُرْجُوَانٍ أو طُلِينا[7]

٣٩- إذا ما عَىَّ بالإسْنَافِ حىٌّ ∴ من الهولِ المشبَّهِ أنْ يَكُونا[8]

٤٠- نَصَبْنَا مثلَ رَهْوَةَ ذاتَ حَدٍّ ∴ مُحَافظةً وكنّا السابقينا[9]

---

(١) تراخى: تباعد ، غشينا: دنا بعضنا من بعض ٠

(٢) السمر من الرماح: أجودها، قنا الخطى: رماح تنسب إلى أرض يقال لها الخط، اللدن: اللينة، الذوابل: اليابسة، أو فيها بعض اليبس، البيض: السيوف، يعتلين: يرتفعن٠

(٣) بها: الضمير راجع إلى السيوف، نخليها: نقطعها عن الرقاب، أخذه من (اختليت الحشيش) إذا قطعته٠

(٤) تخال: تحسب، جماجم: جمع جمجمة وهى الرأس، الأبطال: الشجعان، الوسوق: الأحمال جمع وَسق، وبفتح الواو الأولى (عاطفة) فى وسوق جمع ساق، الأماعز: جمع أمعز وهو المكان الذى تكثر حجارته ٠

(٥) نحز: نقطع (فى رواية نجز) ، فى غير بر: فى غير عطف، يتقون: يحذرون٠

(٦) المخاريق: جمع مخراق وهو ما تلعب به الصبيان من الخرق المفتولة، فينا وفيهم: أى إن السيوف فى أيدينا، ونحن نضربهم بها٠

(٧) خضبت: طليت، أرجوان: صبغ أحمر شديد الحمرة ٠

(٨) عى: عجز، الإسناف: التقدم فى الحروب٠

(٩) الرهوة: قمة الجبل، ذات حد: كثيرة السلاح ٠

٤١- بفتْيَانٍ يرون القتلَ مَجْدا ∴ وشِيبٍ فى الحروب مُجرَّبينا[١]

٤٢- حُدَيًّا الناسِ كلِّهِمُ جميعا ∴ مُقارِعةً بنِيْهِمْ عن بَنِينا[٢]

٤٣- فإمَّا يومَ خشْيتِنا عليهم ∴ فنصبحُ غارةً مُتَلَبِّبينا[٣]

٤٤- وإمَّا يومَ لا نخْشَى عليهم ∴ فنصبحُ فى مجالسنا ثُبِيْنَا[٤]

٤٥- برَأسٍ من بَنِى جُشَمِ بن بَكْرٍ ∴ نَدُقُّ به السُّهُولةَ والحُزُونا[٥]

إيضاح الأفكار:

يخاطب الشاعر فى بداية هذه الأبيات عمرو بن هند الذى كناه بأمه (قويلة بنت مهلهل بن ربيعة) الذى دعاه للانتظار، حتى يرى من الشاعر وقبيلته الأمر اليقين من شرفهم وعزتهم وانتصاراتهم عندما يدخلون الحرب برايات بيضاء، ثم يرجعون منها برايات حمراء مخضبة بدماء الأعداء، فلهم أيام حافلة بالمجد والشرف، لم يذنبوا فيها بإطاعة الحاكم، أما السيد المتوج بالملك الذى يلجأ إليه الخائفون فقد حوصر بخيولنا للإغارة عليه وأخذ متاعه، كما أننا لبسنا الأسلحة والعتاد فنبحت علينا كلاب الحى وفرقنا جموع الأعداء، وأذهبنا

---

(١) المجد: الشرف والكرم.

(٢) الحديا: تصغير الحدوى والمعنى تحدى الناس أو واحد الناس أو أشرف الناس، أو أقصد الناس، مقارعة: مراهنة، بنيهم عن بنينا: أى نقتل بنيهم، ويقتلون بنينا، وحديا خبر لمبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح.

(٣) التلبب: لبس السلاح.

(٤) الثبون: الجماعات المتفرقة.

(٥) الرأس: الحى العظيم، جشم بن بكر: جد للشاعر وهو من مضر، السهولة: ما لان من الأرض، والحزون: مفردها الحزن وهو ما لان من الأرض بارتفاع من غير حجارة.

شوكتهم، فصاروا كشجرة جُردت من أغصانها، وإننا نحارب القوم فيكونون منا بمنزلة الطحين من الرحى، أى ننال منهم ما نريد، فتلك الرحى الواسعة الضخمة التى يكون شرقى نجد بمثابة خرقة يسقط عليها الطحين (المذكور)، ويكون ما يلقى فيها مثل قضاعة (جماعة من اليمن)، وينكشف الحقد والضغائن من الأعداء، وإننا نرث عن آبائنا الأفعال الصالحة التى لا تخفى على أحد ، ونحمى من يجاورنا فى أوقات الشدة التى تتساقط فيها أعمدة البيت على المتاع، وندافع عنهم، ونتجاوز عما جنوا به علينا، ونطعنهم إذا تخلوا وابتعدوا عنا، ونضربهم بالسيوف إذا اقتربوا منا ويكون الطعن بأجود الرماح، وتعلو السيوف عليهم، فنشق بها رؤوسهم ، فنفصلها عن رقابهم، ونخالها أحمالا ملقاة بين الأحجار، ويكون قطع رؤوسهم فى شدة بأس بلا تهاون أو شفقة، وتبدو السيوف فى أيدينا، ونحن نضربهم بها فى سهولة كأنها لعب للأطفال، وإن ثيابنا وثياب أقراننا قد خضبت بدماء الأعداء. وإذا تحير القوم وعجزوا وتوقفوا خائفين تقدمنا، ونصبنا الخيل كالجبل للحفاظ على أحسابنا، وسبقنا خصومنا بالفتيان الذين يرون القتال فى الحروب مجدا، وبالشيب الذين تمرنوا على الحروب.

ونحن أعظم الناس حيث نقارع أبناءهم مدافعين عن أبنائنا، وإننا إذا خشينا منهم اجتمعنا لهم مستعدين، وإذا لم نخش تفرقنا فى مجالسنا، فإننا نغير عليهم مع سيد من بنى جشم بن بكر، ندق به كل صعب ولين (أو) نهزم به الضعاف والأشداء.

ملامح التعبير والتصوير:

تبدأ الأبيات (من العشرين إلى الخامس والأربعين) بمخاطبة عمرو بن هند ومعاتبته وتعنيفه والافتخار عليه.

وبعد التصريع فى البيت العشرين إيذانا ببداية لمضمون جديد سوى ما تقدم عن الخمر والمرأة ، تبرز فى هذه البداية بعض أفعال الأمر والنهى التى يستعين الشاعر بها فى إظهار قوته وتهديده لابن هند، ولننظر إلى الطباق فى قوله: "نورد" و"نصدرهن" وكيف صور بالاستعارة المكنية الرايات بالإبل، والأيام الغر استعارة مكنية أخرى شبه فيها الأيام بالخيل بسبب ما فى جباهها من بياض، والأيام الغر (البيضاء) كناية عن العزة والمجد، وشخص الخيل وجعلها مقيمة على سيد القوم.

وصور الأعداء بالشجرة التى قطعت أغصانها، كما استعار الرحى للحرب، (استعارة تصريحية) والطحين للقتلى، والثفال للمعركة، واللهوة للقتلى، وهكذا تبرز الصورة الخيالية المستوحاة من البيئة، فضلا عن الألفاظ المكونة لبعض الأجزاء من هذه الصور مثل (نورد) و(روينا) و(الخيل) و(كلاب الحى) و(قتادة) و(الرحى) و(ثفالها) و(لهوتها) وغيرها، كما جعل حدة السيوف وسرعة قطعها كأنهم يقطعون بها حشيشا.

وتبرز المبالغة فى حديث الشاعر وتصويره لجماجم الأعداء، حيث شبه رؤوسهم فى عِظمها بأحمال الإبل، كما جعل ضربهم

للأعداء بالسيوف فى صورة لعب الأطفال بالمخاريق، لإثبات السرعة فى الضرب، أو أنهم لا يحفلون بضرب الأعداء مثلما لا يبالى الأطفال بلعب المخاريق، وشبه كثرة الدماء على الثياب بصبغ أحمر خضبت أو طليت به. ويعبر الشاعر عن حماسة قومه وشدة بأسهم بهذه التعبيرات التى تنقل القارئ إلى ساحة المعركة، فشبه عساكرهم بالرهوة، وجمع فى الحرب بين فتيانهم وشيبهم للتأكيد على أن الشجاعة والقوة تشملهم جميعا، خاصة الفتيان الذين جعلوا القتل مجدا لهم.

ويطابق الشاعر فى اللفظ والمعنى بين البيتين (الثالث والأربعين والرابع والأربعين) ، وقال: إننا نغير على الأعداء مع سيد من هؤلاء القوم، ندق به السهل والحزن (طباق) أى نهزم به الضعاف والأشداء، وتكشف كلمة (رأس) عن مجاز مرسل علاقته الجزئية.

وهكذا تتواكب أجزاء الصور الخيالية مع الألفاظ الموحية المعبرة عن البيئة بما فيها من حياة قبلية تنتشى للفخر، وتشمخ بالحماسة وأحاديث القتال.

وقد ذكر الشاعر قوله (من يلينا) فى بيتين لم يفصل بينهما بسبعة أبيات ويسمى ذلك بالإيطاء، وهو عيب من عيوب القافية لا ندرى كيف نلتمس العذر للشاعر عنه، فالتكرار لم يقتصر على المعانى والألفاظ وإنما وصل إلى القافية.

ثالثا: خطاب إلى عمرو بن هند:

٤٦- بـأىِّ مـشيئَةٍ عمـرَو بْـنَ هنـدٍ ∴ تُطيـــع بنـــا الوشـــاةَ وتَزْدَرينـــا[١]

٤٧- بـأى مـشيئةٍ عمـرو بـن هنـد ∴ نكـــونُ لقَـــيْلِكُمْ فيهـــا قَطِينـــا[٢]

٤٨- تَهَـــدَّدْنَا وأوعِـــدْنَا رُويـــدا ∴ متـــى كُنّـــا لأمِّـــكَ مَقْتَوينـــا؟[٣]

٤٩- فـإن قَنَاتَنَـا يـا عمـرُو أعْيَـتْ ∴ علـــى الأعـــداءِ قَبْلَـــك أن تَلينـــا[٤]

٥٠- إذا عَضَّ الثقـافُ بهـا اشمـأزَّتْ ∴ وولَّـــتْهُمْ عَـــشَوْزَنَةً زَبُونـــا[٥]

٥١- عَـشَوْ زَنَـةً إذا انقلبَـتْ أرَنَّـتْ ∴ تـــدُقُّ قَفَـــا المُثَقَّـــفِ والجَبينـــا[٦]

٥٢- فهَلْ حُدِّثْتَ فى جُـشَمِ بْـنِ بَكْـرٍ ∴ بـــنَقْص فـــى خُطُـــوبِ الأوَّلينـــا[٧]

إيضاح الأفكار:

لا تخلو هذه الأبيات من الفخر والحماسة مع أنها موجهـة فـى معظمها للملك (عمرو بن هند)، فيسأله الشاعر عما دعاه إلى إطاعـة الوشاة فيهم، والإساءة إليهم؟ وكيف يكونون خدما له، وكيـف يـستمع لكلام الوشاة عنهم فيحتقرهم.

---

(١) مشيئة: من شاء يشاء، الوشاة: جمع واش أى نمام، تزدرينا: تحتقرنا.
(٢) القيل: الملك، القطين: الخدم.
(٣) تهددنا (بفتح التاء): ترفق فى تهددنا، رويدا: منصوب علـى المـصدرية، مقتوينا: نسب إلى مقتى من القتو وهو خدمة الملوك.
(٤) القناة: الرمح ، ويراد بها العزة أحيانا.
(٥) الثقاف: الخشبة أو الحديدة التى تقوم بها الرماح، وثقفته: قومته، اشـمأزت: نفرت أو ارتفعت أو انقلبت، العشوزنة: الصلبة الشديدة ، الزبـون: الـدفوع، والزبانية: الأشداء.
(٦) أرنت: صوتت، المثقف: من يقوم بتشذيب القناة وتثقيفها، تشج: تجرح.
(٧) جشم بن بكر من أجداد الشاعر، الخطوب: الأمور العظيمة.

ويقول الشاعر لعمرو: ترفق فى تهديدنا والتوعد لنا، فمتى كنا خدما لأمك؟ ونحن لا نلين لأحد؟ ويصف أسلحتهم ويشيد بقناتهم (رمحهم) التى إذا نفرت وارتفعت كشفت عن صلابتها بقوة دفعها وعند تقليبها، تحدث صوتا، وتجرح من يقوم بتشذيبها فى قفاه وجبينه، ويوجه ابن كلثوم حديثه وسؤاله لعمرو بن هند، فيقول له: هل حدثت بنقص كان من بنى جشم بن بكر فى قديم الزمن؟

ملامح التعبير والتصوير:

كثر الأسلوب الإنشائى فى هذه الأبيات وبخاصة الاستفهام حول طاعة (ابن هند) للوشاة، والمطالبة بخدمة آل تغلب له؟ فمتى كانوا خدما لأمه؟ فالاستفهام للنفى والاستنكار والتهكم، والنداء للسخرية فقد ناداه باسمه وليس بالكنية كما سبق.

كما استعار الشاعر القناة (للعزة)، ويجوز أن يكون المراد منها الأصل وهى الرمح، ثم يصورها بدابة نافرة.

وتبرز الألفاظ فى دلالتها على قوة السلاح وشجاعة تغلب، والفخر بالآباء والأجداد، والتعبير عن البيئة العربية القديمة المليئة بالحروب.

رابعا: عودة للحماسة والفخر:

٥٣- وَرِثْنَا مجدَ عَلْقمةَ بنِ سيْفٍ ∴ أباحَ لنا حُصونَ المجدِ دِيْنَا[١]

---

(١) علقمة بن سيف: من رجال تغلب المعدودين، وهو الذى أنزلها جزيرة العراق، دينا: طاعة لأمرنا، بلا قهر لنا.

٥٤- ورِثْـتُ مُهَلْهَـلا والخـيرَ منـه ∴ زُهـيرا نِعْـم ذُخْـرِ الـذّاخرينا[١]

٥٥- وعَتَّابًـا وكُلْثُومـا جميعـا ∴ بهـمْ نِلْنَـا تـراثَ الأكرَمِينـا[٢]

٥٦- وذا البُـرَةِ الـذى حُـدِّثْتَ عنـه ∴ بـه نُحْمـى ونَحْمـى المُلْجِئِينـا[٣]

٥٧- ومنّـا قبلَـهُ الـساعِي كُلَيـبٌ ∴ فـأيُّ المجـدِ إلا قـد وَلِينـا[٤]

٥٨- متـى نعقِـدْ قرينَتَنـا بحبـلٍ ∴ نَجُـذُّ الوصـلَ أو نَقِـصِ القَرينـا[٥]

٥٩- ونُوجَـدُ نحـن أمـنَعَهُمْ ذِمَـارًا ∴ وأوفَـاهم إذا عقـدُوا يمينـا[٦]

٦٠- ونحـنُ غَـداةَ أُوقِـدَ فـى خَـزَازٍ ∴ رَفَـدْنا فـوق رِفْـدِ الرافِـدينا[٧]

٦١- ونحـنُ الحابِـسون بـذى أَرَاطَـى ∴ تَـسَفُّ الجِلَّـةَ الخُـورُ الـدَّرِينا[٨]

٦٢- ونحـنُ الحـاكمون إذا أُطِعْنـا ∴ ونحـن العـازِمون إذا عُـصِينا[٩]

---

(١) مهلهلا: هو المهلهل بن ربيعة جد الشاعر من قبل أمه، ويقال: إن اسمه عدى وذكره فى شعره، قال:

ضربتْ صدرهَا إلىّ وقالـت ∴ يا عَديا لقـد وقتـك الأواقـى

وزهير جد للشاعر من قبل أبيه .

(٢) عتاب: جد للشاعر أيضا، وكلثوم: أبوه، التراث: ما يخلفه الإنسان لورثته.

(٣) ذو البرة: من بنى تغلب، وسمى بذلك لشعر على أنفه يستدير كحلقة فى أنف البعير .

(٤) قبله: أى قبل ذى البرة، كليب أخو المهلهل بن ربيعة، ولينا: صرنا ولاة عليه.

(٥) القرينة: الناقة والجمل تكون فيهما خشونة فيربط أحدهما إلى الآخر، حتى يلين أحدهما، أو أن يقرن جمل صعب إلى جمل ذلول، نجذ: نقطع، نقص: نكسر، والفعل وقص يقص .

(٦) الذمار: حريم الرجل أو العهد، أو ما يجب على الإنسان أن يحميه .

(٧) أوقد فى خزاز: أوقدتنا نار الحرب فى جبل خزاز أو خزازى، الرفد: العطاء.

(٨) أراطى: موضع وقعة كانت لقوم الشاعر، تسف: تأكل، الجلة: الكبار من الإبل، الخور: الكثيرة الألبان، الدرين: اليابس من الحشيش.

(٩) الحاكمون: المانعون.

٦٣- ونحن التاركون لما سَخِطْنَا ∴ ونحن الأخِذُون لِما رَضِينا[١]

٦٤- وكنا الأيمنِين إذا التقينا ∴ وكان الأيْسَرين بنُو أبينا[٢]

٦٥- فصالُوا صولةً فيمن يَلِيهم ∴ وصُلْنا صولةً فيمن يلينا[٣]

٦٦- فأبُوا بالنِّهَاب وبالسبايا ∴ وأُبْنَا باللُوك مُصَفّدِينا[٤]

٦٧- إليكُمْ يا بنى بَكْرٍ إليكم ∴ ألَّما تعرِفوا منّا اليَقِينا[٥]

٦٨- ألما تعلمُوا منا ومنكم ∴ كتائبَ يَطَّعِنَّ ويرتمينا[٦]

٦٩- علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليمانى ∴ وأسيافٌ يَقُمْنَ وينْحَنِينا[٧]

٧٠- عنينا كلُّ سابغةٍ دِلَاصٍ ∴ تَرَى فوق النِّجادِ لها غُضُونا[٨]

٧١- إذا وُضِعَتْ عن الأبطالِ يوما ∴ رأيتَ لها جُلودَ القومِ جُونا[٩]

٧٢- كأن مُتُونَهُن متونُ غُدرٍ ∴ تُصفِّقُها الرياحُ إذا جَرَيْنا[١٠]

٧٣- وتحملُنا غداةَ الروعِ جُرْدٌ ∴ عُرِفْن لنا نقائِذَ وافتُلِينا[١١]

---

(١) ما: بمعنى الذى.

(٢) بنو أبينا: مضر بن نزار، وربيعة بن نزار.

(٣) الصولة: الحملة.

(٤) أبوا: رجوا، النهاب: مفردها أنهب وهو الغنيمة، السبايا: النساء المأسورات، المصفدون: المغللون بالأصفاد.

(٥) إليكم: ارجعوا إلى أنفسكم وكفوا.

(٦) الكتائب: مفردها كتيبة أى جماعة، يطعن من (الطعن).

(٧) البيض: جمع بيضة وهى الحديد، اليلب: نسيجة من الجلد تلبس تحت الحديد أو الدرع، ينحنين: ينثنين من كثرة الضراب.

(٨) السابغة: الدروع الواسعة، الدلاص: البراقة، النجاد: حمائل السيف، الغضون: الطرائق.

(٩) الجون: السود (والجون: الأبيض) والجمع الجون.

(١٠) المتون: الأوساط، الغدر: جمع غدير، تصفقها: تضربها.

(١١) الروع: الفزع، الجرد: القصير الشعر من الخيل، النقائذ: المستنقذات من أيدى الأعداء، والمفرد نقيذة، الافتلاء: الفطام.

٧٤- ورِثْنَاهُنَّ عن آباءِ صِدْقٍ ∴ ونُورِثُها إذا مُتْنَا بَنِينا[١]

٧٥- وقد عَلِمَ القبائلُ من مَعَدٍّ ∴ إذا قُبَبٌ بأبْطَحِها بُنِينا[٢]

٧٦- بأنا العاصِمُون بكل كَحْلٍ ∴ وأنا الباذلُون لِمُجْتَدِينا[٣]

٧٧- وأنا المانعون لما يَلِينا ∴ إذا ما البَيْضُ زَايلَتِ الجُفونا[٤]

٧٨- وأنا المُنْعِمون إذا قَدَرْنَا ∴ وأنّا المهلكون إذا أُتِينا[٥]

٧٩- وأنا الشاربون الماءَ صفوا ∴ ويشربُ غيرُنا كدرًا وطينا[٦]

٨٠- ألا أبلِغْ بنى الطَّمَّاحِ عنا ∴ ودُعْمِيًّا فكيف وجدْتُمونا؟[٧]

٨١- نَزَلْتُمْ منزِلَ الأضيافِ منا ∴ فعجّلنا القِرَى أن تَشْتِمونا[٨]

٨٢- قَرَيْنَاكم فعجلنا قِراكُمْ ∴ قُبيل الصبحِ مِرْدَاةً طَحُونا[٩]

٨٣- على آثارِنا بِيْضٌ كِرامٌ ∴ نُحاذِرُ أن تُفَارِقَ أو تَهُونا[١٠]

٨٤- ظَعائنُ من بنى جُشَمِ بنِ بكرٍ ∴ خَلَطْنَ بمَيْسَمٍ حَسَبًا وَدِينا[١١]

---

(١) الضمير فى ورثناهن راجع إلى الجرد .
(٢) الأبطح: المكان المنبطح الذى فيه رمل وحصى .
(٣) العاصمون: المانعون، كحل: سنة شديدة، الباذلون: المعطون، المجتدون: الطالبون.
(٤) زايله: فارقه .
(٥) أتينا: أغير علينا.
(٦) ورد: "ونشرب إن وردنا الماء صفوا" .
(٧) بنو الطماح ودعمى: حيان من إياد.
(٨) القرى: كرم الضيافة، و(أن تشتمونا) عند الكوفيين (أن لا تشتمونا).
(٩) مراده: صخرة، الطحون: الرحى.
(١٠) الآثار: جمع أثر، البيض: النساء.
(١١) الظعائن: مفردها الظعينة، وهى المرأة فى الهودج أو الهودج فيه المرأة، الميسم: الحسن والجمال.

٨٥- أخَـذْنَ علـى بُعـولَتِهِنَّ عهـدًا ∴ إذا لاَقَــوْا فــوارسَ مُعْلَمِينــا[١]

٨٦- لَيَـسْتَلِبُنَّ أبـدانا وبَيْـضًا ∴ وأسْـرَى فـى الحديـد مُقرَّنينـا[٢]

٨٧- إذا مـا رُحْـنَ يَمْـشين الهُوَيْنـا ∴ كمـا اضـطربتْ متـونُ الـشاربينا[٣]

٨٨- يَقُـتْنَ جيادَنـا ويقُلْـنَ لَـسْتُمْ ∴ بُعولَتنـا إذا لم تَمْنَعُونـا[٤]

٨٩- إذا لَـم نَحْمِهِـنَّ فـلا بَقِينـا ∴ لـشيئٍ بعـدَهُنَّ ولا حيينـا[٥]

٩٠- ومـا مَنَـعَ الظعـائِنَ مثـلُ ضـرْبٍ ∴ تـرَى منـه الـسواعِدَ كالقُلِيْنـا[٦]

٩١- لنـا الـدنيا ومـنْ أضْحَى عليهـا ∴ ونـبطِشُ حـين نـبطشُ قادِرينـا[٧]

٩٢- إذا ما المَلْـكُ سامَ النـاسَ خـسْفًا ∴ أبَيْنَـا أن نُقِـرَّ الخـسفَ فينـا[٨]

٩٣- نُـسَمَّى ظـالمين ومـا ظَلَمْنـا ∴ ولكنّـا سـنبدأُ ظالِمينـا[٩]

٩٤- إذا بلـغ الفطـامَ لنـا صـبىٌّ ∴ تِخـرُّ لـه الجبـابرُ سـاجِدِينا[١٠]

٩٥- ملأنـا الـبرَّ حتـى ضـاقَ عنـا ∴ وظَهْـرَ البحـر نَمْلـؤُه سـفِينا[١١]

٩٦- ألاَ لا يجهَلَـنْ أحـدٌ علينـا ∴ فنجهَـلَ فـوق جهـلِ الجاهِلِينـا[١٢]

---

(١) البعولة: جمع بعل، والهاء فيه لتأنيث الجمع.
(٢) ليستلبن: جواب لأخذ العهد، لأنه (قسم)، الأبدان: الدروع، بَيْضا: هو بيض الحديد، وروى بيضا بكسر الباء، والمراد السيوف.
(٣) الهوينا: نوع من المشى.
(٤) يقتن: من القوت، أى يطعمن ، الجياد: الخيل.
(٥) فلا بقينا: فلا تركنا.
(٦) القلون: جمع قلة وهى الخشبة التى يرفعها الصبيان، ثم يضربون بها.
(٧) بطش يبطش (بكسر الطاء وضمها) : أخذه بالقوة.
(٨) الخسف: الظلم.
(٩) سنبدأ: سنبتدئ.
(١٠) الجبابر: الجبابرة، فحذف الهاء، والجبار هو الذى يقتل على الغضب.
(١١) ظهر البحر: منصوب بإضمار فعل، ويجوز رفعه على الابتداء.
(١٢) الجهل: السفه، ومعنى نجهل فوق جهل الجاهلين: نجازيهم بسفههم جزاء يربو عليه.

إيضاح الأفكار:

قال عمرو: إننا ورثنا مجد (علقمة بن سيف)، ذلك الرجل الذى غلب أقرانه على المجد الذى ورثناه، وقال: ورثت مجد المهلهل بن ربيعة، ومجد من هو خير منه، وهو زهير، فنعم ذخر الذاخرين، كما ورث الكرم عن جده وأبيه. وقال: إننا نحمى أنفسنا بذى البرة (رجل من تغلب) ونحمى من يلوذ بنا، ويفتخر بكليب وائل، فهم أصحاب مجد ورفعة، فمتى دخلنا مع قوم فى حرب أو جدال غلبناهم وقضينا عليهم، وإننا أمنعهم للحرم أو العهد، وأوفاهم باليمين عند عقدها، ونحن – غداة أوقدت نار الحرب فى خزاز – أعنا بنى نزار – فوق إعانة المعينين – فى حربهم مع أهل اليمن، ونحن الحابسون للإبل، التى تأكل الحشيش اليابس بذى أراطى، لمساعدة قومنا على قتال الأعداء، وإننا نمنع الأذى عمن أطاعنا ، ونثبت على قتال من خالفنا وعصانا .

وإذا كرهنا شيئا تركناه، ولم نُجبر عليه، وإذا رضينا عن شيئ أخذناه، ولم نمنع منه، وكنا يوم خزاز حماة الميمنة عند لقاء الأعداء، وكان بنو عمنا فى الميسرة، فحمل بنو بكر على من يليهم من الأعداء، وحملنا على من يلينا، ورجعوا بالغنائم والسبايا، ورجعنا بالملوك المصفدين، ويدعو بنى بكر للتباعد، فقد علموا اليقين من نجدة قومه وبأسهم وعلموا ما كان من بكر وتغلب من الكتائب التى تشارك فى الطعان والارتماء ، وإننا نلبس الحديد وتحته نسيج من الجلد، فنحمل السيوف التى تستقيم وتنثنى لطول الضرب بها، وكانت علينا دروع سابغة براقة تراها فوق حمالة السيف ذات طرائق وتشنجات، وإذا

خلعها الأبطال يوما رأيت جلودهم سوداء بسبب لبسهم لها، وإن أواسط الدروع كالماء إذا ضربته الرياح فصارت به طرائق. وقال: وتحمِلُنا الخيل الرقيقة الشعر المعروفة لنا بفطامها عندنا ، واستخلاصنا لها من أيدى الأعداء، وإنها تناسلت عندنا قديما، فقد ورثناها عن آباء شأنهم الصدق فى القول والفعل ، وسنورثها لأبنائنا بعد موتنا ٠

وقد علمت القبائل ــ إذا ضربت القباب ــ أننا سادة العرب، وأننا كرماء نعصم الناس مما يتعرضون له من هلاك، ونمنح العطاء لطلابه، وأننا نصون من يقترب منا عندما تفارق السيوف الجفون، كما أننا ننعم بالفك من الأسر على من وقع فى أيدينا، ونهلك من جاء للإغارة علينا، ونأخذ أفضل الماء ونترك السيئ منه، فنحن السادة وغيرنا الأتباع لنا ٠

واسأل ــ أيها المخاطب ــ عنا بنى الطماح ودعميا كيف وجدونا أشجعانا أم جبناء؟

وقال: جئتم للحرب فأنزلناكم ضيوفا، وعجلنا القرى (الضيافة) مخافة أن تشتمونا، أو لكى لا تشتمونا، ولقيناكم بالضيافة المتمثلة فى هذه الكتيبة الحربية التى تطحنكم طحن الرحى، وخلفنا من ورائنا النساء ونحذر أن نفارقهن أو يصرن إلى غيرنا، فيلحق بهن الهوان، وإن الظعائن (النساء) من جشم بن بكر لهن مع جمالهن حسب ودين، وقد أخذن على أزواجهن عهدا ــ إذا قاتلوا جيوشا من الأعداء قد

أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها فى الحرب ــ أن يأخذوا الـدروع وملابس الحديد والأسرى المصفدين.

ويصف الشاعر ما فيه النساء من نعمة حيث يمشين الهوينا، ويتمايلن كما يفعل السكارى، ويطعمن الخيل، ويطالبن بالمحافظة والمنعة من الأعداء، وإن حماية النساء مقدمة على الرغبة فى الحياة، وإنهن يحتجن للحفاظ عليهن لنوع من ضرب، الأعداء تطير فيه السواعد كالقلين (جمع قلة للمذكر السالم على غير بابه) ، وأننا أصحاب نفوذ ولا سلطان لأحد علينا، وإذا بطشنا بأحد أخذناه بقوة واقتدار، وأننا أصحاب عزة لا تصل الملوك إلى ظلمنا، ونحن متهمون ظلما بالعدوان، ولم نعتد على أحد، لكننا إذا رغبنا فسوف نبتدئ بالظلم والقسوة وقتما نشاء.

وإن الجبابرة يخشون الصغار منا، فيسجدون لهم ــ أى لصغارنا ــ وإننا بالكثرة التى نملأ البر بالجيش، والبحر بالسفن، أى أننا بالكثرة التى ملأنا بها الدنيا برا وبحرا، فضاق البر عن بيوتنا، وضاق البحر عن سفننا، ويرغب فى ألا يسفه أحد قومه ــ وهم بنو تغلب ــ لأنهم سوف يعاقبونه بالجزاء الزائد عن جهله وحمقه وسفاهته.

من ملامح التعبير والتصوير:

يحرص الشاعر فى هذا الجزء من المعلقة على تأكيد الفخر بالمبالغة التى يصل بها أحيانا حد الإسراف والغلو، كما يكثر من الأساليب الإنشائية المتمثلة فى النداء والاستفهام، ويشير إلى العديد من

أصوله من جهة أبيه وأمه، مثل علقمة بن سيف ومهلهل وزهير وعتاب وكلثوم وذى البرة وكليب، ويوظف أفعل التفضيل وأفعال المدح والمفاعيل المطلقة والتأكيد اللفظى فى التعبير عن الفخر وإثراء المبالغة.

ولننظر إلى الاستفهام الذى أفاد النفى - فى البيت السابع والخمسين - وتكشف المقابلة بين شطرى البيت الثالث والستين عن تعدد أحوال القوة فى تغلب، لكن الطباق مقتصر، على اللفظ فى قوله: "الأيمنين والأيسرين"؛ لأن تمام المعنى أن الفريقين غير متضادين فى الهدف، فهم أبناء عمومة، ويبرز الشاعر الفخر بالقبيلة فى مجموعة من أنصاف الأبيات بدأها بقوله: "نحن"، ومجموعة أخرى من المفاعيل المطلقة.

ويستمر الشاعر فى تأكيد الفخر القبلى بالمطابقة بين "من يليهم" و"من يلينا" ويوازن بين أوبة بنى بكر وأوبة بنى تغلب، ويتمثل التهديد فى اسم فعل الأمر "إليكم" والاستفهام - فى البيت السابع والستين - للتقرير، والطباق فى قوله: "يقمن ويرتمينا" للتأكيد على شدة الضرب وطول زمانه، وقد "شبه الدروع فى صفائها بالماء فى الغدر، وقيل: شبه تشنج الدروع بالماء فى الغدير إذا ضربته الرياح فصارت له طرائق"[1].

---

(١) عن ابن السكيت من كتاب شرح القصائد العشر للتبريزى، ص٢٨٢ .

وطابق الشاعر بين قوله: "المنعمون" وقوله: "المهلكون" وبين قوله: "صفوا" وقوله: "كدرا وطينا".

ولعل القارئ يعى سر هذه الجموع المكررة التى يرمى الشاعر إلى تأكيد الفخر بها، كما شبه الكتيبة من الجيش بالصخرة التى تطحن الأعداء طحن الرحى.

ويذكر ما فيه نساء قومه من رفاهية ونعيم، حيث يتمايلن فى مشيتهن كما يتمايل السكارى، وشبه طيران السواعد عند الضرب بالقلين (جمع قلة) وهى من لعب الأطفال ، ويجعل الدنيا لهم (بأسلوب القصر).

ويصل الشاعر إلى مرحلة متقدمة من المبالغة فى الفخر بقوله:

إذا بلغَ الفطامَ لنا صبىٌّ ∴ تَخِرُّ له الجبابِرُ ساجِدِينا

وكلمة السجود من الألفاظ الإسلامية، وقد طابق الشاعر بين البر الذى امتلأ ببنى تغلب، والبحر الذى امتلأ بسفنهم.

وفى البيت الأخير مزاوجة أو مشاكلة بين الجهل وجزائه، فضلا عما به من تناسق فى النغم، وتجانس فى اللفظ ، والمبالغة التى غلف الشاعر بها أبياته الأخيرة تتواكب مع الحماسة ومع الفخر الذى أكده وحرص عليه.

تعليق ونقد:

١ – عمرو بن كلثوم شاعر جاهلى ذو مكانة فى قومه، وهو واحد من أصحاب القصائد المشهورة، لكن شعره قليل ومنزلته أكبر

من نتاجه ذلك؛ لأنه استمد مركزه من طبيعة الحياة القبلية القديمة التى ارتفع الشاعر بها إلى منزلة سامية .

وقد ابتدأ معلقته بأبيات فى الخمر والغزل على غير ما كان يصنع الجاهليون فى مطالع قصائدهم من الوقوف على الأطلال، والبكاء عليها، إشارة إلى أصحابها الذين ماتو أو ارتحلوا عنها، وربما كان هذا الجزء من القصيدة القديمة الذى يطول ويقصر بين شاعر وآخر هو الذى يخلص فيه صاحبه إلى نفسه، لتمثيل التجربة الذاتية أو الفردية، ويترك الباقى من النص للتعبير عن الغرض الأصلى أو الأغراض الأخرى فى القصيدة.

٢ - إذا نظرنا إلى المعلقة التى بين أيدينا نظرة نقدية شاملة غير مفصلة فسوف نراها واحدة من القصائد القديمة التى تتمخض عن تجربة شعرية فريدة تكتمل بها الوحدة الموضوعية التى لا تتجاوز الحماسة والفخر، ولا تتعداهما حتى فى الأبيات التى يخاطب بها عمرو بن هند ، فهو لا يتجاوز الفخر، ولذلك وجدت نفسى أمام نص ملحمى يصعب تجزئته إلا ببعض الفواصل التى ترجع لطبيعة هذه الدراسة، وليس إلى خصائص النص نفسه، وإن كان ثمت تجزئة فترجع إلى أوقات النظم وساعات الإنشاد، خاصة ما اتصل منها بالحديث إلى عمرو بن هند قبل قتله وبعده، لتأكيد حماسة الشاعر والقبيلة فى التصدى للحاكم، ووصف آلات الحرب، وخيل القتال، والفخر بالآباء والأجداد .

وهكذا تنطلق المعلقة لتجمع بين الذاتية والجماعيـــة، وإن كانـــت النزعة القبلية هى السمة الغالبة.

٣ - تجمع القصيدة بين الطبع والصنعة، كما تجمع بين الألفـــاظ الرقيقة والكلمات الجزلة، ويمارس الشاعر التكرار كثيرا فى الأساليب والمعانى، فكم من بيت يبدأ بقوله: "ونحن" وبقوله: "وإنا"، فضلا عـــن تكراره للحروف بمثل البيت الذى اختتمت به القصيدة بالروايـــة التـــى اعتمدنا عليها وهو قوله:

ألا لا يجهلـــن أحـــدٌ علينـــا ∴ فنجهلَ فـــوقَ جهـــلِ الجاهلينـــا

على أننا لا ننسى حقيقة الشاعر، فهو جاهلى من تغلب، ولا نَلْقى من شعره قصيدة أخرى تضارع هذه المعلقة الفريدة التى بلغ فيها أوج الفخر فى قوله:

لنا الدنيا ومَنْ أضْحَى عليهـــا ∴ ونبطِشُ حين نـــبطِشُ قادرينـــا

وقوله:

إذا بلـــغ الفطـــامَ لنـــا صـــبىٌّ ∴ تخـــرُّ لـــه الجبـــابرُ ســـاجدينا

ثم ما هذه الكلمة (ساجدينا)؟ وكيف تسربت إلى لسان شاعر كان يحيا بالجزيرة فى العراق؟

ولابن كلثوم أن يفخر بالقبيلة وأن يشيد بأيامها الخالدة فى عهـــود أبائه وأجداده وأن يزهو بالانتصار فى المعـــارك، وحمـــل الأســـلحة

وبالخيل المسومة، والمنازل العالية وبطحنهم للأعداء كطحن الرحى للحب٠

والقصيدة من الوافر وهو بحر معروف بالسهولة والخفة، غير أن الشاعر كان يلوى الصياغة لبعض الكلمات، لتنساب فى النسق العروضى من خلال حرف الروى وهو (النون) والألف التى تأتى بعده٠

٩ – لم يكن الشاعر معنيا بتكثيف الصور الخيالية بما فيها من تشابيه واستعارات وكنايات؛ لأن مجال الفخر بذكر الآباء وأيام مجدهم وعزتهم لا تخول له أن يسرف فى تصاويره المجازية التى انبثقت من البيئة، بعكس المبالغة التى فرضت نوعا من الصياغة المتميزة فى الكثير من الأبيات، ولم تكن باقى المحسنات فى اللفظ أو المعنى هدفا للشاعر، وقد جاء منها ما تواكب مع الموقف أو الفكرة التى ألحت عليه، وعبر عنها بالعديد من الأبيات، التى اختلفت بين رواية وأخرى مما يجعل الحديث عن الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى موردا عذبا كثير الزحام٠

ومع ذلك فانعكاسات البيئة على النص واضحة من خلال الحديث إلى الملك أو توجيه الخطاب إلى (بنى بكر) و(بنى الطماح) وبعض القبائل الأخرى، أو الفخر بالأنساب وبأيام النصر وبالأسلحة وأدوات القتال، فضلا عما تمليه الحياة الصحراوية من عنف وتجاوز، ولجوء إلى القوة والبطش والقتال٠

وصف الطبيعة
لامرئ القيس

نبذة عن امرئ القيس:

لا أحب أن أكرر هنا ما سبق أن كتبته عن امرئ القيس في مواضع أخرى[١] ، لكنني أذكر — في التقديم لأبيات من المعلقة عن وصف الفرس والبرق والمطر — أذكر شيئا من حياة هذا الشاعر الذي كان رائدا من رواد الشعر الجاهلي، فابتكر كثيرا من المعاني، وألف العديد من القصائد، وصال وجال بين ربوع الجزيرة العربية، وربما تجاوزها، ووصل إلى القسطنطينية واتصل بقيصر الروم.

وهو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، والذي ولد في أرض نجد بديار بني أسد، وأبوه من قبيلة كندة وأمه تغلبية أو يمنية، وله أخت وإخوة كثيرون، وقال الشعر في بواكير حياته، التي انصرف فيها إلى العبث والمجون، بينما كان والده (حجر) مشغولا بأمور الملك وتبعات الرئاسة لقبيلة كندة.

واستيقظ امرؤ القيس من غفوته اللاهية بعد قتل بني أسد لأبيه فقال كلمة منتشرة على الألسنة:

"ضيعني صغيرا، وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم، ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر"، وأخذ يتنقل بين القبائل بحثا عمن يساعده

---

(١) يراجع كتاب: (امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين) وكتاب (تاريخ الأدب الجاهلي) لكاتب هذه السطور .

فى الانتقام من بنى أسد، وإعادة الملك إلى قبيلته، ولكنه لم يظفر بغنم يتوج هذه المساعى التى قيل: إنها انتهت به إلى الموت بالقرب من أنقرة فى سنة خمسمائة وأربعين من الميلاد، وهو تاريخ ليس محل اتفاق بين القدماء والمحدثين •

شعره:

حرص القدماء على رواية شعر امرئ القيس، فتناولوه بالبحث والنقد والتحليل، فرواه حماد وأبوعمرو الشيبانى والأصمعى، والمفضل الضبى وغيرهم، وصنعه أبوسعيد السكرى من جميع الروايات •

أما الذين تناولوه بالشرح والنقد، فنذكر منهم: الأصمعى والطوسى وابن قتيبة وأبا على القالى والبطليوسى، والأعلم الشنتمرى وغيرهم •

ومن أشهر قصائد امرئ القيس المعلقة، وأولها:

قِفا نَبْك من ذِكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ ∴ بسقْط اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ

واللامية الثانية، وأولها:

ألا عِمْ صبَاحا أيها الطللُ البالى ∴ وهل يَعِمْنَ من كان فى العُصُر الخالى

والبائية الشهيرة، وأولها:

خَليلىَّ مُرَّا بى على أم جُنْدَب ∴ نُقضِّ لُبانَاتِ الفؤادِ المعذَّب

والقصيدة التى ذكر فيها بعضا من أحداث محاولته لاستعادة الملك:

سمـا لـكَ شـوقٌ بعـدما كـان أقْـصَرا ∴ وحلّـت سُـلَيْمَى بطـنَ قَـوٍ فَعَرْعَـرا

والأبيات التى أشار فيها إلى جانب من مأساته:

ألا إنْ لا تكـن إبـلٌ فمِعْـزَى ∴ كـأن قـرونَ جِلّتِهـا العِـصىُّ

والقصيدة المتميزة التى وصف فيها الغيث، وأولها:

دِيمـةٌ هطْـلاءُ فيهـا وَطَـفُ ∴ طَبَـقُ الأرضِ تحـرَّى وتَـدُرْ

وقد ذُكرت هذه الأشعار من رواية الأصمعى، وهو من النقاد الثقات.

المعلقة:

تعد معلقة امرئ القيس أشهر القصائد الجاهلية، التى أعجب بها القدماء واختاروا كثيرا من أبياتها للتمثيل به، والتحدث عنه، وبخاصة النقاد، وعلماء اللغة الذين ظهروا فى القرن الثالث الهجرى، وما بعده من أمثال الجمحى وابن قتيبة والأصفهانى (صاحب الأغانى) والمرزبانى والباقلانى وغيرهم . كما عرض الكثيرون من رجال العصر الحديث لهذه القصيدة ، وانتقدوا بعض أبياتها، بل إن البعض وقف فيها موقفا متشددا كالدكتور طه حسين، الذى شك فى شعر امرئ القيس كله، ثم ارتضى منه المعلقة واللامية الثانية، التى ذكرت أولها فى السطور السابقة.

أما فيما يتصل بالمعلقة فكتب عنها الدكتور طه يقول:

"وللنظر فى المعلقة نفسها، فلسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران فى هذه القصيدة، لا نحفل بقصة تعليق هذه القصائد السبع أو العشر على الكعبة، أو فى الدفاتر، فما نظن أن أنصار القديم يحفلون بهذه القصة، التى نشأت فى عصر متأخر جدا، والتى لا يثبتها شيئ فى حياة العرب وعنايتهم بالآداب.

وقال: "وهم بعد هذا يختلفون اختلافا كثيرا فى رواية القصيدة فى ألفاظها وفى ترتيبها، ويضعون لفظا مكان لفظ وبيتا مكان بيت، وليس هذا الاختلاف مقصورا على هذه القصيدة، وإنما يتناول الشعر الجاهلى كله.." (١) .

ولقد كتبتُ ردودا على هذا الطرح النقدى لست معنيا بإثباته هنا؛ حتى لا أنصرف عن الموضوع الذى أهدف إليه وهو دراسة شعر الطبيعة فى المعلقة، تلك القصيدة التى تبدأ بالوقوف على الديار والبكاء عليها، ثم يتجه الشاعر إلى الغزل الحسى الصريح بأم الحويرث وأم الرباب وعنيزة وفاطمة، وينتقل إلى التعبير عن همومه ورصد أحزانه بالحديث عن الليل، قال:

وليلٍ كموج البحر أرخَى سدولَه ∴ علىّ بأنواع الهمومِ ليَبْتلى
فقلتُ له لما تمطّى بجَوزِهِ ∴ وأردفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلَى ∴ بصبح وما الإصباحُ فيكَ بأمثلِ
فيا لَكَ من ليل كأن نجومَه ∴ بكلّ مُغَارِ الفَتْل شُدّت بيَذْبُلِ

---

(١) فى الأدب الجاهلى، ص٢٠٤، طبع دار المعارف.

ويختمها بوصف الفرس ورحلة الصيد والمطر، الذى يغير من وجه الحياة فى البيئة العربية القديمة.

أولا: وصف الخيل والصيد:

قال(*):

١- وقد اغتدِى والطيرُ فى وُكُنَاتِها ∴ بمُنْجــردٍ قيْــدِ الأوابــدِ هَيْكَــل[1]

٢- مِكَــرٍ مِفَــرٍّ مقبــلٍ مــدبر معــا ∴ كجُلْمود صخرٍ حطـه السيلُ من علِ[2]

٣- كُمَيْتٍ يزِلُ اللِّبْدُ عن حال مَتْنه ∴ كمــا زلّــتِ الــصفواءُ بــالمُتنزِّل[3]

٤- مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الونى ∴ أثَــرْنَ غُبــارا بالكَدِيــد المُرَكَّــل[4]

٥- على العَقْبِ جيّاشٍ كأن اهتزامَه ∴ إذا جاشَ فيـه حمْيُـهُ غَلْـيُ مِرْجـل[5]

٦- يُطِيُر الغلامَ الخفَّ عن صَهَواتِه ∴ ويُلْــوِى بــأثوابِ العنيــفِ المثقَّــل[6]

(*) ديوان امرئ القيس، ص١٩، طبع دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.

(١) الوكنات: جمع وكنة وهى عش الطائر، المنجرد: الماضى فى السير، وقيل: قليل الشعر، الأوابد: الوحوش، الهيكل: الفرس الضخم.

(٢) مكر: مقبل على الأعداء، مفر: هارب وفار منهم، الجلمود: الحجر الصلب، الحط: إلقاء الشئ من علو إلى أسفل.

(٣) الكميت: الفرس الذى فى لونه حمرة ضاربة إلى السواد، متنه: ظهره، زلت: سقطت، الصفواء: الصخرة انملساء، المتنزل: النازل عليها.

(٤) الفرس المسح: الذى يسح العدو سحا مثل سح المطر، أى انصبابه، السابحات: الخيل التى تبسط يديها عند العدو كأنها تسبح، الونى: الفتور، الكديد: ما غلظ من الأرض، المركل: الذى ركلته الخيل بحوافرها.

(٥) العقب: تحريك الفرس بالعقب، جياش: من جاش يجيش أى يضطرب كالقدر التى تغلى، اهتزامه: صوت جوفه عند الجرى، الحمى: الغلى، المرجل: القدر.

(٦) الخف: الخفيف، الصهوات: مواضع اللبد من ظهر الحصان، العنيف: الأخرق، المثقل: الثقيل.

٧- دَريرٍ كخُـذْرُوفِ الوليـدِ أمَـرَّهُ ∴ تقلُّـبُ كفَّيْـه بخَـيطٍ مُوَصَّـل[١]

٨- لـه أيْطَـلا ظبـيٍ وسـاقَا نعامـةٍ ∴ وإرخـاءُ سِـرْحانٍ وتقريُـب تَتْفُـل[٢]

٩- كأنّ على الكِتْفين منه إذا انْتَحـى ∴ مَـداكَ عـروسٍ أو صَـرَايَة حَنْظَـل[٣]

١٠- وبـاتَ عليـه سـرجُه ولجامُـهُ ∴ وبـات بعَيْنِـى قائمًـا غـيرَ مُرْسَـل[٤]

١١- فعَـنَّ لنـا سِـرْبٌ كـأن نعاجَـه ∴ عَـذارَى دَوارٍ فـى المُـلاَءِ المُـذَيَّل[٥]

١٢- فـأدْبرن كـالجَزْع المفصَّل بينَـه ∴ بجيـدٍ مُعَـمٍّ فـى العـشيرة مُخْـوَل[٦]

١٣- فألحقَنَـا بالهاديـاتِ ودونَـه ∴ جواحِرُهـا فـى صَـرَّةٍ لم تَزَيَّـل[٧]

١٤- فعادَى عِداء بـين ثـورٍ ونَعْجـةٍ ∴ دِراكـا، ولم يُنْـضَح بمـاء فيُغْـسل[٨]

---

(١) درير: سريع براكبه، الخذروف: لعبة للصبيان ، وهى عبارة عن حصاة مثقوبة يجعل فيها خيط فيديرها الصبى على رأسه فتحدث صوتا، الوليد: الصبى، الإمرار : إحكام الفتل .

(٢) الأيطل: الخاصرة وهى الكشح ما بين آخر الضلوع إلى الورك، الإرخاء: جرى ليس بالشديد، السرحان: الذئب، التقريب: نوع من العدو يرفع فيه يديه معا، ويضعهما معا، التتفل: ولد الثعلب.

(٣) المداك: الحجر الذى يسحق به الطيب، الصراية: الحجر الذى يدق فيه الحنظل، (روى فى صلاية) .

(٤) بعينى قائما: حيث اراه واقفا، غير مرسل: غير مهمل، للاستعداد لركوبه.

(٥) عن: عرض وظهر، سرب: قطيع، وهو هنا من البقر الوحشى، النعاج: الإناث من بقر الوحش، العذارى: مفردها العذراء وهى البكر التى لم تمس، دوار: صنم كان الجاهليون يدورون حوله، الملاء: الملاحف، جمع ملاءة، المذيل: السابغ أو الأسود الذيل.

(٦) أدبرن: انصرفن، الجزع: الخرز اليمانى الذى فيه أسود وأبيض، الجيد: العنق، المعم: الكريم الأعمام، المخول: الكريم الأخوال.

(٧) ألحقنا: أى الفرس، الهاديات: المتقدمات من البقر، الجواحر: المتخلفات، الصرة: الجماعة أو الصيحة أو الشدة، لم تزيل: لم تتفرق.

(٨) عادى: والى، عاديت بين الشيئين إذا جمعت بينهما، عداء: موالاة فى الجرى، دراكا: سريعا أو متابعة، لم ينضح بماء: لم يعرق.

١٥- وظل طهاةُ اللحم مِن بين مُنْضِجٍ ∴ صَــفيفٍ شــواء أو قَــديرٍ مُعجَّــلِ[١]

١٦- ورُحْنا وراحَ الطِّرْف يَنْفُضَ رأسه ∴ متَــى مــا تَــرَقّ العــينُ فيــه تَــسَهَّلِ[٢]

١٧- كــأن دمــاءَ الهاديــات بنَحْــرِهِ ∴ عــصارةُ حِنَّـــاء بـــشَيْبٍ مُرَجَّـــلِ[٣]

١٨- وأنتَ إذا استَدْبَرْتَهُ سَدّ فرجَــه ∴ بـضافٍ فُويـق الأرضِ لـيس بـأعزَلِ[٤]

ثانيا: وصف البرق والمطر:

١٩- أحـارِ تـرى بَرْقـا كـأن وميـضَه ∴ كلَمْــعِ اليــدين فــى حَبــيٍّ مُكلَّــلِ[٥]

٢٠- يُضِيُئ سَنَاه أو مَصابيحُ راهـبٍ ∴ أهــانَ الــسَّلِيطَ فــى الــذُّبالِ المفتَّــلِ[٦]

٢١- قَعدتُ له وصُحْبَتِى بـين حَـامرٍ ∴ وبـــينَ إكـــامٍ بُعْـــدَ مـــا متأمَّـــلِ[٧]

٢٢- وأضْحى يَسُحُّ الماءَ عن كـل فِيقةٍ ∴ يَكُــبُّ علــى الأذقــانِ دوحَ الكَنَهْبُــلِ[٨]

---

(١) الطهاة:الطباخون، الصفيف: الشرائح المرققة الموضوعة على الحجارة حتى تنضج،قدير:مطبوخ فى القدر،معجل:بسبب الرغبة فى التعجيل بطعام الصيد.

(٢) الطرف : الفرس السريع، ترق العين: ترتفع إليه العين، تسهل: تبتعد، أو تنحدر عنه، أو تتجه إلى أسفله.

(٣) الهاديات : المتقدمات من البقر الوحشى، مرجل: مسرج .

(٤) استدبرته: شاهدته من الخلف، الفرج: ما بين رجليه، الضافى: الذنب الطويل، الأعزل: ما كان ذيله فى ناحية، أى مائل إلى جنب منه.

(٥) أحار: منادى مرخم وأصله يا حارث، وروى أصاح بالترخيم أيضا، أى يا صاحب، الوميض: اللمعان، لمع اليدين: حركتهما، الحبى: السحاب المتراكم، المكلل: المستدير كالإكليل.

(٦) يضيئ سناه: الضمير راجع على البرق، السنا أو السناء: الضوء والرفعة، مصابيح راهب: مردود إلى قوله (كلمع اليدين) أى معطوف على محل خبر كأن، السليط: الزيت، أهان السليط: كثر منه، الذبال: الفتائل.

(٧) قعدت له (الضمير للبرق)، حامر وإكام: موضعان، بعدما متأمل: أى يا بعد ما تأملت .

(٨) يسح الماء: يصب الماء، عن: بمعنى بعد، الفيقة: ما بين الحلبتين، يكب: أى السيل، الأذقان: جمع ذقن وهى مجتمع اللحيتين، الدوح: مفردها: الدوحة وهى الشجرة العظيمة ، الكنهبل: نوع من شجر البادية .

٢٣- وتيماءَ لم يترك بها جِذْع نخلةٍ ∴ ولا أُطُمـا إلا مَشِيدا بجَنْدَل[١]

٢٤- كأن طَمِيَّةَ المُجَيْمِر غُدْوَةً ∴ من السَّيْل والغُثَّاء فَلكةُ مِغْزَل[٢]

٢٥- كأنّ أبانًا فى أفانِين وَدْقِه ∴ كبيرُ أناسٍ فى بجَادٍ مُزَمَّل[٣]

٢٦- وألَقى بصحراءِ الغبيطِ بَعَاعَهُ ∴ نُزولَ اليمانِى ذى العِيابِ المخوَّل[٤]

٢٧- كأن سِباعًا فيه غَرْقَى غُدَّيةً ∴ بأرجائه القُصْوى أنابيشُ عُنْصُل[٥]

٢٨- على قَطَن بالشَّيم أيمنُ صوبه ∴ وأيسرُه على الستار فيذبل[٦]

٢٩- وألقى ببسيان مع الليل بركَه ∴ فأنزل منه العصم من كل منزل[٧]

إيضاح المعنى:

١ - (الأبيات من الأول إلى الثامن عشر) عن وصف الفرس،

تحدث امرؤ القيس فى هذه الأبيات عن مجموعة من الصفات التى

---

(١) تيماء: موضع، جذع نخلة: أصل نخلة، الأطم: القصر أو البيت المسطح، مشيد بجندل: مبنى بالحجارة.

(٢) طمية: اسم جبل، المجيمر: أرض لبنى فزارة، الغثاء: ما جاء به السيل من الحشيش والشجر وغير ذلك.

(٣) أبان: اسم جبل، أفانين: أنواع، الودق: المطر، بجاد: كساء مخطط، مزمل: ملتف بالثياب، والكلمة صفة لكبير، لكنها جرت بالمجاورة لكلمة: بجاد.

(٤) صحراء الغبيط: موضع، البعاع: الثقل، العياب: جمع عيبة وهى ما يوضع فيها متاع الشخص، المخول: الذى له خدم.

(٥) غرقى: جمع غريق، غدية: تصغير غدوة وهى أول النهار، بأرجائه: بنواحيه، أنابيش: أصول النبت. جمع نَبْش، أى ما قطع ونبش من أصوله، العنصل: نبت برى يشبه البصل.

(٦) قطن: اسم جبل (فى بلاد بنى أسد) والستار ويذبل جبلان (مما يلى البحرين) وبينهما وبين قطن مسافة بعيدة، الشيم: النظر إلى البرق مع ترقب المطر، الصوب: المطر.

(٧) بسيان: جبل، البرك: الصدر، العصم: الأوعال.

يتميز بها حصانه، فهو ضخم ينطلق الشاعر عليه قبل خروج الطيور من أوكارها، وإن سرعته بالدرجة التى لا يشعر المتابع له بالذهاب والإياب وهو يشبه الصخرة التى ينزل بها السيل من أعلى الجبل فى الضخامة والقوة، وإنه ذو ظهر أملس لا تثبت اللبد عليه مثل الصخرة الملساء التى ينزلق النازل عليها، وينطلق الحصان كالمطر بمنزلة السابحات التى تثير التراب بحوافرها من السرعة، وهو لا يحتاج إلى سوط لجريه، لأن قوة دفعه تجعل جوفه يغلى كالقدر، وإن الخفيف فى جسمه لا يثبت عليه من شدة عدوه، أما الأخرق الذى لا يحسن الركوب فيثبت على ظهره ولا تستقر ملابسه عليه، أو لا يستطيع أن يصلح من ثيابه، وإن سرعة الفرس كسرعة الخذروف (لعبة للأطفال) الذى أحكم فتل خيطه، ووصل به خيط آخر، ليكون أشد فى دورانه، وإن خاصرتى الفرس مثل خاصرتى الظبى فى الضمور، وإن ساقيه مثل ساقى النعامة فى الصلابة، فسرعته فى لين مثل جرى الذئب، وعدوه مثل تقريب ولد الثعلب، وإن أعلى كتفيه فى الصفاء والبريق والإملاس كحجر الطيب أو كصراية الحنظل.

وقد بات منتظرا الصباح، وعليه سرجه ولجامه، واقفا غير مهمل، وعلى أهبة الاستعداد للرحيل، وبعد الانطلاق ظهر سرب من البقر الوحشى كانت الإناث فيه مثل الفتيات اللاتى يطفن بصنم دوار، وعليهن ملاءات ذات ذيول وأهداب سوداء، وإن إناث البقر فى انصرافها مثل الخرز اليمانى الملون فى عنق صبى كريم الأعمام والأخوال، وإنه ألحقهم بالمتقدمات من البقر، متجاوزا المتأخرات؛ لأنها

قريبة منه ، أو يدع المتخلفات ويصل بأقصى سرعته إلى المتقـدمات ثقة فى شدة جريه.

ولقد انطلق الفرس وتوالى إسراعه بين ثور ونعجة مـن البقـر الوحشى وصادهما فى انطلاقة واحدة، دون أن يعرق بالمـاء فيحتـاج إلى الغسل، وكثر الصيد فظل الطباخون ينضجون اللحـم بالـشواء أو بالطبخ فى القدر، استحسانا بالتعجيل بما كان من لحوم الصيد.

إن هذا الفرس رائع الصورة جميل المنظر، إذا ما نظرت العـين إلى أعلاه اشتهت النظر إلى أسفله، وإنه ـ لحسن صورته إذا ارتفعت العين إليه ـ خاف الناظر عليه، فيبتعد بعينه عنه خوفا من الحسد، وإن دماء البقر على صدره كالحناء المخضب بها شعر الشيب المسرح، كما يبدو ذيله فى الخلف متوسطا بين الطول والقصر، وغير منحرف إلـى ناحية، فليس فى هيئته من الوراء ما يعيبه، ويضعف من جمال شـكله وتكوينه.

٢ - الأبيات (من التاسع عشر إلى التاسع والعـشرين) عـن وصف البرق والمطر . وقد انتقل امرؤ القيس ـ فى معلقتـه ـ مـن وصف الفرس إلى وصف البرق ، فأخذ ينادى على شخص (حـارث) أو (صاحب) سائلا عما يراه من برق، كأن لمعانـه وانتـشاره بـين السحاب المستدير أو القريب من الأرض يـشبه حركـة اليـدين فـى السرعة والانتشار ، وإن هذا البرق يلمع وينير بـضوئه، وإن لمعانـه

يشبه ضوء مصابيح الراهب، الذى أمال الفتائل بصب الزيت عليها فيزداد الضوء.

وقعد الشاعر مع أصحابه بين هذين الموضعين (حامر وإكام) يتأمل ابتعاد البرق، أو يعجب لبعد المكان، الذى تأمل البرق فيه، وأضحى الصحاب يصب الماء بين حين وآخر ، فيقتله أشجار الكنهبل (العضاه) ويضرب بها أعالى الأشجار، ولم يترك المطر بناء فى تيماء إلا هدمه باستثناء ما كان مبنيا بالجص والحجارة، وقد استدار ماء السيل، وتأثر ما يحمله بجبل المجيمر، كما تستدير فلكة المغزل البيضاء، وتلتف على المغزل الأسود، وإن جبل أبان عندما يغشاه المطر ويعمه الخصب يكون مثل الرجل الكبير الملتف بكساء مخطط (دائما)، وإن المطر يلقى بثقله على صحراء الغبيط فينشر بها الكلأ والنبات والأزهار، لتكون كالتاجر اليمنى الذى يحمل بضاعته ويعرضها على الناس فيزدهر المكان ويعم الخير.

وإن السباع عندما غرقت فى المطر كانت تظهر من بعيد بصورة أصول البصل الذى يلعب به الأطفال، أو إن السباع فى تلطخها بالطين أو الماء الكدر تشبه أصول نبات البصل المتلطخة بهذه الأشياء، ويواصل امرؤ القيس وصفه للسيل وما يحدثه فى نواحى الجبال، فيذكر أن الناظر للماء يشهد أيمنه على جبل (قطن) وأيسره على جبلى (الستار ويذبل) مع بعد المسافة بين الموضعين إشارة إلى عظم السيل

وكثرته. وقال: إن المطر كان شديدا، إذ سقطت مقدماته على جبل (بسيان) ليلا فأنزل التيوس المستقرة به.

تشبيهات امرئ القيس:

١ – جعل امرؤ القيس الفرس قيدا للأوابد (الوحوش) ، لأنه يمنعها من المرور والفوت، فصار قيدا لها، ولعله أول من وصف الفرس بهذا الوصف، فتبعه الناس فى ذلك، فقالوا:

"قيد النواظر، وقيد الألحاظ، وقيد الكلام، وقيد الحديث، وقيد الرهان"[١] .

وقد امتدح القدماء هذا البيت وغيره من الأبيات التى تحدث فيها عن الفرس.

٢ – وتعاور النقاد البيت الثانى (هنا) لإزالة ما يمكن أن يفهم من تناقض ألجأهم إليه الشاعر، لجمعه بين صفتين لا تجتمعان لتناقضهما فى قوله:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا

ولكنه يصور سرعة انتقال الفرس من كر إلى فر، ومن إقبال إلى إدبار، وأسهم الطباق بين كل اثنين من هذه الأمور فى التأكيد على سرعة الفرس واندفاعه، كما شبه اجتماع كل تلك الصفات مع قوة بدنه

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى، ص٧٠ تحقيق السيد صقر، طبع دار المعارف بمصر.

وصلابته بالصخر المندفع من أعلى الجبل، تأكيدا على السرعة والقوة.

٣ - ينتقل الشاعر إلى متن الفرس (ظهره) وانزلاق لبد السرج من قوته، فيشبهه بانزلاق ما يزل عن الصخرة الملساء، أى أنه شبه ظهر الفرس بالصخرة الملساء.

٤ - كما شبه انطلاق الفرس بسح المطر، واستعار (السابحات) للخيل التى تثير التراب بحوافرها، وأن هذا (المسح) يشبه السابحات.

٥ - وهو جياش مضطرب يغلى كالقدر، ثم شبه صوت جوفه عند الجرى بغليان القدر.

٦ - ويكشف الشاعر عن هيئتين للفرس: يطير ـ فى الأولى ـ الغلام الخفيف من على صهوته، بينما يثبت ـ فى الثانية ـ الشخص الأخرق أو القوى فلا تستقر ملابسه عليه، أو لا يتمكن من إصلاحها.

٧ - وشبه سرعة الفرس بسرعة الخذروف، وهى لعبة للأطفال سريعة الدوران بما أحكم من فتل خيطها.

٨ - وجمع بين أربعة تشبيهات فى بيت واحد، قال:

لــه أيْطَــلا ظَبــيٍ، وســاقَا نعامــةٍ ∴ وإرخــاءُ سِــرْحَان وتَقْريــبُ تَتْفُــلِ

إذ صور خاصرتيه بخاصرتى الظبى، وجعل ساقيه كساقى النعامة، وشبه عدوه بعدو الذئب، وقفزه بقفز الثعلب.

٩ – وشبه أعلى كتفيه فى الصفاء والبريق والإملاس بحجر الطيب أو صراية الحنظل.

١٠ – وارتفع امرؤ القيس بمكانى فرسه، فجعل عينيه مستودعا لحفظه ومباشرته، والتأكيد على كرامته، ويقابل بين مبيت الفرس وعليه سرجه ولجامه، ومبيته فى عينيه فلم يهمله استعدادا للركوب.

١١ – وشبه جماعة من إناث البقر الوحشى ببعض الفتيات اللائى يدرن حول الصنم الجاهلى (دوار)، ولا شك فى أن الشاعر كان حريصا على وصف هذا الصيد الذى تحقق بفضل حصانه.

١٢ – كما شبه انصراف بقر الوحش وما فيه من البياض والسواد بالخرز اليمانى الملون فى عنق صبى ذى أصل كريم.

١٣ – وصور سرعة الفرس فى لحاقه بالمتقدمات من البقر وسبقه للمتأخرات منها.

١٤ – وأكد الموالاة فى الجرى والإسراع بالمفعول المطلق (عداء)، وطابق فى أحوال البقر (بين الثور والنعجة)، كما أن النضح بالماء كناية عن العرق.

١٥ – وكنى فى البيت الخامس عشر بكثرة اللحم وتنوع إعداده، واستمرار الطهاة فى أعمالهم عن مهارة الصائد، وسرعة الفرس وقوته.

١٦ - وطابق بين ارتقاء العين بالنظر إلى الفرس وانحدارها وتسهلها إلى أسفل تأكيدا على جمال صورته وحسن منظره.

١٧ - وشبه دم أوائل البقر على صدر الفرس بعصارة الحناء على الشيب، أى أنه صور حمرة الدم بصدر الفرس بحمرة الخضاب فى الشيب.

١٨ - ولم يكتف الشاعر بتصوير الفرس من الأمام أو الجنب، بل كشف عن مؤخرته، وذكر أن ذيله معتدل الطول، غير منحرف إلى ناحية منه.

١٩ - وشبه سرعة البرق وانتشاره بسرعة اليدين وتحريكهما، كما شبه الحبى بكائن أو شيئ عليه إكليل.

٢٠ - وقد شبه وميض البرق بمصابيح الراهب، التى زاد ضوؤها بكثرة صب الزيت عليها.

٢١ - النداء (بدون أداة) فى قوله: "بعدما متأمل" للتعجب من حالة البرق.

٢٢ - وشبه الشاعر أعالى الشجر بالأذقان (تصريحية)، وجعل دوح الكنهبل شيئا يكب (مكنية) والاستعارتان مبنيتان على التشبيه.

٢٣ - وصور السيل بصورة طاغية أزال فيها ما كان أمامه من جذوع النخل والبيوت المسقوفة.

٢٤ - وشبه جبل المجيمر فى التفاف السيل به بفلكة المغزل.

٢٥ - وشبه جبل أبان فى التحافه بأنواع من المطر بصورة رجل كبير ملتف بكساء مخطط.

٢٦ - واستعار البعاع لكثرة المطر، كما شبه نزول المطر وانتشاره بصحراء الغبيط بنزول التاجر اليمنى الذى يعرض تجارته من الملابس الزاهية على الناس.

٢٧ - وشبه السباع الغارقة فى المطر بأصول نبات البصل فى صغر الحجم أو فى التلطخ بالماء والطين والكدر.

٢٨ - (والأيمن والأيسر) طباق يؤكد العمق والبعد بين جهتى النظر إلى السيل.

٢٩ - وشخص السيل، وجعله يلقى بمقدماته ليلا على جبل بسيان، وهكذا انطلق الشاعر إلى توظيف التشبيه المحسوس الذى أحاط فيه بالفرس والصيد والبرق والمطر.

تعليق ونقد:

١ - يعد شعر الوصف من أوسع الأبواب فى الشعر الجاهلى، ذلك لأن الطبيعة مجال رحب فسيح للشعراء، سواء أكانت صامتة مثل الليل والمطر والطلل والبرق، أم كانت متحركة مثل الفرس والناقة والثور والوحش والأسد وغيرها.

وسبق أن كتبت قبل ذلك أقول: "ويمثل الفرس فى حياة الجاهليين أهمية كبيرة للاستعانة به فى الحروب، وفى رحلات الصيد، وفى

الركوب والزينة، وقد عبر امرؤ القيس عن هذه الحالات فى شـعره، وصاغ منها صورة مثالية للجواد العربى فى القديم"(١).

أما الماء فيمثل أهمية كبيرة لحياة الإنسان العربى فـى الباديـة، فالشاعر الجاهلى يتحدث عنه فى شعره، ويصور مطرا وغيثا وابـلا وسيلا، وتبرز أهميته وتأثيره على الطبيعة؛ ولـذلك رأينـا الأبيـات الأخيرة من المعلقة قد جعلها الشاعر خالصة للحـديث عـن الفـرس والماء ، وهما دعامتان من دعائم الحياة العربية القديمة.

٢ - أما تشبيهات امرئ القيس فلا نظير لها بين الجـاهليين ـ فـى حدود ما اطلعنا عليه من أشعارهم، إذ أنه كثف الصور التشبيهية، واعتمد فيها على المشاهدات المحسوسة بما فيهـا مـن منـاظر طبيعية صامتة أو متحركة، خاصةً فى المراحل الأولى من حياته التى عشق فيها المرأة، وأحب الفرس، وصاحب المجان والخلعاء، ولعل معلقته ـ فى الكثير من أبياتها ـ تصور بعضا من جوانب هذه الحياة، ففيها الحصان المنجرد، الذى صار قيـدا للوحـوش، ويسرع ويندفع كاندفاع الجلمود من الصخر، ويظهر مع الـشاعر فى مواجهة العذارى، وصولا إلى إتمام الصيد والشواء.

٣ - ارتباط امرئ القيس ببيئته كبير جدا، فهـو يـذكر الطيـر فـى وكناتها، والفرس الذى قيد الوحوش، وجلمود الصخر، والكميت، والصفواء، والفرس المسح، وغلى القـدر، وخـذروف الوليـد،

---

(١) امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين، ص٨١ .

والظبى والنعامة، والسرحان، والتتفل، وصراية الحنظل، والسرج واللجام، وسرب النعاج، وعذارى دوار، والخرز اليمانى، والثور والنعجة، وشواء الصيد، وعصارة الحنـــاء، ووميض البـــرق، والذبال المفتل، ودوح الكنهبل وتيماء، وطمية المجيمـــر، وأبانـــا وصحراء الغبيط، والسباع، وأنابيش العنصل، وقطنـــا، وبـــسيانا والعصم، فهذه الدواب والنباتات والجبال، التى جمع الشاعر بينها فى هذه اللوحات الفنية تصور جوانب شتى من البيئة العربية فى العصر الجاهلى.

٤ – أما الألفاظ والأساليب فلا خلاف على قدرة امرئ القيس علـــى التأليف بينها، ونحتها من البيئة، وصوغ كلماتها بميـــزان البحـــر الطويل (فعولن مفاعلين) أربع مرات الذى طال بتمام تفعيلاتـــه، وعدد حروفه التى تصل إلى ثمانية وأربعين حرفـــا فـــى البيـــت الواحد بين ساكن ومتحرك.

٥ – لسنا بحاجة إلى التأكيد على تعدد الموضوع فى هـــذه القـــصيدة وفى قصائد جاهلية أخرى كثيرة، لكنه مـــن الخطـــأ البـــين فـــى الدراسات النقدية أن نجزم بتعميم يشمل الشعر القـــديم كلـــه، وإلا فليرجع من شاء إلى معلقة عمرو بن كلثوم، ففيها غناء عن كلام كثير حول الوحدة الموضوعية، ولكننى أجزم بوجود رابط نفسى بين سائر الأبيات فى معلقة امرئ القيس، فإذا كان الرجل يبـــالغ فى غزله، ويمعن فى فحشه، ويسرف فى مجاهرته فإنما يمارس

نوعا من التعويض عما يموج فى أعماقه من ضعف أو عجز لا تريده النساء فيه، فإذا ما جاء إلى وصف الليل أو الفرس أو المطر رأينا جانبا من مأساته مع الزمن، ورغبة فى الخلاص مما حاق به، وألم بقبيلته، فهو متأمل مع الليل، وراغب فى الانتصار مع الفرس ومحب للطبيعة والقوة والحياة مع البرق والسيل.

فالنظرة السريعة الخاطفة للمعلقة بتمامها تقول بنوع من تعدد الموضوع، أو استطراد يخل بالوحدة الموضوعية أو العضوية للأبيات، لكن بحث الجوانب النفسية والشعورية لهذا الرجل المنكسر وفهم جانب من مأساته ينير السبل، ويفتح الباب للدخول إلى ساحة النقد، حيث تتلاقى الأفكار الجزئية، وتشكل إطارا عاما وموضوعا واحدا تدثر به امرؤ القيس فى معلقته الشبقية الفريدة.

فى الشكوى والبكاء

لجليلة بنت مُرّة

ارتبطت حياة جليلة بنت مرة بن ذُهْل بن شيبان بالمآسى والأحزان فى حرب البسوس، التى استمرت قرابة أربعين سنة بين بكر وتغلب ابنى وائل بن ربيعة، وأريقت فيها دماء كثيرة من بنى شيبان وهم قوم جليلة وأخيها جساس بن مرة (وبنو شيبان بطن من بكر)، وكليب والمهلهل بن ربيعة من بنى جُشم وهم بطن من تغلب. وجليلة شاعرة جاهلية فصيحة ليس لها شأن كبير فى ميزان الأدب الجاهلى الذى وضعت فيه بقصيدتها التى سنعرض لها، وتفجرت فيها أحزانها بأسباب لا تعود إليها ٠

وكان لوالدها (مُرّة بن ذُهْل) عشرة من البنين منهم همام ونضلة وجساس، وهذا الأخير أصغرهم، وتزوجت من كليب والذى كان اسمه (وائل) وعرف بلقبه (كليب) إذ كان عنده جِرْو كلب يرمى به، فحيث بلغ عواؤه كان حِمى له لا يرعى فيه أحد، وجاء فى المثل الذى يشهد بعزة هذا الرجل: (أعز من كليب وائل)، والتصق به كليب ولم يعد يعرف إلا به، وتذكر الروايات أن كليبا كان يفتخر بعزته، ويباهى بقوته أمام جليلة، حتى لا تقرن به أخويها هماما وجساسا، وأنه قد بغى بغيا شديدا، وتجاوز بعنفه حدود الاحتمال، وفرض نفوذه على قومه، فلم يكونوا يقيمون أو يرحلون إلا بأمره وسلطانه٠

ونزلت على جساس خالته وكانت تسمى (البسوس بنت منقذ التميمية) والتى ضرب بها المثل فى الشؤم فقيل (أشأم من البسوس) وكان معها ناقة خوارة (رقيقة حسنة) تسمى (سراب) وكانت ترعى مع إبل جساس فى حى كليب الذى أنكرها، وغضب من وجودها على عادة الجاهليين، فرماها بسهم أو قوس فى ضرعها، وهامت حتى وصلت إلى البسوس (صاحبتها) والتى صاحت قائلة: واذلاه، كما تمادى كليب فعير بنى شيبان بعجزهم عن حماية من يلجأ إليهم، وضعفهم أمام قومه بنى جشم، وهاج جساس، وأخذته العزة وركبه الغرور فتربص لكليب، وطعنه برمح أودى بحياته وقضى عليه.

وحزن عليه أخوه المهلهل بن ربيعة، وتوعد البكريين، فقال:

يا لبكرٍ انشروا لى كُلَيْبا ∴ يا لبكر أين أين الفرارُ؟
يا لبكر فاظعنوا أو فحُلُّوا ∴ صرَّح الشرُ وبانَ السرّارُ[١]

ووقف على قبره يرثيه، فقال:

أهاجَ قذاةَ عينىَّ الادكارُ ∴ هدوءا فالدموعُ لها انحدارُ
وصار الليلُ مشتملا علينا ∴ كأن الليلَ ليس له نهار
وبت أراقبُ الجوزاءَ حتى ∴ تقاربَ من أوائلها انحدارُ
أصرِّفُ مقلتىَّ فى إثر قومٍ ∴ تباينت البلاد بهم فغَاروا[٢]

(١) الأغانى، جـ٥ ص٥٩ .

(٢) الادكار: التذكرة، هدوءا: من هدأة الليل، ووقع الشاعر فى عيب بالقافية يسمى (الإيطاء) حيث كرر كلمة انحدار بين أقل من سبعة أبيات، وغاروا: اختلفوا (الأبيات فى أيام العرب ص١٥١).

والمهلهل بن ربيعة بن الحارث بن زهير من تغلب، قال أبوالفرج فيما يرويه عن يعقوب بن السكيت:

"وإنما لقب مهلهلا لطيب شعره ورقته، وكان أحد من غنى من العرب شعره، وقيل: إنه أول من قصّد القصائد، وقال الغزل، فقيل: قد هلهل الشعر أى: أرقه، وهو أول من كذب فى شعره وهو خال امرئ القيس بن حُجر الكندى . وكان فيه خنث ولين، وكان كثير المحادثة للنساء، فكان كليب يسميه [زير النساء]" (١).

واشتعلت الحرب بين الحيين بكر وتغلب فى العديد من الأيام، التى أريقت فيها دماء كثيرة من قبيلة ربيعة.

مأساة جليلة بنت مرة:

يروى أن جليلة بنت مرة انطلقت إلى بيت أبيها ــ بعد مقتل زوجها ــ ولما بلغها ما قالته أخت كليب، ردت عليها وأنشأت قصيدتها التى سنعرض لها، وكانت حاملا من زوجها، ووضعت ابنا لها يسمى الهِجْرِس، تربى فى بيت خاله جساس، ولم يعرف أبا له غيره، وتزوج من ابنة خاله فلما عرف حقيقة ما جرى انتقم لوالده من خاله، ويقال: إن جليلة قد تنقلت مع بنى شيبان مدة حروبهم إلى أن توفيت عام ثمان وثلاثين وخمسمائة .

ويقال أيضا عن جساس: إن أعداءه قد جرحوه عند سفره إلى الشام، ومات فى إثر جرحه سنة أربع وثلاثين وخمسمائة.

---

(١) الأغانى جـ٥ ص٥٧ .

أما الأبيات التى بكت فيها بنت مرة على مأساتها، فلا شك فـــى أنها تصوير حى ومؤلم لبعض الجوانب من حياة المرأة فى الجاهليـــة، حيث كانت تكتوى بنيران الحروب والصراعات حول مواضع الكـــلأ والماء فى الصحراء.

ويقال: إن جليلة قد انتظرت ، لتشهد مأتم زوجها، ثـــم أُخرجـــت منه فى الرواية التى ذكرها أبوالفرج فى الأغانى إذ نقل ما يأتى:

"لما قَتل جسّاس بن مرة كليب بن ربيعة، وكانت جليلة بنت مـــرة أخت جساس تحت كليب، اجتمع نساء الحى للمأتم، فقلن لأخت كليـــب: رحلى جليلة عن مأتمك، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب، فقالت لها: يا هذه اخرُجى عن مأتمنا؛ فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا، فخرجت وهى تجر أعطافها، فلقيها أبوها مرة، فقال لها: ما وراءك يا جليلة؟

قالت : ثُكْل العدد، وحزن الأبد، وفقد حليل، وقتل أخٍ عن قليـــل، وبين ذين غَرْسُ الأحقاد، وتفتت الأكباد .

فقال لها: أو يكفُّ ذلك كرم الصفح وإغلاءُ الديات؟

فقالت جليلة: أمنية مخدوع ورب الكعبةّ أبالبُدْنِ تدع لك تغلب دم ربِّها!

قال[١]: ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب: رحلة المعتدى وفِراق الشامت، ويلٌ غدا لآل مرة من الكرّة بعد الكرّة ، فبلغ قولهـــا جليلـــة،

---

(١) رواى الخبر وهو الشرقى بن القُطامى.

فقالت: وكيف تَشْمَتُ الحرة بهتك سِتْرِها وترقُّبِ وِتْرِها! أسعد الله جد أختى أفلا قالت: نَفْرةُ الحياء وخوف الاعتداء، ثم أنشأت تقول..." [(١)] الأبيات.

القصيدة[(*)]

١- يا ابنةَ الأقوامِ إن شئتِ فَلا ∴ تعْجلِى باللومِ حتى تَسألِى[(٢)]

٢- فإذا أنتِ تبيَّنتِ الذى ∴ يُوجب اللوم فلُومِى واعذُلى[(٣)]

٣- إن تكُن أختَ امرئٍ ليمتْ على ∴ شَفَقٍ منها عليه فافْعلى[(٤)]

٤- جَلَّ عندى فعلُ جسّاس فَيَا ∴ حَسْرتى عما انجلَتْ أو تَنْجلِى[(٥)]

٥- فعلُ جسّاسٍ - على وَجْدى به - ∴ قاطعٌ ظَهْرى ومُدْنٍ أجلى[(٦)]

٦- لو بعَينٍ فُقِئتْ عيْنى سوى ∴ أُختِها فانفقأتْ لم أحفِل[(٧)]

٧- تحملُ العينُ قَذى العين كما ∴ تحمِلُ الأم أذى ما تَفْتَلى[(٨)]

٨- يا قتيلاً قَوض الدهرُ به ∴ سقف بَيتىَ جميعًا من علِ[(٩)]

---

(١) الأغانى، جـ٥ ص٦٢، ص٦٣ .

(*) تراجع القصيدة فى الأغانى لأبى الفرج جـ٥ ص٦٣، وفى كتاب أيام العرب فى الجاهلية، لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين، ص١٤٨ .

(٢) الأقوام: المراد أهل زوجها كليب، تسألى: أى عن الحقائق.

(٣) العذل: الملامة، والاسم العذل(محركة الوسط) واعذلى بضم الذال وكسرها.

(٤) الشفق: الخوف .

(٥) جل: عظم وكبر، الحسرة: الغم والندم، انجلت: انكشفت.

(٦) الوجد: الحزن، مدن: مقرب، أجلى: نهاية حياتى.

(٧) فقئت: قلعت، لم أحفل: لم أهتم (حفل من باب ضرب).

(٨) القذى: ما يقع فى العين وفى الشراب، تفتلى: تربى .

(٩) يا قتيلا: يا مقتولا: (فعيل بمعنى مفعول) تخاطب زوجها الذى قتل، قوض: هدم، بيتى: بيت زوجها وبيت أبيها .

٩ - هدمَ البيتَ الذى استحدثتُه ∴ وانْثَنى فى هَدْم بيتى الأوّل[١]

١٠- ورمانى قتلُه من كَثَبٍ ∴ رميةَ المُصْمِى به المستأصِل[٢]

١١- يا نِسائى دونكنّ اليوم قد ∴ خصّنى الدهُر برُزْءٍ مُعْضِل[٣]

١٢- خَصّنى قتلُ كليبٍ بلظىً ∴ من ورائى ولَظىً مُستقبل[٤]

١٣- ليس من يَبْكى ليومين كمنْ ∴ إنما يَبْكى ليومٍ يَنْجَلِى[٥]

١٤- يشتِفى المدركُ بالثأرِ وفى ∴ دَرَكى ثأرِىَ ثُكْلُ المُثْكِل[٦]

١٥- ليته كان دَمِى فاحتلبوا ∴ بدلاً منه دمًا من أكْحَلِى[٧]

١٦- إننى قاتلةٌ مقتولةٌ ∴ ولعل اللهَ أن يرتاحَ لِى[٨]

إيضاح المعنى:

تنادى جليلة فى قولها: يا ابنة الأقوام (أخت كليب) طالبة منها التمهل وعدم التعجل بتوجيه اللوم لها قبل أن تسأل عن الحقيقة، وتعرف انتفاء مسئوليتها عما حدث، وإنها فى موقف صعب بين الأخ

---

(١) هدم بفتح الدال وبتشديدها، استحدثته: بنيته حديثا، انثنى: أخذ، بيتى الأول: بيت أبيها .

(٢) كثب: قرب، المصمى: القاتل فورا، المستأصل: المهلك .

(٣) دونكن: إلزمن الحقيقة، الرزء: المصيبة، المعضل: الصعب .

(٤) اللظى: النار، واللظى التى وراءها: الانتقام والثأر من أخيها جساس، ولظى المستقبل: الحزن على مقتل زوجها .

(٥) ليومين: الماضى والحاضر، ينجلى: ينكشف .

(٦) الثأر: الدم والقصاص، الثكل: الهلاك، المثكل: التى لازمها الحزن .

(٧) ليته: الضمير للثأر، احتلبوا: استخرجوا، الأكحل: عرق فى اليد يسمى عرق الحياة .

(٨) قاتلة: لأن أخاها القاتل، ومقتولة، لأن زوجها المقتول، يرتاح لى: يريحنى وينقذنى .

والزوج . وإذا انكشفت الحقائق، وظهر ما يفيد بمسئوليتها عما جرى – وهذا غير وارد بالقطع – فلأخت كليب أن تلوم وتؤنب كيفما تشاء، وإذا كانت الأخت تلام على ما تكنه لأخيها من عطف وشفقة، فلتلم أخت كليب كما تشاء، وقد كان صنيع جساس جريمة بشعة ألقت بالحسرة على الشاعرة، لما أسفرت عنه، ولما سوف تعكسه من أحزان؛ لأن هذه الفعلة ستصيبها بالشلل التام والموت الزؤام، وترى أن الجانى هو عين لها، وأن المجنى عليه هو العين الثانية، فالصلة بين الشخصين متشابكة ومتينة كما بين العينين، ولو حدث أن فقئت عينها لما اهتمت بمثل ما أصابها ولحق بها، فعليها أن تصبر وتتحمل، فالعين تتأثر بما يصيب العين الأخرى بمثل تأثر الأم وصبرها على رعاية أبنائها وتربيتهم .

وتناجى كليبا الذى قُتل فتهدم بقتله بيت زوجها وبيت أبيها، فالأول قد استحدثته، والثانى بيتها الأول، وكان قتل زوجها بمثابة الهلاك الماحق لبنت مرة فتوسلت لنساء بنى جشم أن يلزمن الحقيقة ويخففن من الثورة، إذ أصابها الدهر بمصيبة صعبة شديدة، أسفرت عن نار مؤججة تلاحقها من ورائها، وعن نار أخرى تنتظرها بالثأر من أخيها، وتذكر أن البكاء على الماضى والحاضر ليس كالبكاء على يوم سوف ينجلى وتتكشف خباياه، وأن الذى يطلب الثأر يجد راحة فى ظفره بما ينال .

ولكن هذا الثأر بالنسبة لها يمثل إضافة جديدة وإبادة مهلكة لمن لازمها الحزن، وكم كانت تتمنى الحياة لزوجها، وأن يكون الدم المراق

من عروق حياتها . وتختم الأبيات قائلة: إنها قاتلة بفعل أخيها وإنهـا مقتولة بسبب ما وقع على زوجها ، ولذلك تدعو الله بالراحة والخروج من دائرة الهموم والأحزان.

ملامح الأسلوب:

يكشف الخطاب فى بداية الأبيات عن رغبة الشاعرة فى تخفيـف حدة القسوة المنبعثة من أخت كليب وسائر النسوة من تغلب، فتقول: "يا ابنة الأقوام" بأسلوب النداء الذى ينم على أن المنادى رفيع القدر عظيم الشأن، وتلح فى تكرار الشرط بالأبيات الثلاثة الأولى، حتى تخفف من حدة المأساة، ثم إن الأمر والنهى فى الأبيات للاعتبار والتمنى، وتتوجع بقولها: يا حسرتى، وترى أن قتل كليب قاطع لظهرها ومدن لأجلهـا، والبيت السادس يحمل بعض الثقل بـسبب تكـرار كلمتـى (العـين) و(الفقء) ووجود بعض الضمائر البارزة والمستترة، وتكرر لفظ العين فى البيتين السادس والسابع إشارة إلى ما يمثله بالنسبة لها كل من كليب وجساس، ووضح ذلك فى تشبيهها لهيئة تحمّل العين لما يصيبها مـن أذى بهيئة تحمّل الأم فى تربية الأبناء، وتكشف الأبيات التالية عن جو الحزن الذى أحاط بالشاعرة، واشتملها، ولذلك فهى تنـاجى (زوجهـا) قائلة: "يا قتيلا" بالنداء الذى يكشف عن التحسر والتوجع والضيق وشدة الحزن على كليب. وقولها: "قوض الدهر" استعارة مكنيـة أو مجـاز عقلى علاقته الزمانية فى إسناد التقويض إلى الدهر.

والتوكيد بقولها: (جميعا) يفيد أن المأساة اشتملت كل مناحى الحياة للشاعرة، كما أن التعبير بهدم البيت الأول أو الثانى يزيد فى بشاعة الأحداث، وقولها: "ورمانى قتله" استعارة مكنية جسمت فيها القتل، وجعلته وحشا كاسرا يرميها بالهلاك والموت المحقق، والتعبير بقولها: "دونكن" يشعر بالمعاناة والرغبة فى الخلاص، وقولها: "خصنى الدهر" (مكنية) أو مجاز عقلى فى الإسناد.

وجعلت قتل كليب بمثابة نار مؤججة تلاحقها من الماضى، وبمثابة نار أخرى تنتظرها فى المستقبل عند الثأر من أخيها.

وقولها: "يشتفى المدرك بالثأر" استعارة مكنية، جعلت إدراكا الثأر كأنه شفاء، أو أن الحريص على الثأر بمثابة المريض الذى يسعى للشفاء، وتشبّه الدم باللبن فى قولها: "فاحتلبوا بدلا منه" على أن كلمة (فاحتلبوا) مناسبة لشعر المرأة، فقد جعلت الدم وهو سر للحياة بمنزلة اللبن وهو عنصر ظاهر من عناصر الحياة، وقد وفقت فى البيت الأخير الذى طابقت فيه بين لفظى (القاتلة) و(المقتولة) ، وأسفر الشطر الأخير عن رجاء من الله بالراحة والهدوء والأمان، وتكررت المخاطبة بالنداء كقولها: "يا ابنة الأقوام" و"يا قتيلا"، "يا نسائى".

وتتخوف الشاعرة من الزمن فى مواضع كثيرة من الأبيات، فهى تكرر ألفاظا معينة مثل (اليوم)، و(يومين) و(ليوم) و(لدهر).

والقصيدة نواح على الميت والحى، ورغبة فى الإسراع بالزمن والهرولة إلى المستقبل بهذا الوزن من بحر الرمل التام.

هجاء للأعشى

ينتسب ميمون بن قيس الملقب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل، التى تمتد فروعها من اليمامة إلى شرقى الجزيرة من وادى الفرات. فبكر بن وائل .. من ربيعة بن نزار بن مَعَد بن عدنان ، ومن فروع بكر: شيبان وقيس بن ثعلبة ومن شُعب قيس: سعد بن ضُبَيْعة التى ينتمى إليها الأعشى ·

وتميزت (قيس) بكثرة حروبها، وتعدد شعرائها، فمنهم المرقشان الأكبر والأصغر والمتلمس وطرفة بن العبد والمسيب بن عَلَس·

وكانت هذه القبيلة وثنية تعبد الأصنام، وتميل إلى الحياة البدوية بما فيها من رعى للإبل والأغنام·

وأقل ما يمكن أن يقال فى نسب الأعشى أنه ميمون بن قيس بن جُندل بن شراحيل بن سعد بن مالك بن ضُبيعة بن قيس بن ثعلبة[١] (البكرى) ويلقب بالأعشى لضعف بصره، كما يُكْنَى بأبى بصير للسبب نفسه، وكان والده يلقب بقتيل الجوع؛ لأنه دخل غارا يستظل فيه من الحر، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار، فمات جوعا[٢]·

---

(١) انظر: شرح القصائد العشر للتبريزى ص٣٢٨ ·

(٢) الديوان بتحقيق الدكتور/ محمد محمد حسين ص٣٠ طبع مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٨٣م·

وهجاه الشاعر جُهُنَّام[١] الذى تهاجى مع الأعشى كثيرا فقال:

أبوك قتيلُ الجوع قيسُ بن جَنْدل ∴ وخالك عبد من خُمَاعَة راضعُ

وقال الدكتور شوقى ضيف "وخماعة ـ فيما يظهر ـ جد بعيد لأمه، وهى أخت المسيب بن علس، وعنه حمل الشعرَ الأعشى إذ كان راويته، ولا شك فى أنه روى لغيره من شعراء قبيلته فهو امتداد لهم جميعا"[٢].

ولد الأعشى فى قرية منفوحة إحدى قرى اليمامة، وأطلالها فى مواجهة مدينة الرياض (الآن).

وثقف أبوبصير الشعر، وروى لخاله المسيب بن علس، أما فيما يتصل بنشأته وأطوار حياته فيكتنفها الغموض كشأن الكثيرين من الشعراء، خاصة أن الأعشى تنقل بين العديد من الأصقاع والبلدان، فارتحل إلى أطراف اليمن ونجد والحيرة، وأنحاء الجزيرة ومنطقة الحجاز، حيث يوجد سوق عكاظ، فيتكسب من مدح الملوك أينما كانوا. وقد سخّر شعره لجمع المال والدفاع عن قبيلته والغزل فى النساء وهجاء الخصوم والأعداء، فقال فى حبه للمال:

وما زلتُ أبغى المال مُذْ أنا يافعٌ ∴ وليدًا وكهلا حين شبتُ وأمردَا

---

(١) جهنام مختلط النسب وهو ابن أمة من إماء بنى عبدان، ديوان الأعشى، ص١٦٨ .

(٢) تاريخ الأدب فى العصر الجاهلى، ص٣٣٥ .

وكان كثير الحديث عن القيان مثل هريرة وقتيلة وجبيرة وغيرهن وسمع بالإسلام، فقصد الرسول ﷺ ، وأعد لذلك قصيدة قال فى أولها:

ألم تغتمضْ عيناكَ ليلةَ أَرْمَدا ∴ وعادَاك ما عاد السليمُ مُسهَّدا[1]

ولم يغمض جفن لأبى سفيان وكثير من المشركين، فأهدوا أبا بصير مائة ناقة، وحذروه من اعتناق مبادئ الإسلام.

وعاد إلى اليمامة، وسقط من على ناقته فمات قتيلا بمنفوحة سنة ٧هـ (٦٢٩م).

يمتاز شعر الأعشى بكثرة القصائد الطويلة، وتنوع الفنون والموضوعات به، وتجلت موهبته فى المدح والهجاء، والفخر والوصف والخمر والغزل.

ومن جيد شعره قصيدته التى قيل إنها علقت مع غيرها على أستار الكعبة:

ودعْ هُريرة إن الركبَ مرتحلُ ∴ وهل تطيقَ وداعا أيها الرجلُ

وأظهر فيها الوله والتعلق بالمحبوبة، ووصف أعضاءها الظاهرة كما تعصب فيها على يزيد بن مسهر الشيبانى (أحد زعماء بكر فى يوم ذى قار)، ولما تفاقم الشر بين شيبان وقيس بن ثعلبة (قوم الأعشى) أنشأ قصيدة أعنف من المعلقة بدأها بقوله:

هريرة ودعهَا وإن لامَ لائمُ ∴ غداةَ غدٍ أم أنتَ للبين واجمُ

---

(١) الديوان ــ شرح الدكتور محمد محمد حسين صـ١٨٥ .

ولقب بصناجة العرب لرقة شعره وسهولته، وخفة أوزانه وجمال موسيقاه، وتنوع أنغامه بين التام والمجزوء من البحور "وكان لشعره جلبة في السمع وروعة في النفس، وأثر في الناس، فسمي لذلك صناجة العرب"[١].

أما الهجاء فلنا معه حديث؛ لأن أكثر الشعراء المتكسبين بمدائحهم ينحرفون إلى هجاء من حالوا بينهم وبين ما يريدون، وهذا ما يتوافق مع توجهات الأعشى، فقد هجا يزيد بن مسهر والحارث بن وعلة، وعلقمة بن علاثة، وعمرو بن المنذر بن عبدان، ووائل بن شرحبيل، وجهنام أحد بني عبدان وغيرهم.

قال في المعلقة:

أبلغ بني شيبان مَألُكَةً ∴ أبا ثُبيتٍ أما تنفكُ تأتكلُ

ألست منتهيًا عن نحتِ أثلتنا ∴ ولست ضائرَها ما أطَتِ الإبل

تُغْرى بنا رهط مسعود وإخوتِه ∴ عند اللقاء فتُردى ثم تعتزل

لأعرفنَّك إن جدّ النفيرُ بنا ∴ وشُبّت الحربُ بالطُّواف واحتملوا

كناطِحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها ∴ فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعِلُ[٢]

وقال في هجاء علقمة بن علاثة:

تبيتون في المشتى مِلاءً بطونُكُم ∴ وجاراتكم غَرْثَى يبتن خمائِصا

يُرَاقبن من جوعٍ خلالَ مخافةٍ ∴ نجومَ السماء الطالعات الشواخِصا

---

(١) تاريخ الأدب العربي ــ أحمد حسن الزيات ص٥٦ .

(٢) الديوان، ص١١١، ومألكة: رسالة الأثلة: الشجرة العظيمة، أطت الإبل: أنت، كناطع: صفة لموصوف محذوف: كوعل ينطح.

وزعم الرواة أن علقمة بكى حين استمع إلى هـذا الـشعر؛ لأن الأعشى جعلهم يملؤون بطونهم ، ويتخمون فى ليالى الشتاء الباردة فى الوقت الذى يكاد الجوع يقضى على جاراتهم .

النص المختار

قال فى هجاء بنى قميئة بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة:

١- إنّ بَنـى قَميئـةَ بـن سَـعْدِ[١]

٢- كلُّهـم لِمَلْـصَق وعبـدِ[٢]

٣- أدنـى لـشرٍّ مـن كـلابِ عُقْـد[٣]

٤- وهـم أذلّ مـن كـلاب عِقْـد[٤]

٥- يُعْـزَون بـين وَبَـر وقِـدٍّ[٥]

٦- عبـدانُ بـين عـاجزٍ ووَغْـدِ[٦]

٧- إن يُبْصِروا قبرا حديثَ العهـد[٧]

٨- يُنبِّـشوا فيـه احتفـار الخُلْـدْ[٨]

---

(١)(٢) ملصق: دعى غير ثابت النسب.

(٣)(٤) عقد: بضم العين جمع أعقد وهو الملتوى الذنب من الكـلاب والـذئاب، العقد: بكسر العين: القلادة.

(٥)(٦) يعزون: ينسبون، الوبر: صوف الجمال، القد (بكسر القاف) إنـاء مـن جلد، عبدان: جمع عبد، الوغد: الساقط الدنيئ.

(٧)(٨) الخلد: دابة فى حجم الفأر تنبش القبور.

٩- انقرْ فقد بلغتَ قعر اللَّحد[١]

١٠- وهامةً وشِقَّةً من بُرْد[٢]

إيضاح المضمون:

يقول : إن بنى قميئة بن سعد كلهم أدعياء أو عبيد مختلطو النسب، وهم أحقر وأقرب للشر من الكلاب الملتوية الأذناب، وأكثر ذلة واحتكارا من الكلاب التى فى أعناقها الأطواق، وعند البحث عن أنسابهم تجدهم رعاة، وليسوا سادة كراما، وهم عبيد أذلاء وساقطون حقراء.

وعندما يشهدون قبرا حديث العهد لم تتلف أكفانه، ينبشون فيه مثل الفئران، ويصلون إلى أعماقه، ويبلغون قعره فيسعدون بما ظفروا به من طائر نذير بالشؤم وقطعة من قماش الكفن.

تحليل ونقد:

١ - من المرجح أن هذا الرجز من النتاج المبكر للأعشى، إذ أنه عمد فى معظم شعره إلى القصائد الطوال، ولم يعد القالب الذى يروق له ويهتف به هاجيا أو مادحا أو مفتخرا، والرجز أقدم الأوزان العربية، وظهر ترقيا وتطويرا للسجع، وكان يلبى الحاجة للارتجال قديما، ولم يدخل منافسا للأوزان العروضية إلا فى العصر الأموى. والنموذج الذى بين أيدينا من مشطور الرجز

---

(١)(١٠) الهامة: طائر ليلى يألف المقابر، وقيل هو صدى للطائر، الذى يخرج من رأس الميت (القتيل) للمطالبة بالانتقام له، الشقة: قطعة مشقوقة من الثوب (الكفن)، البرد: الثوب المخطط.

الذى يُبنى على ثلاث تفعيلات من (مستفعلن)، وجاءت الثالثة مقطوعة، ويضاف إليه الخبن أحيانا فتتحول مستفعلن إلى وزن فعولن ..

٢ - حرص الشاعر على تأكيد أسلوبه بالعديد من المؤكدات مثل (إن) و(كلهم) و(أفعل التفضيل) أدنى، وأذل، ولا شك فى أن الأفكار واضحة، والمعانى سهلة يسيرة، غير أن بعض الكلمات بعيدة عن الاستعمال فى الوقت الحاضر.

٣ - يبدو شعر الأعشى قريبا من الشعر العباسى من حيث المبالغة والتعمق فى صنع الصور والأخيلة، وإن لم يتجل ذلك تماما فى هذا الرجز الموجز المركز، ولننظر كيف صور بنى قميئة عبيدا أذلاء، بل هم أذل من الكلاب على اختلاف هيئاتها، ثم حقرهم وجعل كل همهم منحصرا فى نبش القبور مثل الفئران، وهم لا يكتفون بما ظهر من الأكفان، وإنما يحرصون على الوصول إلى قاع اللحد لتجريد الميت من كفنه، أو اصطياد طائر القبور الذى ينوح ويجأر بالرغبة فى الانتقام.

من النثر الأدبى
فى العصر الجاهلى

من أحاديث النساء

حديث هند بنت عتبة عن أوصاف الزوج الذى تريده(*)

رَوَى أبوعلى القالى فى كتابه الأمالى قال:

قالت هند لأبيها عُتْبة بن ربيعة: إنى امرأة قد مَلَكْتُ أمرى[١] فلا تزوِّجْنى رجلا حتى تَعْرِضه علىَّ، قال: لكِ ذاكِ، فقال لها ذاتَ يوم: إنه قد خَطَبك رجلان من قومك ولستُ مُسمِّيا لك واحدا منهما حتى أصفَه لك، أما الأول: ففى الشَّرِف الصميم، والحسب الكريم؛ تَخالين من هَوجًا[٢] من غفْلته، وذلك إسْجاحٌ[٣] من شيمته؛ حَسَن الصحابة، سريع الإجابة؛ إن تابَعْتِه تبعك، وإن مِلْتِ كان معك، تَقْضين عليه فى ماله، وتكتِفين برأيك عن مشورته.

وأما الآخر: ففى الحسب الحسيب، والرأى الأريب[٤]، بدرُ أرومته[٥]، وعزُّ عشيرته، يؤدب أهلَه[٦] ولا يؤدبونه، إن اتَّبعهُوه أسهل[٧] بهم، وإن جانبوه توعَّر[٨] عليهم، شديدُ الغَيْرة[٩]، سريع

(*) مصدر النص كتاب الأمالى لأبى على القالى جـ٢ صـ١١٧ وما بعدها طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٥م.

(١) قد ملكت أمرى: حيث سبق زواجها.

(٢) هوج: حمق وطيش والأهوج: الشجاع الذى يرمى بنفسه فى الحرب.

(٣) الإسجاح: السهولة والسماحة.

(٤) الأريب: العاقل.

(٥) الأرومة: الأصل.

(٦) الأهل: الأقارب والعشيرة والزوجة.

(٧) أسهل بهم: أى سار بهم فى أرض سهلة والمراد سهلت حياتهم.

(٨) توعر عليهم: صعب عليهم، وتوعر تشدد، والوعر المكان الصلب والمخيف.

(٩) شديد الغيرة: شديد المحافظة على الأعراض وصيانتها.

الطَّيْرة[١]، صَعْب حِجَاب القُبَّة[٢]، إن حاجَّ فغير مَنْزور[٣]، وإن نُوزع فغير مقهور، وقد بينتُ لك كليهما. فقالت: أما الأول، فسيد مِضْياع لكريمته مُوَاتٍ لها فيما عسى إن تعتصِ[٤] أن تَلِين بعد إبائها، وتَضيع تحت خبائها، إن جاءته بولد أحْمقَتْ[٥]، وإن أنجبت فعن خَطَأٍ ما أنجبت[٦] اطْوِ ذكرَ هذا عني ولا تُسمِّه لي، وأما الآخر فبعل[٧] الحُرَّة الكريمة، إني لأخلاق هذا لوامقة[٨] وإني لموافقة؛ وإني لآخُذُه بأدب البعل[٩] مع لزوم قُبَّتِي، وقلة تلفُّتي؛ وإن السليلَ[١٠] بيني وبينه لَحَرِيٌّ[١١] أن يكون المدافع عن حريم عشيرته، الذائد عن كتيبتها[١٢]، المحاميَ عن حقيقتها، المثِّبت لأرومتها، غير مُوَاكِلٍ[١٣] ولا زُمَّيل[١٤] عند صَعْصعةِ[١٥] الحروب. قال: ذاك أبوسفيان بن حرب، قالت:

---

(١) سريع الطيرة : سريع الغضب.
(٢) القبة: الخيمة التى توضع النساء فيها، وفى ذلك معنى الغيرة الشديدة.
(٣) منزور: قليل بمعنى غير ضعيف الحجة.
(٤) تعتص: تشتد .
(٥) أحمقت أى جاءت بولد أحمق من الزوج الذى لا ترغبه.
(٦) قولها: وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت: فقرة غائمة وكأن المعنى وإن جاءت بولد نجيب فكأن إنجابها له خطأ.
(٧) البعل: الزوج.
(٨) وامقة: محبة .
(٩) أدب البعل: آداب معاشرة الزوج.
(١٠) السليل: الولد .
(١١) حرى: جدير.
(١٢) الكتيبة: جماعة من الجيش والمراد: أفراد قبيلته.
(١٣) غير مواكل: غير معتمد على غيره.
(١٤) الزميل: الجبان الضعيف.
(١٥) الصعصعة: الاضطراب، وتصعصعوا: تفرقوا.

فزوجه ولا تُلق إلقاءَ السَّلِس[١]، ولا تَسُمْهُ سوم الضَّرِس[٢]، ثم استَخرِ الله فى السماء يَخِر[٣] لك القضاء.

نبذة موجزة عن هند بنت عتبة:

هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشية الهاشميه، وأبوها عتبة بن ربيعة من أثرياء مكة، وصاحب أملاك فى الطائف، وقتل فى غزوة بدر مع أخيه شيبة بن ربيعة.

وكانت هند من فتيات مكة المنعمات، وذات مكانة وعزة وجمال وفكر سديد، وقدرة على حياكة الألفاظ وسبك العبارات، وقول الرجز، والتعبير عن الرأى بقوة واقتدار.

وتزوجت الفاكه بن المغيرة، وكان كريما مضيافًا وذا ثروة ومكانة وأنجبت منه ابنها (أبانا)، ثم انفصلت عنه فى قصة مشهورة، وقيل إن زوجها اسمه (حفص بن المغيرة) وأن أبانا ابنه.

وبعد أن تأيمت تقدم لخطبتها اثنان هما سهيل بن عمرو العامرى القرشى، وأبوسفيان بن حرب الأموى، فاختارت الثانى وأنجبت منه (معاوية) وآخرين.

ولما قتل أبوها وعمها وأخوها (الوليد) فى بدر، ثم كانت غزوة أحد فحرّضت العبد الحبشى (وحشيا) على قتل حمزة بن عبدالمطلب،

---

(١) السلس: السهل القياد، الذى يتابع غيره فى كل اتجاه.
(٢) الضرس: السيئ الخلق (بعض الإيضاحات عن أبى على القالى).
(٣) يَخِرْ: يختار.

فقتله وحشى، وجاءت إلى حمزة فبقرت بطنه، ولاكت كبدة، ثم لفظتها إذ لم تستسغها، فعزم النبىﷺعلى الانتقام لعمه أسد الله وأسد رسوله.

وكانت مع النساء يحمسن الرجال على القتال والانتقام لما جرى فى بدر، وكانت تنشد برجزها:

نحن بناتُ طارقْ[١] ∴ نمشى على النمارقْ[٢]

إن تُقبلوا نعانقْ ∴ أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق[٣]

وأسلمت عام الفتح بعد إسلام زوجها أبى سفيان بليلة واحدة، وذهبت مع الذاهبات لبيعة الرسول، والتى ورد بيانها بسورة الممتحنة[٤]، ولما استمعت إلى ما جاء فى البيعة: "ولا يَسْرقن" قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصيب من ماله قوتنا، فقال أبوسفيان: هو لك حلال، فضحك النبى وعَرَفها وقال: أنت هند؟ فقالت: عفا الله عما سلف، ثم قال: "ولا يزين" فقالت هند: أو تزنى الحُرّة! ثم قال: "ولا يقتلن أولادهن" أى لا يئدن الموءودات، ولا يُسقطن الأجنة، فقالت هند: "ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا يوم بدر، فأنتم وهم أبصر"، وروى مقاتل أنها قالت: ربيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا وأنتم وهم أعلم، فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى"[٥].

---

(١) أرادت نحن بنات النجم الطارق.

(٢) النمارق: الوسائد .

(٣) وامق: محب .

(٤) الممتحنة ١٢ .

(٥) تفسير القرطبى جـ١٨ صـ٧١ .

وكانت ذات حنكة وتجربة استطاعت بها أن تختار زوجها (الثانى) بجرأة وقدرة على التعبير عن مواصفات الزوج الذى ستحيا معه، ولها رجز متميز وشعر قليل لا يجعل منها شاعرة مشهورة فى الجاهلية، وتوفيت فى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ٠

تعليق على النص:

١ - يكشف هذا الحديث المتقدم عن جرأة هند بنت عتبة، حيث طلبت من أبيها أن يُطلعها على أوصاف المتقدم لخِطبتها قبل الموافقة على زواجها٠

٢ - كشف الجزء الأول من النص عن تعريف عتبة بن ربيعة للرجلين المتقدمين للزواج من ابنته (هند)، فالأول ذو شرف ومجد وحسب، واندفاع فى غفلة، وحُسن فى المعاشرة، وهو سليم الطوية، ويمكن أن يتبع الزوجة، ويرضى بأن تقضى له أموره مع اكتفائه بالمشورة٠

أما الثانى فله أصل كريم ورأى سديد، وهو مقدم فى قومه، يقودهم ويهذِّبهم وهم يتبعونه حيثما يكون، وهو شديد المحافظة على أهله، والغيرة عليهم، ويصعُب إذا مالوا عنه، وسريع الغضب إذا وجب، وشديد المحافظة على النساء، وهو صاحب رأى وحجة، ولا يُغلب فى المجادلة٠

٣ - يأتى الجزء الثانى الذى حسمت فيه هند رأيها، فأوضحت أن الأول لا يحسن الحفاظ على زوجته، وهو صبور على مطلبها،

فعساها أن تلين وتغفل عنه فيتحلل منه، ويكون بذلك ضياعا لـــه، ثم إن الأبناء منه سيكونون حاملين لصفاته الخاملة، ثـــم أعلنــت عدم قبولها له.

أما الثانى فقد تجمعت فيه كلُّ الصفات التى ترغبها المــرأة فــى الزوج حسب توجهات الزوجة فى العصر الجــاهلى، فهــى راضــية بأخلاقه، وستكون حريصة على إرضائه، مع لزوم بيتها وعدم تلفتهــا إلى غيرها، وأن الولد منه سيكون حاملا لصفاته، فيــدافع عــن أهلــه وقبيلته، وعن كل ما يجب عليه حمايته، وليس جبانا فى الحروب، ثـم سألت عن اسمه، فعرفت أنه (أبوسفيان بن حــرب) ووافقــت علــى زواجها منه بلا تردد، مع دعوة أبيها إلى استخارة الله تعالى.

٤ – كشف الحديث عن الحنكة فى تحديد الأوصاف الحقيقيــة الدالــة على طباع المتقدم للزواج، والتى تجلت للوالد فأحسن تشخيصها بكل دقة، فرسالته الأبوية توجب عليــه مراعــاة الــصدق فــى الوصف، وعدم الوقوع فى المبالغات على أية صورة.

وكان الرد للأسباب المذكورة فى رفض الأول، وقبول الثانى، مع رقى التعامل بين الأب وابنته فى نمط فريد وتحضر سديد.

٥ – تعبر الألفاظ عن العصر الجاهلى من حيث التنوع بين الخــشونة والرقة، والملائمة للموضوع، الذى يؤسس لزواج دائــم هــادئ تعقبه ذرية وأحفاد.

٦ – جاء الحديث بأسلوب مسجوع وغير متكلف مــن حيــث قــصر الجُمل وتساويها، فبدا المضمون مشوقا ومفيدا ومقبولا.

من المنافرات الجاهلية

منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن عُلاثة العامريين

المنـافرة: الاحتكام إلى شخص موثوق به، للفصل بين رجلين أو حيين أو قبيلتين؛ بشأن نزاع أو اختلاف حول الأنساب والمقامات والأوصاف الخُلقية والخِلقية، فيَفصل المحكَّم بينهما فيمن له السبق والتفوق، أو يكون الحكم بالمساواة بينهما، وسُميت بالمنافرة؛ لأنهم ينفرون فيها إلى أحد الأشراف، ويقول الواحد منهما أنا أعزُّ منك نفرا.

وقد ذاع وانتشر هذا اللون الأدبى بصفته فنا من فنون النثر الجاهلى، لاعتبارات كثيرة وهو يقترب فى مضمونه من فنىّ الفخر والهجاء مجتمعين فى الشعر، وتطور إلى لون قريب من ذلك فى عصر بنى أمية، وهو شعر النقائض.

والتنافر أشد جدة وجرأة وقسوة من التحاور والتفاخر فى العصر الجاهلى.

ومن أمثلة المنافرات: منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة، ومنافرة بنى فِزَارة وبنى هلال، ومنافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس، ومنافرة القعقاع بن زُرارة بن عدى وخالد بن ربيعة التميمين.

وكتب أستاذنا الدكتور عبدالسلام سرحان ــ طيب الله ثراه ــ عن الدوافع لهذا اللون، الذى ذاع بين العرب فى الجاهلية، فقال:

"والطبيعة العربية الحارة، والحمية الجاهلية المُرَّة كانتا تدفعان مثل هذه المواقف إلى الغليان، وطالما قامت الحروب، واشتدت الكروب إثر هذه المنافرات العنيفة ... وكثيرا ما كان الحكام حكماء فى مثل هذه المواقف الحساسة، فكانوا بحكمتهم وحِنكتهم يحفظون الدماء، ويصبون على النيران المحرقة والنزاعات الحالقة .. ذنُوبا من الماء، ويقفون فى أتون النزاع مواقف المهادَنة، وبين المتنافَريْن مواقف المخادنة ، حتى تنطفئ الجَذوة، وتخمد نيران الحصام"(١).

وتعد منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر، وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر العامريين – أشهر المنافرات، وقد عَرَضَتْ لها بعض كتب التراث مثل الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، وغيره.

وتوسع أبوالفرج فى التعريف بها والحديث عمن شارك فيها نثرا وشعرا، وجاء ذلك فى قرابة ثلاث عشرة صفحة، وسوف نعتمد على الأغانى فى بيانها والتحكيم فيها(٢).

التعريف بالمتنافرين:

١ – عامر بن الفضيل بن مالك بن جعفر العامرى من بنى عامر بن صعصعة، وقد ولد ونشأ فى نجد، وهو فارس قومه، وأحد

---

(١) مختارات من روائع الأدب فى الجاهلية وصدر الإسلام للدكتور عبدالسلام سرحان صـ٢٤٤ مطبعة الفجالة الجديدة عام ١٩٦٩م.
(٢) الأغانى جـ١٦ صـ٢٨٣ إلى صـ٢٩٦ (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية).

الفتاك والشعراء المشهورين فى الجاهلية، وخاض المعارك الكثيرة، وفقد إحدى عينيه فى واحدة من الوقائع التى شارك فيها، وكان عقيما لا ولد له، وهو ابن عم الشاعر المعروف لبيد بن ربيعة العامرى٠

وكان يأمر مناديا فى سوق عكاظ ينادى: هل من راجل فنحمله؟ أو جائع فنطعمه؟ أو خائف فنؤمنه؟

وأدرك الإسلام شيخا، فوفد على الرسول ﷺ بالمدينة بعد فتح مكة، وكانت مطامعه وأحلامه وأوهامه فى هذه المرحلة الأخيرة من عمره تبعث على السخرية والعجب، وكان فى الحقيقة يريد الغدر بالرسول، إذ طلب أن يجعل الرسول له نصف ثمار المدينة، وأن يجعله ولى 'الأمر من بعده، ورده الرسول، فعاد إلى قومه حَنِقا، ومات فى طريقه قبل أن يبلُغ قومه سنة إحدى عشرة من الهجرة وكان يلقب بملاعب الأسنة، ويكنى بأبى على، وله ديوان شعر[١]٠

٢ - علقمة بن عُلاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر العامرى وكانت ولادته ونشأته فى نجد، وكان من أشراف قومه فى الجاهلية، ووفد على قيصر، ونافر عامر بن الطفيل، وقد أسلم ثم ارتد فى خلافة أبى بكر، وانصرف إلى الشام، فبعث إليه أبوبكر القعقاع بن عمرو، ففر علقمة منه، ثم عاد إلى الإسلام، وكان شجاعا كريما٠

---

(١) الأعلام ــ خير الدين الزركلى جــ٣ صــ٢٥٢ وتراجع أخباره فى الشعر والشعراء والإصابة والبيان والتبيين والعقد الفريد وغيرها٠

وقد دخل على عمر بن الخطاب، وتحدث معه، وولاه الفـاروق حوزان، وبقى بها إلى أن توفى سنة عشرين من الهجـرة وروى أبـو الفرج الأصبهانى قال: لما أطلق عمر بن الخطاب ﷺ الحطيئـة مـن محبسه، قال له: يا أمير المؤمنين، اكتب لى كتابا إلى علقمة بن علاثة، لأقصده به، فقد منعتنى التكسب بشعرى، فقال: لا أفعل.

فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما عليك من ذلك؟ إن علقمـة لـيس بعاملك[١]، فتخشى أن تأثم، وإنما هو رجل من المسلمين تشفع له إليـه فكتب له بما أراد، فمضى الحطيئة بالكتاب، فصادف علقمة قـد مـات والناس منصرفون عن قبره، فوقف عليه راثيا.

فقال له ابنه[٢] يا حطيئة، كم ظننت أن علقمة يعطيك؟ قال: مئـة ناقة. قال: فلك مائة ناقة يتبعها مائة من أولادها. فأعطاه إياها"[٣].

سبب المنافرة:

عندما تقدم العمر بأبى البراء عامر بن مالك بن جعفر تنحى عن رئاسة بنى عامر فتنافس على زعامتها: عامر بن الطفيل بن مالك بـن جعفر وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر.

(١) ربما يقصد أن علقمة لا يعمل فى خاصته، وإنما هو على حوران أى فـى خدمة سائر المسلمين.

(٢) أى ابن علقمة بن علاثة.

(٣) الأغانى جـ١٦ صـ٢٩٥، صـ٢٩٦، وراجـع ترجمتـه فـى: الأعـلام للزركلى جـ٤ صـ٢٤٧، والإصابة وخزانة الأدب وغيرها.

فقال علقمة: كانت لجدى الأحوص، وإنما صارت لعمك بسببه (أى من أجله)، وقد قعد عمك عنها، وأنا استرجعتها، فأنا أولى بها منك، فشرى بينهما الشرّ، وسارا إلى المنافرة[١].

فقال علقمة: وإن شئتَ نافرتك، فقال عامر: قد شئت.

نص المنافرة والفصل فيها

ذكر أبوالفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى بداية الشقاق والتنازع بين الخصمين إلى أن قال علقمة: إن شئتَ نافرتُك فقال عامر: قد شئت وواصل كلامه فقال: والله لأنا أكرمُ منك حسبًا، وأثْبتُ منك نَسبًا، وأطول منك قَصبا[٢].

فقال علقمة: لأنا خير منك ليلاً ونهارًا.

فقال عامر: لأنا أحب إلى نسائك أن أُصبِح فيهنَّ مِنك[٣].

فقال علقمة: على ماذا تنافرنى يا عامر؟

فقال عامر: أنافرُك على أنى أنحر منك لِلقّاح[٤]، وخير منك فى الصَّباح[٥]، وأطعم منك فى السنة الشِّياح[٦].

---

(١) ذُكر فى أسباب المنافرة ـ إضافة إلى ما قيل ـ أن تنافرهم كان بالسباب حول بعض الصفات الجسمانية والأخلاق الاجتماعية، والتفاخر بالأفراس التى يقاتلون عليها، فكانت الدعوة من علقمة والاستجابة من عامر، ومن هنا كانت البداية لهذه المنافرة المعبأة بالأحداث والأخبار والنزاعات بين الطرفين ـ الأغانى جـ١٦ من صـ٢٨٣ إلى صـ٢٩٦ وغيره.

(٢) القصَب: نبات ذو أنابيب، ويقصد التفوق فى الطول والاستواء.

(٣) يقصد التميز فى الرجولة.

(٤) لعله يفتخر بتميزه فى نحر الإبل الجيدة.

(٥) فى الصياح: أى عند الإغارة على الأعداء.

(٦) الشياح: القحط، يريد السنة المجدبة.

فقال علقمة: أنت رجل تقاتل والناس يزعمون أنى جبان، ولأن تلقى العدو وأنا أمامك، أعزُّ لك من أن تلقاهم وأنا خلفك ، وأنت جواد والناس يَزعمون أنى بخيل، ولست كذلك، ولكن أنافرك أنى خيرٌ منك أثرًا، وأحدُّ منكَ بَصَرًا، وأعزُّ منك نفرا، وأسرح[١] منك ذِكْرا.

فقال عامر: ليس لبنى الأحوص فضلٌ على بنى مالك فى العدد، وبَصَرى ناقص، وبصرُك صحيح، ولكنى أنافرك على أنى أنشر منك أمَّة[٢] ، وأطول منك قِمَّة، وأحسنُ منك لِمّة[٣]، وأجعد منك جُمَّة[٤]، وأبعدُ منك هِمّة.

فقال علقمة: أنت رجل جسيم، وأنا رجل قضيف[٥]، وأنت جميل، وأنا قبيح، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى.

فقال عامر: آباؤك أعمامى، ولم أكن لأنافرك بهم، ولكنى أنافُرك أنى خيرٌ منك عقِبا[٦]، وأطعم منك جَدْبًا[٧].

قال علقمة: قد علمتُ أن لك عقِبا فى العشيرة، وقد أطْعَمتَ طيبا إذا سارت، ولكنى أنافرك أنى خيرٌ منك، وأولى بالخيرات منك، وقد أكثرنا المراجعة منذ اليوم .

---

(١) أسرح: أبعد.
(٢) أى أكثر قومًا.
(٣) اللمة: شعر الرأس المجاور شحمة الأذن.
(٤) الجمة: مجتمع شعر الرأس إذا بلغ المنكبين .
(٥) قضيف: النحيف .
(٦) العقب: الولد وولد الولد .
(٧) جدبا: الجدب المحل والعيب.

قال (أى الراوى) فخرجتْ أم عامر وكانت تسمع كلامهما، فقالت: يا عامر، نافِرْةً أيكما أولى بالخيرات .

... قال عامر فى مراجعته:

والله لأنا أركب منك فى الحُماة[١]، وأقتَلُ منك للكُماة[٢]، وخيرٌ منك للمولى والمولاة[٣] .

فقال له علقمة: والله إنى أعزُّ منك. إنى لبرٌّ وإنك لفاجر، وإنى لوفىٌّ وإنك لغادر، ففيما تفاخرنى يا عامر؟

فقال عامر: والله إنى لأُنزَلُ منك للقفرة[٤]، وأنحر منك لِلبَكْرة[٥] وأطعم منك للهبرة[٦] وأطعن منك للثُّغرة[٧].

فقال علقمة: والله إنك لكليل[٨] البصر، نَكِد[٩] النظر، وثَّاب[١٠] على جاراتك بالسَّحر[١١] .

---

(١) الحماة : جمع حام وهو البطل المدافع عن قومه.
(٢) الكماة: الشجعان.
(٣) المولى والمولاه: التابع والتابعة ومن يتولى الإنسان أمرهما .
(٤) القفرة: الخلاء من الأرض وذلك كناية عن الشجاعة.
(٥) البكرة: الفتية من الإبل.
(٦) الهبرة: القطعة المجتمعة من اللحم.
(٧) للثغرة: الثغرة: نقرة النحر ينحر منها كناية عن البطولة فى الحرب والكرم مع الناس.
(٨) كليل : ضعيف.
(٩) نكد: قليل .
(١٠) الوثاب: الكثير الوثب.
(١١) السحر: ما قبل الفجر .

فقال بنو خالد بن جعفر، وكانوا يدًا مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر: لن نَطيق عامرا، ولكن قل له: أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات، وخذ عليه بالكِبَر. فقال له علقمة هذا القول.

فقال عامر: عنز وتيس وتيس وعنز[1]، فذهبت مثلا.

الاتفاق على إجراءات المنافرة:

نعم على مئة من الإبل، إلى مئة من الإبل يُعطاها الحكم، أينا نُفّر عليه صاحبه أخرجها، ففعلوا ذلك، ووضعوا بها رهْنًا من أبنائهم على يدى رجل من بنى الوحيد[2] فسمى الضمن إلى الساعة وهو الكفيل.

إجراءات التحكيم:

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك، وقد التجأ عامر بن الطفيل إلى عمه عامر بن مالك، وليكون معه على علقمة فرفض أن يسب الاثنين، واعتذر عن المداخلة، وليس لديه ما يعينه به سوى نَعله، التى ارتبع فيها أربعين عاما، فهى قديمة لديه وربما لا تساوى شيئا.

وجعل منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية، فلم يقل بينهما شيئا، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما وقال: أنتما كركبتى البعير

---

(١) وروى أنه قال: عَيْرٌ وتيس، وتيسٌ وعنز، يريد مثلى ومثلك كالعير والتيس، أو كالتيس والعنز، إذ التيس أقوى على النطاح من العنز.

(٢) هو خزيمة بن عمرو بن الوحيد.

الأدرم[١] تقعان بالأرض[٢] قالا: فأينا اليمين؟ فقال: كلاكما اليمين، وأبى أن يقضى بينهما فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام[٣]، فأبى أن يحكم بينهما ....

وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش، فأتيا عُيينة بن حصن بن حذيفة فأبى أن يقول بينهما شيئا. فأتيا غَيْلان بن سَلَمَة بن مُعْتب الثقفىّ فردهما إلى حَرْملة بن الأشعر المُرّى فردهما إلى هَرِم بن قُطْبة بن سنان بن عمرو الفزارى فانطلقا حتى نزلا به.

وقال أحد الرواة: إنهما ساقا الإبل معهما حتى أشتت وأربعت، لا يأتيان أحدا إلا هاب أن يقضى بينهما، فقال هرم:

لعمرى لأحكمن بينكما ثم لأفصِلن، ثم لستُ أثق بواحد منكما فأعطيانى موثقا أطمئن إليه أن تَرْضيا بما أقول، وتسلّما لما قضيت بينكما، وأمرهما بالانصراف، ووعدهما (مثلَ) ذلك اليوم من قابل[٤] فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل من قابل خرجا إليه فخرج علقمة ببنى الأحوص، فلم يتخلف منهم أحد، معهم القباب والجُزُر[٥] والقدور ينحرون فى كل منزل ويطعمون.

---

(١) الأدرم: الذى تراكب لحمه وشحمه حتى غطى عظامه، والذى ذهبت جلدة أسنانه، ودنا وقوعها، أو الذى لا أسنان له.

(٢) تقعان بالأرض أى معا بمعنى المساواة بينهما.

(٣) الأغانى ما زال التواصل والاعتماد على الأغانى جـ١٦ صـ٢٨٧ .

(٤) أى من العام القادم.

(٥) الجزر: جمع جزور وهى البعير وتجمع على جزائر وجزورات.

وجمع عامر بن مالك فقال: إنكم تخاطرون عن أحسابكم فأجابوه وساروا معه، ولم ينهض أبو براء معهم[١] وقال لعامر: والله لا تطلع ثَنِية إلا وجدت الأحوص مُنيخِا بها، وكره أبو بَراء ما كان من أمرهما[٢] وأقام القوم عند هرم أياما، وأرسل إلى عامر فأتاه سرا، لا يعلم به علقمة فقال: يا عامر، قد كنتُ أرى لك رأيا، وأن فيك خيرا، وما حبستك[٣] هذه الأيام إلا لتنصرفَ عن صاحبك. أتنافر رجلا لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه؟ فما الذى أنت به خير منه؟

قال عامر: أنشُدُك الله والرحم أن لا تُفضّل علىّ علقمة، فوالله لِئن فعلت لا أفلح بعدها أبدا هذه ناصيتى فاجزُزْها، واحتكم فى مالى، فإن كنت لابد فاعلا فسوِّ بينى وبينه، قال: انصرف، فسوف أرى رأى، فخرج عامر وهو لا يشك أن ينفِّره عليه[٤].

ثم أرسل إلى علقمة سرا لا يعلم به عامر، فأتاه فقال: يا علقمة، والله إنْ كنتُ لأحسب فيك خيرا، وأن لك رأيا، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك، أتفاخرُ رجلا هو ابن عمك فى النسب؟ وأبوه أبوك، وهو مع هذا أعظم قومك غَناءً، وأحمَدُهم لقاء؟ فما الذى أنت به خير منه؟

---

(١) هو رئيس القبيلة المستقيل واسمه عامر بن مالك .
(٢) الأغانى جـ١٦ صـ٢٨٨ .
(٣) حبستك: أى أمر بإقامته مع قومه قريبا منه لا يستقبله فيها.
(٤) أى يحكم بتفضيل علقمة عليه .

فقال له علقمة: أنشدك الله والرحم ألا تنفِّر علىَّ عامرا، اجُزز ناصيتى واحتكم فى مالى، وإن كنت لابد أن تفعل فسوٍّ بينى وبينه.

فقال: انصرف فسوف أرى رأى، فخرج، وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامرا.

الفصل فى المنافرة:

ثم إن هرما أرسل إلى بنيه وبنى أبيه: إنى قائل غدا بين هذه الرجلين مقالة، فإذا فعلتُ فليطردْ بعضكم عَشْر جَزائر[١]، فلينحرها عن علقمة، ويطرد بعضكم عشر جزائر، فلينحرها عن عامر، وفرقوا بين الناس، لا تكون لهم جماعة.

وأصبح هرم فجلس مجلسه، وأقبل الناس، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ...

فقام هَرِم فقال: يا بنى جعفر، قد تحاكمتما عندى، وأنتما كركبتى البعير الأدرم: تقعان إلى الأرض معا، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه، وكلاكما سيد كريم، وعَمِد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجُزُر فنحروها حيث أمرهم هرم، عن علقمة عشرا وعن عامر عشرا، وفرقوا الناس، فلم يفضّل هرم واحدا منهما على صاحبه، وكره أن يفعل وهما ابنا عم ، فيجلب بذلك عداوة ويوقع بين الحيين شرا[٢].

---

(١) فليطرد بعضكم عشر جزائر أى فليفصل بعضكم عشرة إبل مما لديه.
(٢) الأغانى جـ١٦ صـ٢٩٣ .

تعليق عام:

١ - تقوم المنافرة على الافتخار بالصفات الحميدة كالكرم والشجاعة والمروءة والنجدة، ووَصْم الخصم بالصفات الخسيسة، وقلة الأعوان ودمامة الهيئة، وسوء الأخلاق وغير ذلك كما سبق العرض.

٢ - حاولنا تجنب بعض المواقف والاستطرادات عند إثبات النص حسب الرواية التى اعتمدنا عليها، حتى لا يطول جدا، خاصة فيما يتصل بالشعراء الذين تدخلوا فى المنافرة بالمدح والثناء لكل واحد من الخصمين، فقد تحمس لبيد بن ربيعة والأعشى لعامر بن الطفيل بينما سار الحطيئة وفتيان مع بنى الأحوص يرتجزون دعما لعلقمة بن علاثة، وقد أكسب الشعر هذه المنافرة تميزا واشتهارا، حتى صارت علامة فارقة ومميزة فى مسيرة النثر الجاهلى.

٣ - تميزت المنافرة بالوضوح وسهولة أكثر الكلمات، وتأكيد الجمل والعبارات بالوسائل التوكيدية المتاحة، وبناء معظم الفقرات على السجع القصير الفقرات.

٤ - اتجه الخصمان إلى الكثيرين الذين رفضوا التحكيم بينهما لما يترتب عليه من نتائج خطيرة إلى أن انتهى بهم المطاف إلى هَرِم ابن قطبة بن سنان الفزارى فقبل على شروطه، ولم يكن قبوله لِيَصِلِ بينهما إلا ليتحول بالنزاع بين الخصمين إلى وفاق

وتصالح بطريقة لا تأتى إلا من خبير مجــرب، ذى حنكــة فـــى الإصلاح بين الفرقاء.

٥ - كان الحكم دقيقا ورشيدا، فلم ينظر إلى مضمون المنافرة أو أنــه لم يُشغل نفسه بها كثيرا، وإنما عمد إلى الشكل الإجرائى، فهــدم القضية من أساسها، ولذا حكم بينهما بالتساوى، وقد استملح عمــر ابن الخطاب هذا الحكم وناقش هَرِما فيه فقال:

"يا هرم ، أى الرجلين كنت مفضلا لو فضلت؟ فقال: لو قلت ذاك يا أمير المؤمنين لعادت جَذَعة[1]، ولبلغت شغاف هجر[2]، فقال عمــر: نِعْم مستودع السر، ومُسند الأمر إليه أنت يا هرم، مثــل هــذا فليسد العشيرة، وقال: إلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم"[3].

وأعتقد أن نواتج هذه المنافرة كثيرة وأهمها ـ إلى جانب الــنص الأدبى المتميز ـ حكمة القاضى وعدم انحرافه، وحرصه على العــدل والإنصاف والإصلاح، فاستحق الظفر بثناء عمر بن الخطــاب عليــه وعلى حكمه الرائع العظيم.

---

(١) أى الحرب.
(٢) أى اتسعت.
(٣) الأغانى جـ١٦ صـ٢٩٣ .

وصية أكثم بن صيفى لقومه

ظهرت فنون وألوان متعددة من النثر الأدبى فى العصر الجاهلى مثل الحكم والأمثال والوصايا والخطابة والمنافرات وسجع الكهان الذين كانوا يزعمون أن لهم اطلاعا على الغيب، ومعرفة بأحداث المستقبل، من خلال اتصالهم بالجن، وقد كان الناس يهرعون إليهم، ويستشيرونهم فى كثير من شؤون الحياة فيردون عليهم بأسلوب مسجوع اصطلح على تسميته بسجع الكهان.

وتكون الخطبة عامة فى محفل أو جماعة من الناس، بينما توجه الوصية لعدد محدود أو لقوم بعينهم أو فرد من الأفراد، فقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أهلهم وعشيرتهم، ويوصونهم بكلمات تُؤثر عنهم، مثل تلك الوصية التى سبق ذكرها فى الترجمة لعمرو بن كلثوم.

وسوف نعرض بعد قليل لوصية أكثم بن صيفى لقومه عندما حضرته الوفاة، وهو حكيم من حكماء تميم المعدودين فى الجاهلية، وكان الملوك يستزيرونه لسماع حكمه ونصائحه، ويضرب به المثل فى أصالة الرأى، ونبل العظة، وسلامة الطبع وكان من المعمرين، وتوفى على الشرك فى السنة العاشرة قبل الهجرة النبوية (٦١٢م) وقيل بعد ذلك . ومن حكمه: "حافظ على الصديق ولو فى الطريق" و"رب قول أنفذ من صول" و"تناءوا فى الديار، وتواصلوا فى المزار" و"من مأمنه يؤتى الحِذر" وقيل إنه عزى عمرو بن هند فى أخيه فقال:

"إن أهل هذه الديار سَفْر"[١] لا يحلون عقْد الرحال إلا فى غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك، وارتحل عنك ما ليس براجعٍ إليك، وأقام معك من سَيَظْعَنُ عنك ويدعُك[٢]، وأعلم أن الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عظة وشاهد عدل فَجَعَكَ بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبتُه، وستسرعُ عنك رحلته، وغدا لا تدرى ما أهله، وسيأتيك إن وجدك، فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ وأعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخُلْف منا، وخيرٌ من الخير معطيه، وشرٌ من الشر فاعلة"[٣].

نص الوصية

قال: "تبارَوْا[٤] ، فإن البرّ يبقى عليه العدد، وكُفُّوا ألسنتكم فإن مقتلَ الرجل بين فَكَّيه[٥]، إن قولَ الحق لم يدعْ لى صديقا، الصدقُ مَنْجَاة والكذِب مَهْواة، لا ينفعُ التوقِّى[٦] مما هو واقع، فى طلب المعالى يكون العَنَاء[٧]، أُصبِحُ عند رأس الأمر أحبُّ إلى من أن أصبحَ عندَ ذَنَبه، لم يَهْلَك من مالك ما وَعَظَك، ويلٌ لعالم أمرٌ من جاهله، يتشابه

(١) هذه الديار: الدنيا، وسفر (بسكون الفاء) جماعة المسافرين.
(٢) أتاك: أى الموت، ارتحل عنك: أى أخوك، يظعن: يرتحل.
(٣) تاريخ الأدب العربى د. عمر فروخ جـ١ صـ٢٠٢ ـ طبعة دار العلم للملايين.
(٤) تباروا: ليقدم كل واحد منكم البر لغيره.
(٥) بين فكيه: أى لسانه.
(٦) التوقى: الحماية والحذر.
(٧) العناء: المشقة.

الأمرُ إذا أقبل فإذا أدبَر عرفه الكِّيس والأحمق[١]، البَطَرُ[٢] عند الرخاء حُمْقٌ، والعجزُ عند البلاء أمْنٌ، لا تغضبوا من اليسير فإنه يَجنى الكثير، لا تُجيبوا فيما لا تُسألون عنه، ولا تضحكوا مما لا يُضحك منه، حيلةُ من لا حيلةَ له الصبر، إن تَعِشْ ترَ ما لم تره، المِكْثار كحاطبِ لَيل[٣]، من أكثر سَقَط، لا تجعلُوا سرا إلى أمَة"[٤].

مضمون الوصية:

هذا النص الأدبى مجموعة من الأقوال الحكيمة التى قالها أكثم بن صيفى يوصى فيها قومه كشأن الحكماء الذين عركتهم الحياة، وصقلتهم التجارب، ولذا فهو يدعوهم إلى ضرورة الاتصاف بالبر والإحسان، فيقدم كل واحد البر لغيره؛ لأن ذلك أنفع لهم، ويوصيهم بالتحكم فى أقوالهم، لخطورة الألسنة على حياة الإنسان، كما يدعوهم إلى قول الحق، مهما خسروا بسببه الأصدقاء، ويحضهم على الصدق، والرضا بالقضاء والعناء فى طلب المعالى، وتقدم الصفوف.

ويرشدهم إلى الاستفادة من التجارب سواء أكان ذلك فى صورة استفادة بموعظة المال أو معاناة العالم من الجاهل، ويؤكد لهم تشابه الأمر عند إقباله ووضوحه عند إدباره، ويحذرهم من الغرور والحمق عند الرخاء بعكس العجز فهو عند البلاء أمن، وينهاهم عن الضحك مما لا يستحق أن يُضحك منه، ويرغبهم فى الصبر، ويؤكد لهم أن

(١) الكيس: العاقل الفطن، والأحمق: الجاهل الذى به طيش.
(٢) البطر: الطغيان على الآخرين بسبب شدة الفرح.
(٣) المكثار: كثير الكلام، وحاطب ليل أى يجمع الردئ والجيد.
(٤) أمة: جمعها إماء وهى ضد حرة.

الذى سيعيش سوف يرى أكثر مما شاهد، وأن كثير الكلام كحاطب ليل يجمع الجيد والردئ، فمن كثر كلامه كثر خطؤه، ويدعوهم إلى حفظ الأسرار وعدم إفشائها، ولا يأمن العاقبة من جعل سره فى يد امرأة لا تملك الإرادة والحرية.

تحليل ونقد :

١ - تتميز هذه الوصية وغيرها من نثر أكثم بالوضوح والصدق، أما الوضوح فالعبارات السابقة لا تختلف كثيرا عما قدمناه له فى الأقوال والحكم المذكورة له من خارج الوصية، وذلك راجع لرغبة الرجل فى إفادة قومه بتجربته، بهذا الكلام الواضح الذى يتلقاه أهله وعشيرته على اختلاف أعمارهم وتجاربهم. أما الصدق فهو خلق فيه، ودعوة منه قال عنه: "الصدق منجاة والكذب مهواه".

٢ - وتتميز الوصية بالإيجاز وانتقاء الألفاظ والبعد عن التكلف، وهذا شأن الحكم والأقوال الجامعة كقوله: "البَطَرُ عند الرخاء حُمْق" وقوله: "من أَكْثَر سَقَط" أى من أكثر كلامه كثر الخطأ فيه، كما يتجلى طبع أكثم وعدم تكلفه فى صياغة أسلوبه وعباراته، حتى ليشعر القارئ أن الرجل قريب منه، يتحدث إليه حديثا سهلا ممتعا قريبا من لغة الصحافة الأدبية فى عصرنا.

٣ - كما يتميز الأسلوب باشتماله على بعض المحسنات البديعية التى تتلاءم مع الصياغة، ومع مضمون الوصية التى يبثها الرجل إلى

قومه، وهم ليسوا علـــى درجـــة واحـــدة مـــن الـــوعى والفهـــم والاستيعاب، ولننظر إلى قوله: "الصدق منجاة والكـــذب مهـــواة" ففى الجملتين أكثر من محسن بديعى، لا يشعر المتلقى لهما بثقل أو نفور، ويتنوع الطباق عنده كقولـــه: "أقبـــل وأدبـــر، والعـــالم والجاهل، والكيس والأحمق"٠

٤ - يقدم بعض الكلمات على بعض، للتأكيد على أهمية مـــا يقدمـــه كقوله: "فى طلب المعالى يكون العناء"، ويكثر من التأكيد كقوله: "فإن البر" وقوله: "فإن مقتل"، "إن قول الحق ...." وغيرها٠

٥ - استعان فى هذه الوصية ببعض الصور الخيالية المبنيـــة علـــى تشبيهات مستوحاة من البيئة، فقد جعل اللـــسان مقـــتلا للرجـــل، وجعل للأمر رأسا وذنبا، وصور المال واعظا، والمكثار كحاطب ليل٠

٦ - لقد تميز أكثم بن صيفى بين رجالات عصره بقول الحكمة، التى تناقلتها الأجيال من بعده، ولا زال الناس يرددون قوله: "إن قول الحق لم يدع لى صديقا" وهى حكمة تشتمل على بعض المبالغـــة وأخصر منها قوله: "الصدق منجاة" و"الكذب مهواة"٠

٧ - لقد أقر الإسلام كثيرا من المعانى الأخلاقية، التى تميز بها بعض الحكماء فى الجاهلية، ومنهم أكثم الذى قيل إنه لـــم يـــدخل فـــى الإسلام ولم يتأثر به كمـــا ذكـــرت بعـــض المـــصادر القديمـــة والحديثة٠

وصية أُمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس بنت عوف

أمامة بنت الحارث[١] :

تميزت أمامة بالفصاحة والنبل فى الجاهلية، وكانت زوجة عوف ابن مُحلِّم الشيبانى، واشتهرت بوصيتها إلى ابنتها أم إياس، وتعد هذه الوصية أفضل ما قيل فى موضوعها، حيث أوصت ابنتها قبل زواجها من ملك كِنْدة الحارث بن عمرو[٢] أما ابنتها فهى أم إياس بنت عوف بن مُحلَّم الشيبانى، وقد جاء فى الأمثال للميدانى عند شرح المثل: "ما وراءكَ يا عصام؟" أن الحارث بن عمرو ملك كندة لما بلغه جمال أم إياس بنت عوف، وكمالها وقوة عقلها دعا امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف، فمضت حتى انتهت إلى أمها، وهى أمامة ابنة الحارث، فأعلمتها ما قدمت له، فأرسلت أمامة إلى ابنتها، وقالت أى بُنَيَّة هذه خالتُك أتتك؛ لتنظر إليك، فلا تسترى عنها شيئا إن أرادت النظر من وَجْهٍ أو خَلْقٍ، وناطقيها إن استنطقتك، فَدَخَلَتْ إليها ، فنظرتْ

---

(١) يراجع تاريخها ونص الوصية وزواج ابنتها أم إياس فى مجمع الأمثال للميدانى جـ٣ ص٢٤٠، والعقد الفريد لابن عبد ربه جـ٧ ص٧٧، ص١٠٣، والأعلام لخير الدين الزركلى جـ٢ ص١١، وبلوغ الأرب للألوسى جـ٢ ص١٧ ــ ١٩ وفى غيرها .

(٢) جاء فى العقد الفريد أن الذى تزوجها هو عمرو بن الحارث (آكل المِرار) والد الحارث بن عمرو المذكور، الذى كان جد الشاعر امرئ القيس وملكا على كندة، على خلاف ما جاء فى بقية المصادر .

إلى ما لم تر قطُّ مثلَه، فخرجت من عندها وهى تقول: "تَرَكَ الخداعَ مَنْ كشف القِنَاع" فأرسلتها مثلا، ثم انطلقت إلى الحارث فلما رآها مقبلة قال لها: "ما وراءكِ يا عصام؟" قالت: "صَرَّحَ المخْضُ عن الزُّبْد"، وطلب منها الحارث أن تخبره صدقا وحقا ووصفت له أم إياس كل أجزاء جسمها وصفا يكشف عن تميزها فى جمال الجسم وروعة المنظر، فبعث إلى أبيها كى يخطبها منه، فاشترط عوف بن محلِّم للموافقة أن يسمى بنيها وأن يزوج بناتها، فاعترض الحارث بن عمرو (طالب الزواج) ؛ لأن الأبناء يُسمون بأسماء الآباء والأعمام، والبنات تزوج للأكفاء من الملوك، ولكنه سوف يصدقها (يقدم لها صداقا) عقارا فى كِندة (فى ديار قبيلته)، ويمنح قومها حاجات بحيث لا تُرد لأحد منهم حاجة، فقبل ذلك أبوها، وتم تجهيزها، ولما جاء وقت حملها إلى زوجها دخلت عليها أمها، فقالت لها الوصية المتفردة التى سنذكرها.

وعظمت مكانتها عند زوجها، وقيل إنها ولدت له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.

والحارث بن عمرو هو جد الشاعر امرئ القيس، قد شايع (قُباذ ابن فَيروز) كسرى الفرس فى اعتناق المَزْدَكِيةِ[١] مما سّهل له الاستيلاء على الحيرة، وطرد المنذر بن ماء السماء منها، وكان قد وزع أبناءه على القبائل العدنانية وهم حُجر (والد امرئ القيس)

---

(١) ديانة تنسب إلى رجل يقال له مَزْدك، تدعو إلى المشاركة بين الناس فى الأموال والنساء.

وشراحبيل ومعد يكرب وسلمة وعبدالله كما قيل إن له بنتا تسمى (هند) تزوجت المنذر بن ماء السماء٠

كما ذكر أن الذى خطب أم إياس وتزوجها هو عمرو بن الحارث، وأنها أنجبت له (الحارث بن عمرو) فهذا هو الزوج فى سائر المراجع، وهو فى العقد الفريد الابن لأم إياس بنت عوف٠

نص الوصية(*)

"أى بُنَيَّةُ إن الوصية لو تُركت لفضلِ أدب تُركت لذلك منك، ولكنها تذكرةٌ للغافلِ، ومعونةٌ للعاقل، ولو أنَّ امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدةِ حاجتهما إليها لكنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلقن، ولهن خُلق الرجال٠

أى بُنَيةُ، إنك فارقتِ الجو الذى منه خَرَجْت، وخلَّفْتِ العُش الذى فيه دَرَجْتِ، إلى وكْر[1] لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بِمُلْكِه عليك رقيبا ومليكا، فكونى له أمةً يكن لك عبدا وَشيكا[2]٠

يا بُنَية، احملى عنى عشر خصال تكن لك ذُخْرا وذِكرا:

ـ الصحبةُ بالقناعة، والمعاشَرةُ بحسن السمع والطاعة، والتعهدُ لموقع عينه، والتفقُدُ لموضع أنْفِهِ، فلا تقعْ عينُه منك على قبيح، ولا يَشَمُّ منك إلا أطيَّبَ ريح، والكُحل أحسنُ الحُسْن، والماءُ أطيب الطيِّب

(*) مجمع الأمثال للميدانى جـ٣ ص٢٤١، حققه محمد أبوالفضل إبراهيم طبع عيسى الحلبى ١٩٧٩م٠

(١) الوكر: عش الطائر، والمراد هنا منزل الزواج٠

(٢) وشيكا: مسرعا٠

المفقود[١] ، والتعهدُ لوقت طعامه، والهدُو عند منامه، فإن حرارةَ الجوع مَلْهَبَةٌ، وتنغيصَ النوم مَبْغَضَةٌ، والاحتفاظُ ببيته وماله، والإرعاءُ[٢] على نفسه وحَشَمِه[٣] وعياله، فإن الاحتفاظَ بالمال حسنُ التقدير، والإرعاءَ على العيالِ والحَشَم جميلُ حَسُنِ التدبير، ولا تُفْشى له سرا، ولا تَعْصى له أمرا، فإنك إن أفْشَيْتِ سره لم تأمَنى غدره، وإن عَصَيْتِ أمره أوْغَرْتِ صدرَه[٤] ، ثم اتقى مع ذلك الفَرَحَ إن كان تَرِحا[٥]، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحا، فإن الخَصْلَةَ الأولى من التقصير والثانية من التكدير، وكونى أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشدَّ ما يكون لك إكراما، وأشدَّ ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمى أنك لا تَصلِين إلى ما تُحبِّين حتى تؤثرى رضاه على رِضاك، وهواهُ[٦] على هواكِ، فيما أحْبَبْتِ وكَرِهْتِ .. والله يَخِيرُ لَكِ"[٧].

إضاءة نقدية:

تحدثت أمامة فى المقدمة عن أهمية الوصية بالنسبة للفتاة مهما كانت مكانتها ومنزلة أهلها، فهى تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، كما حرصت على المقابلة والتفريق بين منزل أسرة الفتاة وعش الزوجية

---

(١) الطيب المفقود: المسك أو أية مادة ذات رائحة طيبة لا تستعمل.
(٢) الإرعاء: المحافظة .
(٣) الحشم: تقال للمفرد والجمع وهم خاصة الشخص، وتأتى جمعا على أحشام.
(٤) أوغرت صدره: ملأت صدره حقدا وغيظا.
(٥) الترح (بفتح الراء) الهموم والتِرح (بكسر الراء) : الحزين المهموم.
(٦) الهوى: الرأى .
(٧) يخير لك: يجعل لك الخير فى الأمر .

وقولها: "احملى عنى عشر خصال" تنبيه إلى أهمية أن تأخذ البنت الصفات الحميدة عن أمها، ولأنها الأقدر على مخاطبة ابنتها بما مارسته وحرصت عليه، واتصفت به فهى تقول: "احملى عنى".

وحصر الخصال أو الصفات فى عشر ليس إلا أسلوبا للتنبيه والتأكيد، وإلا فإن العدد ليس على حقيقته؛ لأن الصفات المذكورة تزيد على ذلك، كما أن الرواية التى جاءت فى العقد الفريد. والتى ذكر فيها تفصيل العدد تبقى فى آخرها بعض الخصال التى تزيد عن العشرة، فقد جاء بها: "أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة" إلى أن تنتهى من العدد فتقول:

"ثم إياك والفرحَ بين يديه إذا كان مهتما والكآبة بين يديه إذا كان فرحا"[١] وبدأت الوصية بالتأكيد من خلال النداء والتوكيد بإنّ ، وبُنيت على السجع الذى يتميز بسهولة الألفاظ وخفتها، وقصر الجمل وخلوها من التكلف. ويمس النص العلاقة بين الرجال والنساء من خلال الزواج، وأهمية طاعة المرأة لزوجها، والتجمل له والاستجابة لرغائبه والحفاظ على أمواله وأسراره، إلى غير ذلك من الخصال التى قالتها المرأة فى وضوح وصدق.

وتتنوع صياغة الجملة بالطباق بين الكثير من الألفاظ، وكذلك الجمل والمعانى، وتتعدد صور الأسلوب عند أمامة فهو خبرى فى قولها: إن الوصية ... وإنك فارقت، وهو إنشائى بالأمر فى قولها:

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ٧ ص٧٧، ص٧٨ .

"كونى له أمة يكن لك عبدا..." و"احملى عنى"، ثم تذكر الخصال في تفصيل بعد إجمال، والأسلوب إنشائى بالنهى فى قولها: "ولا تفشى، ولا تعصى"، والشرط: "إن أفشيت" والنفى: "فلا تقع"، وتكرار التوكيد، "فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير" وقولها: "فإن الخصلة الأولى من التقصير".

وأحسنت الموصية فى الخاتمة بجعل الأمر لله إذعانا بالرضا والتسليم.

فهذه الوصية قطعة أدبية متميزة من الأدب الاجتماعى، الذى أنشأته أمٌّ عربية ناضجةٌ، تجمع فيه بين سلامة التفكير، وحنكة التجربة، وصدق العاطفة، وجمال الأسلوب، الذى يعبر عن هذا اللون المتميز من النثر الأدبى فى تراثنا القديم.

من الأمثال الجاهلية

المثل: قول حكيم مركز ينقل عن قائله بدون تغيير، ويستعمل أو يضرب فى موقف جديد مشابه، ولذلك صار للمثل أصل ومضرب، بخلاف الحكمة فإنها قول صائب يصدر عن حكيم من غير أن يرتبط بمناسبة (أصل) أو موقف مشابه (مضرب).

ويذكر المثل على لسان الحيوان أو الطيور أو الوحوش على سبيل الرمز، خوفا من المساءلة والعقاب، وليست الحكمة كذلك إذ أنها تصدر من الإنسان فقط، وربما صدرت على لسان الحيوان أيضا.

وهذه طائفة من الأمثال مع بيان أصلها ومضربها:

١ - جزاء سِنِمَّار:

أصل المثل:

قيل إن النعمان بن امرئ القيس اللخمى بنى قصرا بظهر الكوفة، سماه الخَوَرْنَق، والذى بناه له رجل رومى يسمى (سِنِمَّار)، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فخر ميتا، وإنما فعل ذلك لئلا يبنى مثله لغيره، فضربت العرب به المثل لمن يُجْزِى بالإحسان الإساءة، قال الشاعر:

جَزَتْنَا بنو سعد بحسن فَعَالنا ∴ جزاء سِنِمّارٍ وما كان ذا ذَنْبِ[١]

ويقال: هو الذى بنى أُطم[٢] أُحَيْحَة بن الجُلاَح، فلما فرغ منه قال له أحيحة: لقد أحكمته! قال: إنى لأعرفُ فيه حَجرا لو نُزِع لتقوض من

(١) مجمع الأمثال للميدانى جـ١ صـ٢٨٣.
(٢) الأطم: الحصن، والبيت المرتفع.

عند أخره، فسأله عن الحجر، فأراه موضعه، فدفعه أحيحة من الأطم فخر ميتا[١] .

مضرب المثل: فى الغدر ونكران الجميل.

٢ - رجع بخُفّىْ حُنين:

وأصله كما ذكر الميدانى فى مجمع الأمثال: "أن حُنينا كان إسكافا، من أهل الحيرة، فساومه أعرابى بخفين، فاختلفا حتى أغضبه، فأراد غيظ الأعرابى، فلما ارتحل الأعرابى أخذ حنين أحد خفيه وطرحه فى الطريق، ثم ألقى الآخر فى موضع آخر، فلما مر الأعرابى بأحدهما قال: ما أشبه هذا الخف بخف حنين، ولو كان معه الآخر لأخذته! ومضى، فلما انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول، وقد كمن له حنين، فلما مضى الأعرابى فى طلب الأول عمد حنين إلى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابى وليس معه إلا الخفان فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ فقال: "جئتكم بخفى حنين" فذهبت مثلا.

مضرب المثل: عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة[٢].

٣ - مواعيد عُرْقُوب :

ذكر الميدانى نقلا عن أبى عبيد: أن عرقوبا رجل من العماليق، وقد جاءه أخ له يسأله، فقال له عرقوب: إذا أطْلَعَتْ هذه النخلة فلك

---

(١) راجع الأمثال للميدانى، جـ١ ص٢٨٣ .
(٢) السابق جـ٢ ص٤٠ .

طَلْعها، فلما أطلعت أتاه لِلْعِدَةْ، فقال: دعها حتى تصير بلحا، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زَهْوا، فلما زهت قال: دعها حتى تصير رطبا، فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمرا، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها[١]، ولم يعط أخاه شيئا، فصار مثلا فى الخلف، فيه يقول الأشجعى:

وعدتَ وكان الخلفُ منك سَجيَّةً ∴ مواعيدَ عرقُوبٍ أخاه بيَتْرِب

ويروى (بيَثْرِب) وهى مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، ويترب بالتاء وفتح الراء ـ موضع قريب من اليمامة، وقال آخر:

وأكذبُ من عرقوبِ يَتْرَبَ لهجةً ∴ وأبينُ شؤمًا فى الحوائِج من زُحَلْ[٢]

مضرب المثل: فى خلف الوعد خاصة على الأقارب.

نماذج أخرى من الأمثال:

ـ يكفيك من القلادة ما أحاطَ بالعنق.

ـ التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر.

ـ لا تطعم طعامك من لا يشتهيه.

ـ إذا عزّ أخاك فهُنْ[٣].

ـ شِنْشَنَةٌ أعرِفُها من أخْزَم[٤].

ـ أخذ القوسَ باريها.

---

(١) جذّ الشيئ : قطعه.

(٢) الأمثال للميدانى جـ٣ ص٣٣٠.

(٣) جاء على من يعرب الأب والأخ إعراب المقصور.

(٤) الشنشنة: الطبيعة، وأخزم: اسم شخص.

- سبق السيفُ العَذَل.
- رُب ملومٍ لا ذنبَ له.
- انجُ سعد فقد هلك سُعيد.
- الهدم أسرع من البناء.
- الوحدة خيرٌ من جليس السوء.
- عُذْرُه أعظمُ من ذنبه.
- من كثُر كلامه كثر سَقَطُه.
- ما أشبه الليلةَ بالبارحة.
- مُكْرهٌ أخوك لا بطل.
- المرء بأصغريه (قلبه ولسانه).
- من أشبه أباه فما ظلم.
- هُدْنَةٌ على دَخَن.
- من مأمنه يُؤتى الحِذر.
- مَنْ طلب شيئا وجده.
- إياكِ أعنى واسمعى يا جاره.
- ما يومُ حليمةَ بِسرّ.
- يَخْبِط خبطَ عشواء.
- إن الحديث ذو شجون.
- إن البلاء موكل بالمنطق.
- عند جُهينةَ الخبر اليقين.
- فى بيته يُؤتى الحَكم.

ـ الليلُ أخفى للويل ٠

ـ كالمستغيثِ من الرمضاء بالنار ٠

ـ كيف أعاودُك وهذا أثر فأسك ٠

ـ كل فتاةٍ بأبيها معجبة ٠

ـ من يزرع الشوك لا يحصد به العنبا ٠

ـ أنجزَ حرٌّ ما وعد ٠

ـ إنك لا تجنى من الشوك العنب ٠

ـ النفسُ مولعةٌ بحب العاجل ٠

ـ أوسعتُهُم سبًّا وأودَوْا بالإبل ٠

ـ تسمع بالمعيدىّ خيرٌ من أن تراه ٠

ـ جوعْ كلْبك يتبعْك ٠

ـ جاوز الحزام الطُّبْيَيْن (يضرب عند بلوغ الشدة منتهاها) ٠

ـ أجهلُ من فراشة (لأنها تطلب النار فتلقى نفسها فيها) ٠

ـ خلا لك الجو فبيضى واصْفِرى ٠

ـ رب أخٍ لك لم تلده أمك ٠

ـ قطعت جَهِيزةُ قولَ كل خطيب ٠

ـ قد قيل ذلك إن حقا وإن كذبا ٠

والأمثال العربية كثيرة جدا، ولم يقتصر زمانها على العصر الجاهلى، وهى تحفظ بصورتها التى قيلت عليها، حتى لو خالفت قواعد اللغة والنحو، وليرجع من شاء إلى كتاب الأمثال للميدانى وغيره ٠

خطبة المأمور الحارثى فى قومه

المأمور الحارثى خطيب وحكيم جاهلى، من بنى الحارث بن كعب من مَذْحِج[١] وهو غير مشهور، واختلف فى اسمه، فقيل: إنه المأمور الحارثى وذكر أبو على القالى فى أماليه[٢] أنه المأمور بن زيد من بنى الحارث بن كعب واسمه معاوية بن الحارث، وورد فى جمهرة خطب العرب أنه المأمون بالنون لا بالراء، كما جاء فى الاشتقاق أنه الحارث بن معاوية، وشارك الرجل فى أحداث يوم الكلاب الثانى (من أيام القحطانيين والعدنانيين) وتضنّ المراجع والمصادر بالحديث عن هذا الخطيب، والتى لم تذكر له – فى مدى علمنا – إلا الخطبة التى سنعرض لها.

وقد ذكره عمرو بن معد يكرب فى شعره عن بعض قبائل اليمن قال:

وهم ساروا إلى المأمور شهرا ∴ إلى تِعْشَارَ سيرا غَيْرَ قَصْدْ

وهم قَسَمُوا النساء بذى أراطَى ∴ وهم عركُوا الذنائب عَرْكَ جِلْدِ[٣]

الخطبة:

قيل إن المأمور الحارثى جلس فى منتدى قومه، وأطال النظر فى السماء والنجوم، وفكر طويلا فى الأيام والسنين ثم قال خطبته:

---

(١) مذحج بن أدد بن يشجُب بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، جـ١ ص٣٦٢، والأمالى جـ٣ ص١٦٦، ومختارات من روائع الأدب فى الجاهلية وصدر الإسلام للدكتور عبدالسلام سرحان ص٢٣٠ .

(٣) تعشار، وأراطى: موضعان، عركوا: قتلوا أهله، الذنائب: مواضع أغاروا عليها فتركوها كذلك (الأمالى، ج٣ ص١٦٦).

النص(*)

قال لقومه: "ارْعُونى أسماعكم، واصْغُوا إلىَّ قلوبَكم، يبْلُغُ الوعظُ منكم حيث أريدُ[١]. طَمَحَ بالأهواء الأشَرُ، ورانَ على القلوب الكَـدَر، وطَخْطَخَ الجهلُ النظرَ[٢] .

إن فيما نرى لمُعْتَبَرا لمن اعتَبر .. أرضٌ موضـوعةٌ، وسـماءٌ مرفوعةٌ[٣] وشمسٌ تطْلُع وتغْربُ، ونجومٌ تَسْرى فتَعْـزُب[٤] .. وقمـرٌ تطلعه النُّحور، وتمحقُه أدبارُ الشهور[٥] .. وعاجزٌ مُثْرٍ، وَحُوَّلٌ مُكْدٍ[٦] .. وشابٌ مُخْتضر.. ويَفَنٌ قـد غبَـر[٧] .. وراحلـون لا يؤوبـون، وموقوفُون لا يفتِرُون[٨]، ومطرُ يُرْسل بقَدَر، فيُحْيى البـشر، ويُـورِق الشجر، ويُطْلِعُ الثمر، وينبِتُ الزَّهر .. وماء يتفجّر من الصخر الأيـرّ .. فيصْدَعُ المَدَر ، عن أفنان الخُضَر، .. فيحيى الأنام، ويُشبع السوام، ويُنْمِى الأنعام[٩].

(*) الأمالى لأبى على القالى جـ١ صـ٣٢٣ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٥م.

(١) أرعونى أسماعكم: اجعلوها لى مرعى.

(٢) طمح: ذهب فى نشوز، الأهواء: الشهوات، الأشر: المرح الشديد طخطـم: ضم.

(٣) موضوعة أى مذللة، ومرفوعة: مشرفة .

(٤) تعزب: تغيب .

(٥) التحور: أوائل الشهور، أدبار الشهور: أواخرها .

(٦) مثر: ذو ثراء، حول: شديد الاحتيال، مكد: قليل المال.

(٧) مختضر: مات حدثا صغيرا، يفن: شيخ كبير، غبر: بقى ومَكَث.

(٨) موقوفون لا يفترون: مقامون لا يضعفون.

(٩) الأير: الشديد الصلب والواحدة يراء، يصدع: يشق، المدر: الطين اليـابس، الأنام: الخق، السوام: الإبل الراعية، الأنعام: الدواب أو الإبل أو الشاء.

إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدِّبر المقدر، البارئ المصور .. يا أيها العقولُ النافرة، والقلوبُ النائرة .. أنىَّ تُؤْفكون؟ وعن أى سبيل تَعْمهون؟ وفى أى حَيْرة تَهيمون؟ وإلى أى غاية تُوفضون[١]؟ لو كُشفت الأغطيةُ عن القلوب، وتجلَّتِ الغِشاوة عن العيون لصرَّحَ الشك عن اليقين، وأفاق عن نَشْوةِ الجهالة من استولت عليه الضَّلالة"[٢].

إيضاح الأفكار:

- الخطبة موجهة إلى قوم المأمور؛ ليعظهم وينصحهم بخبرته وكثرة تجاربه، ويدعوهم إلى الاستماع له، والإصغاء لكلامه؛ حتى يتحقق الرشاد لهم.
- وذكر أن المبالغة فى الحرح تقضى على الرغبات والآمال، وأن الكدر تراكم على القلوب، وسيطر الجهل على الآراء، وكل ذلك يدعو للعبرة والاتعاظ.
- فهذه هى الطبيعة بما فيها من أرض مبسوطة مذللة، وسماء عالية مشرفة، وشمس ونجوم وقمر لا تثبت كلها على حال، فتطلع وتغرب، وتظهر وتختفى حسب الأيام والشهور.
- أما البشر فمنهم العاجز الغنى، والنشيط الفقير، والشاب الذى يموت والشيخ الكبير الذى يبقى أزمانًا طويلة، والآخرون الذين يقاومون الحياة ولا يضعفون أمامها.

---

(١) تؤفكون: تبعدون، وتعهمون: تضلون، تهيمون: تضطربون، توفضون: تسرعون.

(٢) صرح: أظهر، الشك: الارتياب، اليقين: الحق الواضح.

- وتسقط الأمطار بحساب مقدر فتحيى البشر، وتورق الأشجار، وهكذا تتغير صورة الأرض، فتظهر مزهرة مثمرة .
- ويتفجر الماء من باطن الأرض، فيسقى قطع الطين الجافة، وتزداد الخضرة، ويحيا الناس، وتشبع الإبل وسائر الدواب .
- وكل هذه الخصائص الطبيعية التى يراها الخلق، ولا يديرون لها أنظارهم وأفكارهم، لَمن أوضح الدلائل على وجود الخالق المدبر .
- وينادى العقول النافرة، والبصائر الضالة، ويدعوها ويحثها على ضرورة النظر والتدبر، والبعد عن الحيرة والتخبط، وإزاحة الأفكار المضطربة، حتى ينجلى الشك، وينمحى الجهل عمن وقع فريسة للوهم والضلال .

تحليل ونقد:

١ - سارت الخطبة على نمط الأسلوب العربى القديم، الذى تغلب عليه الأسجاع القصيرة الجمل، ويكاد المأمور يلتزم بالسجع التزاما، فلا تمضى جملة إلا متبوعة بأخرى تتوافق مع المتقدمة فى الحرف الأخير مثل قوله:

طَمَح بالأهواء الأشَر ، ورَان على القلوب الكَدَر

٢ - يقترب الترصيع من الجناس فى الصياغة، ويكثر وروده فى هذه الخطبة، التى تغلب عليها الحكمة، وتوجيه الوعظ والنصيحة .

والترصيع: اتفاق فقرتين أو أكثر في الوزن وفي الحرف الأخير.

مثل قوله: **أرضٌ موضوعةٌ ... وسماء مرفوعة.**

وقوله: **راحلون لا يؤوبون ... وموقوفون لا يفِترون.**

والملاحظ أن الترصيع بين فواصل مبنية على السجع، ولذلك يزيد الصياغة رونقا وجمالا.

٣ - أما الطباق فقد جاء في العديد من الفقرات مثل قوله: تطلُعُ وتغرب ، وقوله: مُثرٍ ومُكْد.

٤ - حرص الرجل في نصائحه ووعظه على الأطناب، ويتمثل في تكرير المعاني والتأكيد عليها، فقد ذكر أن ماء الأمطار يحيي البشر ويورق الشجر، ثم قال: إن مياه الآبار تحيي الأنام وتشبع السوام، مع أن تأثير المياه واحد لا يختلف بين كونه من المطر أو من بين الصخور.

٥ - تتجلى بعض مظاهر الخبرة والتجربة عند المأمور فذكر معظم المعاني في قالب مركز، وفي صورة مليئة بالأساليب الخبرية المؤكدة كقوله: إن في ذلك لأوضح الدلائل ـ ويا أيها العقول النافرة ـ ومثل الاستفهام في الأسلوب الإنشائي المشبّع بالتعجب كقوله:

أنىّ تُؤفكون ... وعن أي سبيل تَعْمهون؟

وقد ابتدأ الخطبة بدعوة قومه إلى الاستماع له والإصغاء إلى كلامه، وانتقل من الإخبار عما فى الأرض والسماء مما يدعو للتأمل والتفكر إلى بيان حتمية الحياة والموت، والإيمان بالخالق المدبر والبارئ المصور.

٦ - تقترب هذه الخطبة فى موضوعها مما ذكره قس بن ساعدة فى خطبته المشهورة بسوق عكاظ(١)، وأهم هذا التشابه بيان ما فى السماء والأرض من كائنات وجمادات، وضرورة الإقرار بالإله الواحد المتفرد فى ملكه وملكوته، كما تقترب كثيرا من وصايا أكثم بن صيفى، خاصة ما توجه بها إلى قومه، مما يحفزنا على التأكيد الجازم بوجود مجموعة من الهداة المصلحين فى الجاهلية ممن كانوا يقولون بوجوب الاعتراف بخالق الأرض والسماء.

ولا يبقى غير التأكيد على أن خطبة المأمور الحارثى قطعة أدبية بليغة ومتميزة فى صياغتها البليغة وألفاظها المتميزة، ومعانيها الرائعة ودلالتها على العصر والحياة وأدب ما قبل الإسلام.

---

(١) سيأتى الحديث عنها.

خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادى[1]

التعريف بالخطيب:

هو قُسٌّ بن ساعدة بن عمرو بن عَدِى من بنى إياد، ومن كبار الخطباء فى الجاهلية، وهو من الزهاد فى الدنيا، وكان يؤمن بالله يودعو إليه، وروى أن الرسول (ﷺ) رآه بسوق عكاظ، وذكره بخير، ودعا له بالرحمة، وتوفى قبل الهجرة سنة ٦٠٠م (٢٢ق.هـ) والخطبة التى سنعرض لها مما رويت عنه فى سوق عكاظ.

نص الخطبة(*):

أيها الناس اسمعوا وعوا، إنه مَنْ عاشَ مات، ومن ماتَ فات، وكل ما هو آتٍ آت . ليلٌ داجٍ، ونهارٌ ساج، وسماءٌ ذات أبراج، ونجوم تَزْهَر، وبحار تَزْخَر، وجبال مُرْسَاة، وأرض مُدْحَاة، وأنهار مُجْراه، إن فى السماء لَخَبرا، وإن فى الأرض لَعِبَرا، ما بالُ الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرَضُوا فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟ يا معشرَ إياد، أين الآباءُ والأجدادُ وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثَر منكم مالا وأطول آجالا؟ طحنهم الدهر بكَلْكَه، وفرّقهم بتطاوله.

---

(١) الأعلام – لخير الدين الزركلى، جـ٥ ، ص١٩٦، البيان والتبيين للجاحظ، جـ١ ص٣٠٨ ، تاريخ الأدب لعمر فروخ، جـ١، ص١٧٣، كتاب العصا لأسامة بن منقذ (ضمن كتاب نوادر المخطوطات) ص١٨٥، المجلد الأول – تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات، ص٢٠، وتاريخ الأدب العربى – العصر الجاهلى، د. شوقى ضيف ، ص٤١٥ وغيرها.

(*) نوادر المخطوطات – تحقيق عبدالسلام هارون (ضمن كتاب العصا لأسامة ابن منقذ) المجموعة الثانية صـ١٨٥ طبع الحلبى عام ١٩٧٢م.

فـــى الـــــذاهبينَ الأوليـــــــ ∴ ن مـــن القـــرونِ لنـــا بـــصائرْ

لـــــا رأيــــت مــــوارِدا ∴ للمـــوتِ لـــيس لهـــا مـــصادرْ

ورأيـــت قـــومى نحوَهـــا ∴ يمـــضى الأصـــاغرُ والأكـــابر

لا يرجـــع الماضـــى إلىّ ∴ ى ولا مـــن البـــاقين غـــابر

أيقنـــتُ أنّـــى لا محـــا ∴ لــة حيــث صــارَ القــوم صــائر

خصائص الخطبة:

من الواضح أن الخطبة فى الوعظ والنصح، وهى حول التـذكير بالموت والفناء، الذى يشمل الإنسان والطبيعة بما فيهـا مـن سـماء وأرض وأنهار وبحار.

وتتميز هذه الخطبة بما يلى:

١ - بُنيت الخطبة على السجع من أولها إلى آخرهـا، وهـو توافـق الفواصل فى الحرف الأخير مثل: اسمعوا وعوا ـ مـن عـاش مات، ومن مات فات ـ نجوم تزهر، وبحار تزخر.

٢ - الأسلوب مطبوع، بمعنى أنه غير متكلف، وكلما جـاء الـسجع مطبوعا كلما كان أوقع فى النفس، لما به من رونق وجمال، أمـا الأسلوب ذو الفقرات القلقة لما بها من تكلف فى السجع، فإنه يفسد المعنى، ويذهب برواء الصياغة.

٣ - لم ينس قس ـ وهو يخطب ـ أنه شاعر، فجعل بعض الخطبـة شعرا، والذين يخطبون وليست لديهم موهبة الشعر فإنهم يقتبسون

من أشعار الآخرين للاستشهاد بها، أو يضمنون كلامهم شيئا منه، وقد جاء شعر قس فى الخطبة قويا مؤثرا موافقا لموضوعه . ولا يقل عن نثره من حيث الجمال والرقة.

٤ - يختار الألفاظ بعناية شديدة، ولا يتأتى مثل هذا الاختيار إلا لمن لديه حصيلة كبيرة من كلام العرب شعرا ونثرا.

٥ - تتصف فقرات أسلوبه بالقصر، وهذا ما أسهم فى روعة السجع؛ ذلك لأن الفقرات الطويلة لا تتناسب إطلاقا مع الأسلوب المسجوع.

٦ - يعمد إلى ضرب الأمثال وسوق الحكم فى دقة وإيجاز، مما ينم عن خبرة وتجربة.

٧ - ينوع فى أسلوبه بين الخبر والإنشاء، والخبر كقوله: "إنّ فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا ... لا يرجع الماضى إلىّ.." وذكر فى خطبته بعض الأساليب الإنشائية كالنداء فى قوله:

- أيها الناس ـ يا معشر إياد.
- والأمر مثل قوله: اسمعوا وعوا.
- والاستفهام مثل قوله: ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟

والتنويع فى الأسلوب بهذه الطريقة يجعله مؤثرا جذابا إذ أن الرتابة تشيع الملل فى المستمع أو القارئ.

٨ - عمد فى أسلوبه إلى ضروب من المحسنات البديعية التى تضفى على الأسلوب رونقا وجمالا . نذكر منها الطباق كقوله: "عاش

ومات" وقوله: "الأصاغر، الأكابر" والترصيع: "ومن مات فات" والجناس الناقص: "تزهر، تزخر"٠

٩ - مع أن قسا بخطاب الحقيقة، ولا يلجأ فى وعظه إلى الخيال، لكنه ذكر شيئا منه كقوله: "طحنهم الدهر بكلكله" حيث جعل الدهر آلة تطحن (استعارة مكنية) وقوله: "الدهر بكلكله" استعارة مكنية أخرى حيث جعل الدهر جملا له كلكل، والخيال مستوحى من البيئة، وليس خارجا عن دائرتها٠

من خصائص النثر فى العصر الجاهلى:

١ - قصر الجمل سواء فى الخطابة أو فى غيرها من الفنون٠

٢ - موافقة النثر للطبع ، وبعده عن التكلف الذى يفسد الشكل والمضمون٠

٣ - شيوع الحكم والأمثال، التى تكشف عن التجربة والرؤية الواضحة والبصيرة النافذة٠

٤ - الألفاظ قوية، ومعتنى بها، وغالبا ما يميلون إلى التزاوج أو التباين بينها٠

٥ - الخيال محدود، وينحصر فى التشبيه والاستعارة والكناية٠

٦ - عنايتهم بالسجع والجناس والطباق وغيرها من المحسنات البديعية، التى تأتى وفقا لطبعهم وسجيتهم ، وعموما فإن النثر الفنى فى العصر الجاهلى يستحق مزيدا من التتبع والدراسة وحسبنا ما ذكرناه فى الصفحات السابقة٠

كتب للمؤلف

أولاً: فى الأدب والنقد :

١- شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني- مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٨٤م.

٢- ياقوت الحموي أديباً وناقداً-دار الطباعة المحمدية بالقاهرة١٩٨٨م.

٣- امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٤- الغموض في شعر أبي تمام- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٥- فن الرواية في المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور- دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م.

٦- شعراء الطائف في الجاهلية والإسلام- دار الطباعة المحمدية ١٨٨٩م.

٧- من روائع الأدب العربي في العصرين العباسي الأول والأندلسي- دار الطباعة المحمدية ١٩٩٠م.

٨- من روائع الأدب العربي في العصرين الأموي والعباسي الأول- دار الطباعة المحمدية ١٩٩١م.

٩- أوزان الشعر دراسة في العروض والقافية- مطبعة الضوي بالزقازيق ١٩٩٤ م.

١٠- فن الرواية في المملكة العربية السعودية (بين النشأة والتطور)- من منشورات المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ١٩٩٥ (الطبعة الثانية) .

١١- دراسات في الأدب الجاهلي- مكتب آيات بالزقازيق- ١٩٩٨م.
١٢- أطوار الأدب العربي في العصر الإسلامي- مكتب آيات بالزقازيق- ١٩٩٨م.
١٣- دراسات في الأدب الأندلسي- توزيع المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ١٩٩٩.
١٤- تاريخ الأدب الجاهلي٢٠٠١م.
١٥- أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة عام ٢٠٠٤م.
١٦- دراسات في الأدب العربي الحديث عام ٢٠٠٧م.
١٧- أصوات- الأرض الحب والثورة طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠١٠م.
١٨- دراسات أدبية – فى عصر صدر الإسلام وبنى أمية- عام ٢٠١٢م.
١٩- دراسات أدبية – في عصور الدولة العباسية والمماليك والعثمانيين – عام ٢٠١٥ م.

ثانياً: فى الثقافة والعلم والتعلم :

١- مناهج البحث فى الأدب واللغة والتربية–نشر مكتبة الآداب بالقاهرة٢٠٠٠م.
٢- رحيق المعرفة – نشر مكتبة الآداب عام ٢٠٠١م.
٣- ألوان من الأدب والفكر والحياة عام ٢٠٠٧م.
٤- قضايا ثقافية،طبع مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف عام٢٠٠٩م.

٥-شخصيات وقضايا فى العلم والتعلم والتربية طبع دار الإسلام بالمنصورة عام ٢٠١٤م.

ثالثاً:فى الدراسات الإسلامية :

١- قطوف من السيرة والدعوة عام ٢٠٠٦م.

٢- الثروة في الإسلام - طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة٢٠٠٧م.

٣- أنوار اليقين طبع مكتبة الآداب بالقاهرة عام ٢٠٠٩م.

٤- بصائر للناس - توزيع مكتبة الآداب بالقاهرة عام ٢٠١٢ م.

٥- أضواء الإيمان طبع دار الاقصي - القاهرة عام ٢٠١٤ م.

٦- سلامة الإنسان فى الإسلام،(الطبع مؤجل).

رابعاً: فى الدراسة والتحقيق

١- أصداء من زمن بعيد - ديوان شعر د/شامل أباظة(طبع عام٢٠١٢م.)

٢- الأعمال الكاملة لأحمد عبدالمجيد الغزالى - الجزء الأول (الشعر) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠١٤م.

٣- الأعمال الكاملة لأحمد عبدالمجيد الغزالى - الجزء الثانى (النثر) طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠١٤م.

٤- الدكتور صابر عبد الدايم - خمسون عاما من العطاء - طبع دار الاقصي بالقاهرة عام ٢٠١٤م.

فهرس الموضوعات

والحمد لله أولا وأخيرا

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٧٠٨٧ / ٢٠١٦م
الترقيم الدولي: 978-977-90-3842-1